تاريخ القوقاز

نسور الشيشان في مواجهة الدب الروسي

تأليف

محمود عبد الرحمن

دار النفائس

جميع الحقوق محفوظة

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب 14/5152
فاكس: 861367 - هاتف: 803152
أو 810194 بيروت - لبنان

DAR AN-NAFAÉS
Printing-Publishing-Distribution
verdun str. Saffi Aldeen Bldg.
P.o.Box 14/5152
Fax: 861367 - Tel. 803152 -
810194. Beirut - Lebanon

E-mail: nafaes@intracom.net.lb

الطبعة الأولى: 1420 هـ - 1999م

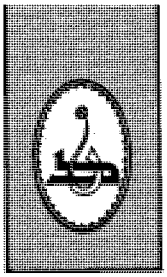

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ القوقاز

دُسُورُ الشّيشَان فِي مُوَاجَهَةِ الدّب الرُّوسِي

أبطال القوقاز

الإمام منصور الشيشاني

جهاد ضد الروس عام ١٧٨٥ م

الإمام شامل

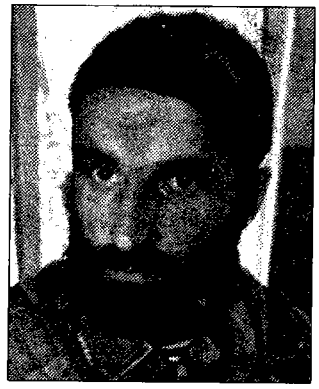

شامل باساييف

دودايف

مسخادوف

ياندربايف

«إهـــداء»

إلى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر/ ١٨].

إلى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران/ ١٧٣].

إلى كل مجاهد، يحمل راية الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، ومن أجل استرداد حقوق العرب والمسلمين المنتهكة.

إلى عشاق الحقِّ والحريَّة في كل مكان من هذا العالم الرحب أهدي هذه الملحمة البطولية.

محمود عبد الرحمن

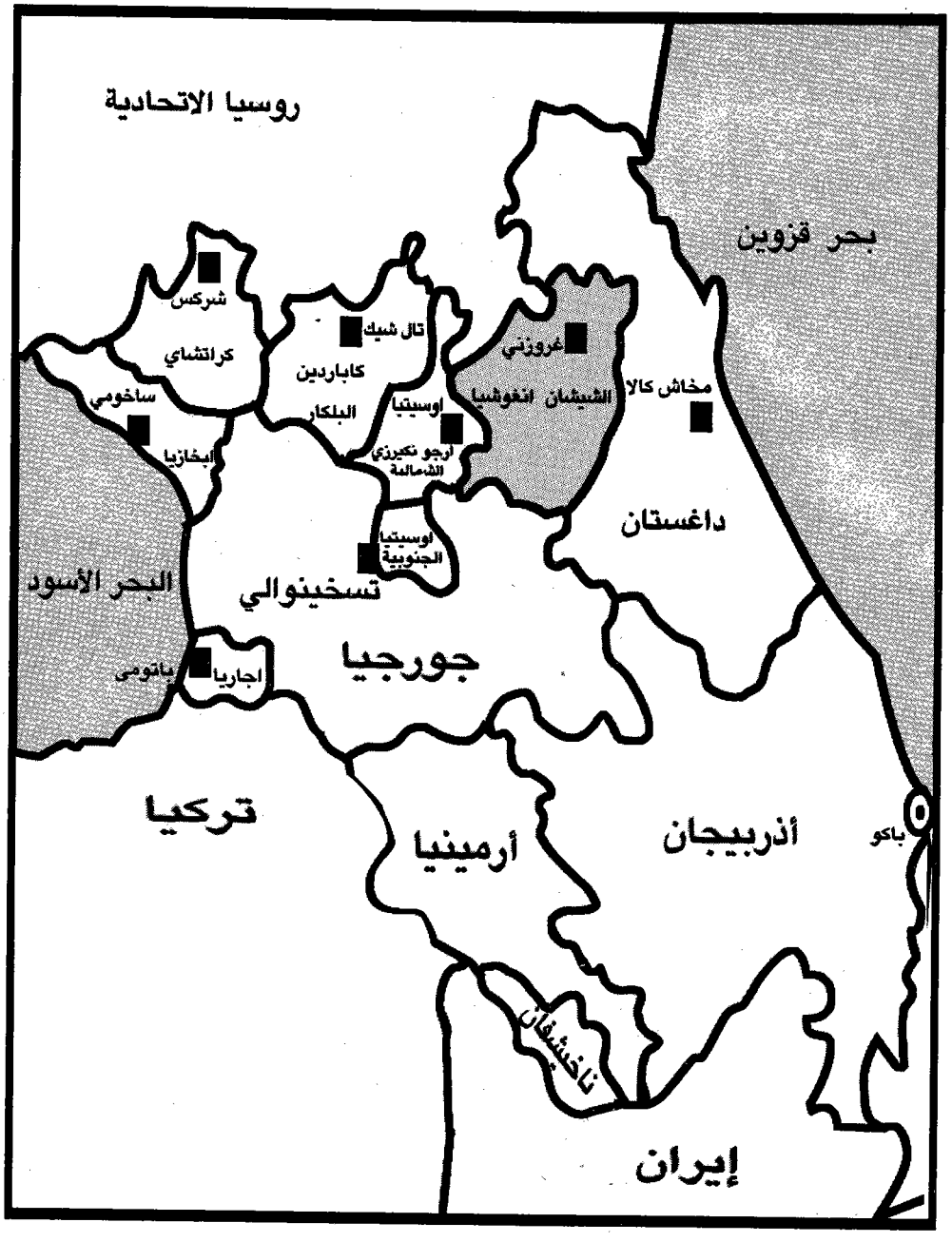

خريطة تبين موقع بلاد الشيشان

الفصل الأول

خصوصية أرض القوقاز

أصل التسمية:

القوقاز كما تورده دائرة المعارف البريطانية هي تسمية لاتينية مشتقة من «قاوقازوس» «Kaukasus» التي وردت في كتابات المؤرخين والجغرافيين الإغريقيين القدامى مثل: «هيرودتس» وبعده «استرابو» وتنتمي التسمية الروسية قفقاس «Kavkas» إلى الأصل نفسه «ويعتقد أن التسمية من أصل قاز قاز «Kaz Kaz» هي التسمية التي كان الحيثيون يطلقونها على سكان الساحل الجنوبي من البحر الأسود[1]. وفي المصادر العربية، وبخاصة معجم البلدان يُطلق ياقوت الحموي (١١٧٩ ـ ١٢٢٩ م) اسم القبق على تلك الجبال، وقد جاء في تعريفه: «قبق بفتح أوله، وسكون ثانيه، وآخره أيضاً قاف، كلمة أعجمية وهو جبل متصل بباب الأبواب، وبلاد اللان، وهو آخر حدود أرمينية». وفي دائرة معارف القرن العشرين يقول «محمد فريدي وجدي» في المجلد السابع عن بلاد القوقاز: «القوقاز مأهول بأقوام مختلفي الأجناس، منهم أقوام يسكنون الجبال وهم الشركس في جهة الشمال من تلك الجبال، وقوم يُقال لهم «الليوغيس والتشيتشين والجيورجان

---

(١) راجع جريدة الشرق الأوسط العدد ٥٨٩٤ تاريخ ١٧/ ١/ ١٩٩٥ وقد اعتمدت الجريدة في تعريفها للقوقاز على دائرة المعارف البريطانية «مادة اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية، وكذلك «معجم البلدان» لياقوت الحموي ودائرة معارف القرن العشرين «محمد فريد وجدي».

والأوسيت، والأقوام الذين يسكنون الجهات المجاورة لجبال القوقاز وهم من الروس، والترك، والقالموق، والكرد والأرمن».

الموقع والتضاريس والمناخ:

تقع المنطقة الجغرافية المسماة بالقوقاز بين البحر الأسود وبحر آزوف من الغرب، وبحر قزوين من الشرق، وتمتد شمالاً حتى حوض ماينتش ونهر القوما، وجنوباً حتى السفوح الشمالية لهضبة أرمينيا بين دائرتي عرض «٤٠ ـ ٤٥» درجة شمالاً، وبين خطي طول «٣٧ ـ ٤٩» درجة شرق غرينتش. تبلغ مساحة منطقة القوقاز «١٧٠» ألف ميل مربع «٤٠٠» ألف كيلومتر مربع. وتقسم منطقة القوقاز من الناحية التضاريسية إلى ثلاثة أقسام:

الأول: سلسلة جبال القوقاز: وتمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، بطول «١٢٠٠» كم[1] مشكِّلة حاجزاً عظيماً يفصل البحر الأسود عن بحر قزوين، وتبدأ هذه السلسلة الجبلية من شبه جزيرة «تامان» على البحر الأسود وتنتهي عند جزيرة «ابشيرون» ومدينة «باكو» على بحر قزوين، وتقسم هذه السلسلة منطقة القوقاز إلى شطرين، أحدهما: يسمى شمالي القوقاز، وثانيهما: جنوبي، ويسمى ما وراء القفقاس أو جنوبه. ويؤكد الجغرافيون أن سلسلة القوقاز تشبه بتشكيلاتها جبال الألب فهي من الجبال الحديثة وفيها «١٥» ذروة وترتفع في بعض قممها من «٣٠٠٠ إلى ٥٦٣٣» متراً وأعلاها جبل «البروز»، وهو شيخ الجبال كما تقول إحدى الأساطير القديمة التي لا يزال الشراكس يتناقلونها: «إن هذا الشيخ المعمَّم بالثلج والمُسور بالقوة والعزم ينظر من بعيد إلى محبوبته البهية بشوق، ويمنعه الكبر عن الاقتراب منها» ويطلق الشركس على قمة جبل البروز اسم «الجبل المبارك»، وكان أول من صعد إليها هو متسلق الجبال الشركسي «كيلار خاشير» ١٨٢٩ م[2]، وتتكون قمة جبل البروز من فوهتين بركانيتين وتغطيها الثلوج دائماً.

---

(١) في كل المراجع الأجنبية نلاحظ أن طول جبال القوقاز هو «١٢٠٠» كم إلا أن د. عادل عبد السلام في محاضرته «جغرافية القوقاز» والمحفوظة في مكتبة الجمعية الشركسية في دمشق يذكر أن طول جبال القوقاز «١١٠٠» كم فقط، ص ٢.

(٢) راجع مقال د. صلاح الدين شروخ في مجلة المستقبل العربي العدد ٢١٠ آب/ أغسطس =

وبالإضافة إلى جبل البروز هناك جبال أخرى تكوّن سلسلة جبال القوقاز وأهمها «جبل قوش تان تاو» و«شخارا» ويبلغ ارتفاع كل منهما ٥٢٠٠ م وجبل «قازبك» المشهور ويرتفع «٥٠٤٤» متراً وغالباً ما تكون هذه القِمم مغطاة بالثلوج، وفيها ثلاجات مشهورة أهمها «ثلاجة ماروخ» وطولها نحو كيلومتر وعرضها كيلومتر أيضاً، وهناك سلسلة جبال «بافْسَنْ» التي تشبه جبال سويسرا. وتتصف سلسلة جبال القوقاز بأنها مرتفعة في الشمال ويقل انحدارها كلما اتجهنا جنوباً، ويتخلل هذه السلسلة ممر «دريال» في وسطها شرقي قمة «قازبك» وفي هذا الممر يمر الطريق العسكري الذي شقه الروس ليصل ما بين جنوبي منطقة القوقاز وشمالها، ويلاحظ على جبال القوقاز أنها خالية من البحيرات، ولكن تكسوها الأحراج الكثيفة والغابات المخيفة التي تتخللها وتحيط بها.

الثاني: شمال القوقاز: ويتألف من سهول تتصل بسهول نهر الدون، وتشبه سهول آسيا الوسطى، وتكثر فيه المستنقعات والصحاري وفيه مساحات واسعة من المراعي، ونظراً لانخفاض حرارته فإن حاصلاته تحصد متأخرة.

الثالث: جنوب القوقاز: ويتألف من سهول قليلة الاتساع أهمها سهل «ريون» الغربي، وهو من أخصب السهول ومزدحم بالسكان، وسهل «كور ـ آراس» الشرقي. وتمتد ما بين هذين السهلين جبال أرمينيا الكبرى التي يقع فيها جبل «آرارات» البركاني الذي يبلغ ارتفاعه «٥١٦٠» م وهو النقطة الأساسية لتخوم ثلاث دول كبرى «روسيا وتركيا وإيران». وتزرع في سهول القفقاس الجنوبية جميع الحاصلات الزراعية وتكثر فيها البساتين وتنتشر فيها المراعي الواسعة.

المناخ والمياه والنبات:

يلعب الارتفاع والانخفاض دوراً مهماً في طبيعة المناخ السائد في منطقة القوقاز، فمثلاً يكون ساحل البحر الأسود معتدل المناخ ورطباً[1] ويستطيع الإنسان

= ١٩٩٦ وهو عبارة عن رد على مقال سيار الجمل وعنوانه: التكوينات التاريخية لجمهوريات القوقاز وما وراءها.

(١) كان الديكتاتور ستالين يقول: «إن القوقاز يعطيني قوة لا نهائية» لذلك كان يحرص في شهر آب/ أغسطس من كل عام على الذهاب إلى القوقاز قرب البحر الأسود للاستجمام، وأحياناً=

أن ينعم بالشمس الدافئة ومياه البحر الصافية، أما ساحل بحر قزوين فيقع تحت تأثير مناخ سهول آسيا الوسطى الشديد الحرارة، أما القوقاز الجنوبي فيكون مناخه أقرب إلى الاعتدال من باقي أجزاء القوقاز، وذلك لأن جبال القوقاز العالية تحول دون وصول الرياح الشمالية الباردة إليه.

أما القوقاز الشمالي فهو شديد البرودة في الشتاء، بسبب تعرضه للرياح الشمالية الباردة، ولكن في الصيف تهب عليه رياح لطيفة ومُنعشة.

وفي بلاد القوقاز العديد من الأنهار، أهمها:

نهر تَرَكَ: وهو أهم أنهار القوقاز الشمالي، وينبع من جبل قازبك، ويخترق ممر «دريال» ويتجه شرقاً نحو بحر قزوين ماراً بعدة جمهوريات قوقازية، ويمر فرع منه في غروزني عاصمة الشيشان ويسمى فيها نهر «سيلج»، وهو شديد الانحدار وغزير المياه، يحمل معه الصخور والحجارة، ويفيض باستمرار، ويصب في بحر قزوين. طوله ٥٠٠ كم، وقد ورد ذكره في رواية «نهاية حب» لتولستوي. وقد تركت شواطىء نهر «ترك» بصماتها على أدب تولستوي، وبوشكين، وليرمنتوف، وغيرهم من كبار الأدباء الروس.

نهر قوبان: وينبع من جبال البروز الشاهقة، وينحدر في وادي ضيق، ويفيض باستمرار، مما أدى إلى تشكل المستنقعات التي كانت في الماضي حداً فاصلاً بين الشراكسة والروس، ويسميه الشراكس باسم «بسِيظ».

وهناك عدة أنهار مثل نهر «كورا» وهو أهم أنهار القوقاز، ويتألف من فرعين طويلين، وترفده عدة روافد قادمة من جبال «آرارات» المشهورة ويصب في بحر قزوين. ومن الأنهار الهامة أيضاً نهر «صولاق صو» وهو أهم أنهار داغستان.

أما النبات: فتمتد المروج والغابات في السهول الخصبة، وتمتد الخضرة الساحرة على مساحات واسعة من الأرض. وتكون الأشجار كثيفة كما في البلاد المدارية، خصوصاً في الجهات الغزيرة الأمطار. أما الجبال فتكسوها الغابات

= يبقى هناك لثلاثة أو أربعة أشهر. راجع جريدة «البيان الإماراتية» عدد ٢١ ذي القعدة ١٤١٦ هـ نيسان/ إبريل ١٩٩٦ العدد ٥٧٧٩ حيث نشرت «كتاب القادة السبعة» في عدة حلقات.

الكثيفة وتكثر فيها الحيوانات الخاصة بالبلاد الباردة كالدِّببة وتكثر في وديانها النمور والضباع ويكثر في أحراجها الماعز الجبلي والمها، وتصلح تربة القوقاز لزراعة الحبوب، والقطن، والأشجار المثمرة، والشاي، والشوندر، والتوت. وتربىٰ في القوقاز مجموعة من الحيوانات «الماعز والخيول والجمال والخنازير» وأهم ثروات القوقاز الباطنية النفط خاصة في أذربيجان والشيشان[1].

أهمية موقع القوقاز:

إن موقع القوقاز كبرزخ بين البحر الأسود وبحر قزوين جعله نقطة اتصال ما بين أوروبا ووسط آسيا، وقنطرة عظيمة تصل بين آسيا وأوروبا، ولهذا فإن المؤرخين يعتبرون القوقاز أهم مراكز التحركات السياسية والاقتصادية والهجرات البشرية منذ ظهور الإنسان على الأرض. وقد لعب موقع القوقاز دوراً بارزاً في نقل الحضارات بين الشمال والجنوب، كما أن غنى القوقاز بثرواته الباطنية، وإنتاجه الزراعي، الذي يفيض عن حاجته، الذي دفع سكانه للبحث عن أسواق لتصدير منتوجاتهم. ويعدُّ القوقاز أهم مناطق العبور للهجرات القديمة، إذ بانتهاء العصر الجليدي بدأت الهجرات الاضطرارية من الجنوب إلى الشمال في وقت لم تكن فيه الطرق البحرية آمنة ومُستخدمة، لذلك تمت الهجرات القديمة بين الشرق والغرب عبر القوقاز، يضاف إلى ذلك أن منطقة القوقاز كانت طريقاً تجارياً ما بين الهند والصين، من جهة، وأوروبا من جهة ثانية، وحتى بعد التوسع في استعمال الطرق البحرية، كنتيجة للكشوف الجغرافية، واستخدام أوروبا لطريق رأس الرجاء الصالح في تجارتها مع الهند والصين فإن ذلك لم يقلل من أهمية القوقاز ومكانته، وظل الحال هكذا إلى أن بدأت الدول الغربية في البحث عن طرق أخرى فرعية إلى أن اهتدت في القرن الماضي إلى شق قناة السويس مما أدى إلى تحول الطرق العالمية عن منطقة القوقاز[2].

---

(١) انظر كتاب «دروس في الجغرافيا الحديثة» قارة آسيا، تأليف محمد نجيب الجزاز، مطبعة النهضة، حلب، محرم ١٣٥٩ هـ، شباط/ فبراير ١٩٤٠ م، ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) للمزيد من المعلومات عن أهمية موقع القوقاز يمكن مراجعة كتاب «تهجير الشراكسة» تأليف نهاد برزخ، ترجمة عصام الحسن حتق، عمان ١٩٨٧ ص ١٣، وكتاب «تاريخ التجارة في القوقاز» لمؤلفه «أحمد جانيك» استنبول ص ٧.

الفصل الثاني

خصوصية شعوب القوقاز

أصل سكان القوقاز:

أجمع علماء وصف الشعوب والأجناس البشرية على أنه لا توجد أية علاقة سلالية، أو دينية، أو مذهبية، أو لغوية، أو ثقافية، تربط بين شعوب القوقاز والروس، لا من قريب ولا من بعيد. وأكد العلماء أن بلاد القوقاز كانت مصدراً، ومهداً للجنس الأبيض، ونسبوا إليها جميع البيض سكان آسيا وأوروبا وأسموهم بالجنس القوقازي، وكان أول من أطلق اسم هذه السلالة فقال: «القوقازية» هو العالم الألماني «بلومن باخ» [1] «Blumen bach» «١٧٥٢ ـ ١٨٤٠ م» حين قام بدراسة شعوب القوقاز، وأكد أنها مصدر الكثير من الشعوب التي نسميها بالبيضاء أو الأوروبية وينضوي تحت هذه السلالة الجامعة سكان الجزيرة العربية وإيران وسكان شمال إفريقيا وغربها، وتحدثت مجموعة كبيرة من الأساطير القديمة عن عراقة منطقة القوقاز ومدى أهميتها في التاريخ الإنساني، وعلى سبيل المثال، وبموجب أسطورة «بروميثوس» الإغريقية القديمة رُبط بروميثوس «حامل النار» إلى عمود قائم في جبال القوقاز وبتعبير الأسطورة في «أقاصي الأرض». وبالطبع فإن منطقة القوقاز لا تبعد كثيراً عن موطن الإغريق لكن جَعْل القوقاز «أقاصي الأرض» [2] هو تعبير عن مدى وعورة المنطقة وصعوبة الوصول إليها. وبالتأكيد إن

---

(١) راجع مجلة العربي الكويتية مقال المرحوم د. أحمد زكي «سلالات البشر» العدد ١٢١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٨ ص ٢٦.

(٢) راجع جريدة الشرق الأوسط العدد ٥٨٩٤ تاريخ ١٧/ ١/ ١٩٩٥، مرجع سابق.

نفي كائن متمرد مثل بروميثوس إلى تلك المنطقة الموحشة وشدَّ وثاقه إلى تلك الجبال القاسية لهو عقاب صارم حقاً. ونستدل من هذه الأسطورة أن الإغريق افتتنوا، وربما ارتعبوا، من وحشة بلاد القوقاز وغموضها بحيث ترسخت هذه المنطقة في ذاكرتهم الجماعية، وأنجبت أساطيرهم. وبالإضافة إلى أسطورة بروميثوس فقد جعل الإغريق من أرض «الكولتشيس» في بلاد القوقاز «سهل كولخيدا» الحالية على البحر الأسود هي البقعة التي انطلقت منها الأرجوانات بحثاً عن «جزة الصوف الذهبية». ولا يقتصر الأمر على الإغريق، ففي المشرق العربي تزخر حكاياتنا الشعبية باسم جبال القوقاز ووحشتها، ويُعتقد أن جبل «القاف» الذي يرد ذكره في أساطيرنا القديمة كرمز للبعد واستحالة الوصول إليه هو جبال القوقاز، وحتى القوقازي يختصر جوابه عندما تسأله عن بلاده، فيجيبك: «إنها البلاد العالية» واتفق المؤرخون على تسمية بلاد القوقاز «بأنها البلاد التي لا يمكن قهرها».

أما الشعوب التي استوطنت منطقة القوقاز منذ القديم فيمكن تقسيمها إلى قسمين[1]:

١ ـ **شعوب شمالي القوقاز**: وتضم: الأديغة، والأبزاخ، والبزادوغ، والشابسوغ، والوبيخ ـ الحاتقواي ـ التأتخواي ـ التشامقوي و«الويناخ». والويناخ كلمة مؤلفة من مقطعين معناها «قومنا نحن» وتطلق على شعبي الشيشان والأنغوش. وهناك الأوستين والتي تتمثل بالإيرون والديقور، ومن الداغستان والتي تتمثل بالأوار والأندلال واللاك والأبخاز.

شعوب القوقاز الجنوبي: وتتكون من: الجيورجيون (جورجيا) في وسط القوقاز الجنوبي والأذربيجان في الجنوب الشرقي، والأرمن «أرمينيا» في الجنوب الغربي، والأدجار سكان جمهورية أدجاريا في الجزء الجنوبي الغربي لجورجيا. وبما أن الشراكسة كانوا ولا يزالوا في مقدمة الشعوب القوقازية التي وقفت في وجه الدب الروسي وخلعت أنيابه ووضعت كمامة على فمه وقلّمت أظافره وصرعته فسوف أركز دراستي على نضالها العنيد والذي تكلل مؤخراً بالظفر والنصر المؤزر.

---

(١) انظر كتاب «تاريخ القوقاز» تأليف: مت جوناتوقة يوسف عزت، تعريب خوستوقة عبد الحميد غالب، إصدار دار صوت النارتيين للنشر، عمان، الأردن، ص ٥٩.

لمحة عن الشعب الشركسي:

يُعد الشراكسة من أقدم الأمم الذين سكنوا القوقاز الشمالي وقد اختلطوا بشعوب أخرى، ونتيجة لهذا الاختلاط فقد بدأت تظهر فوارق لغوية بينهم تزايدت مع الزمن حتى وصلت إلى درجة كبيرة من الاختلاف رغم أن سكان شمالي القوقاز أبناء ثقافة واحدة ومصير واحد. ويقول المؤرخون الشركس إن لقب شركسي ليس اسماً لأحد من الأقوام التي ذكرناها في شمال القوقاز، ولا توجد قبيلة واحدة تحمل اسم القبيلة الشركسية في القوقاز، وإن كلمة شركسي اسم أطلقه الأجانب على أبناء شعوب شمالي القوقاز الأصليين، ومن هنا يمكن القول إن كل أديغة، أو شيشاني، أو أوستيني، أو داغستاني، هو شركسي، ولكن ليس كل شركسي أديغة، وليس كل شركسي شيشاني أو داغستاني. وبتعبير أدق إن اسم شراكسة يطلق الآن على جميع الشعوب[1] التي كانت تسكن شمالي القوقاز. ولهذه الشعوب حضارة مشتركة وقد أكد ذلك المؤرخ الشركسي يوسف عزت فقال: «إن شعوب الأديغة والشيشان تنحدر من نفس العرق». ولمعرفة الاسم الحقيقي للأمة الشركسية لا بد من الاستعانة بعميد المؤرخين الشراكسة وهو «شورا بكيمرزانو غموقة»، فنراه يؤكد في كتابه المهم والموثّق: «تاريخ الأديكة الجركس القديم»[2] «إن الاسم الحقيقي للأمة الشركسية، والذي بقي محفوظاً إلى الآن، والذي جاء به الشعر والأغاني والروايات القديمة هو «آنت» «ANT» وهو اسم القبيلة العظيمة التي تعتبر أم القبائل الشركسية، وقد حُرِّف هذا الاسم مع مرور الزمن فصار «أديكه أو أديجه» باستبدال التاء بالدال للتحقيق، وإضافة المقطع الأخير فيه أي «خه» إلى الاسم الأصلي. وفيما يختص بكلمة شركس أكد «شورا بكيمرزانو غموقة»: «إن هذه الكلمة قد تضاربت الآراء في تأويلها واختلطت الأقوال في تفسيرها، إذ قال البعض إنها مشتقة من اللغة الفارسية، والبعض الآخر ادعى أنها من أصل تتري، ولكن الأرجح والمعقول أن تكون ناتجة عن تحريف لفظ «كركت» «Kerket» القديم الذي كان

---

(١) راجع كتاب «تهجير الشراكسة» تأليف نهاد برزخ ص ١٤ مرجع سابق.

(٢) راجع كتاب «تاريخ الأديكة الجركس القديم» تأليف شورا بكيمرزانو غموقة، ترجمه إلى الألمانية ونقحه الأستاذ «آدولف» تعريب شوكت المفتي حبجوقة. مطبعة الأردن ـ عمان ١٩٥٣ ص ٨ وما بعدها.

قدماء الإغريق يطلقونه على أمتنا أو على أحد شعوبها».

أصل الشركس:

أكد العلماء أن الشركس من السلالة الآرية أي أنهم ينحدرون من نفس سلالة الأوروبيين، ويوافق على هذا الرأي معظم علماء الأنساب المعاصرين خصوصاً الرحالة الشهير «إرنست شانتر» وكذلك «مورجان»، إلا أن المؤرخين الروس ادعوا أن «الآنت» ينحدرون من السلالة الأسلاوية «الصقلبية»، وذلك لتبرير سيطرتهم وتوسعهم الاستعماري في منطقة شمالي القوقاز، فبادر المؤرخ الشركسي «شورا بكيمرزانو غموقة» إلى تفنيد الإدعاءات الروسية فقال: «الآنت هم قدماء الأديكة أو الشراكسة، نقول إنهم لم يكونوا من السلالة الأسلاوية «سلالة الروس» كما ادعى مؤرخو الروس لغرض في أنفسهم بل إنهم جيرانهم» وأيد رأيه هذا بما قاله المؤرخ «بروكوبيوس» الذي قال: «إن أمم الآنت كانت في مواطنها شمال البحر الأسود مُحاطة بأقوام أسلاوية يختلفون عنهم جنساً وعرقاً، والآنت أمة قائمة بنفسها». أما المؤرخ **سترابو** فقد بحث في القرن الأول للميلاد منشأ الآنت وتاريخهم وسمى نهر القوبان باسم «آنتي كيتس»، نسبة إلى أمة الآنت.

يدعي بعض الشراكسة في بعض أساطيرهم، وبخاصة أشرافهم وأمراؤهم، أنهم من سلالة العرب، وبالتحديد من قبيلة قريش إلا أن هذا الادعاء لا أساس له من الصحة، كما أكد المؤرخ «مورجان» وبيّن «أن هذه الفكرة لم تطرأ على الشراكسة وحدهم[1] بل شاركهم فيها الكرج واللاز وأكراد أذربيجان وحتى أن الشيشان يدَّعون في أساطيرهم أن أبا جدهم «ناخ تسو» المدعو «علي عرب» جاء إلى القوقاز من دمشق الشام في وقت لا يمكن تحديده، ويوضح «مورجان» أن هدف هذه الادعاءات هو الرغبة في الانتساب للأمة العربية حباً في النبي محمد ﷺ. أما المؤرخ «دوروي» فيوضح سبب هذه المزاعم بقوله: «إن تعلق الشعوب بالانتساب للأمة العربية لم ينشأ بعد ظهور الإسلام، بل إن الفكرة قديمة، وذلك لأن الشعوب يعجبهم التفاخر بأنهم ينتمون إلى أصول قديمة وعريقة، ويضاف إلى ذلك حبهم

---

(١) راجع كتاب «تاريخ القوقاز» تأليف يوسف عزت مرجع سابق. والمؤرخ شورا بكيمرزانو غموقة في كتابه «تاريخ الأديكة».

الانتساب إلى الأنبياء والمرسلين، وكل ما هو سام وعظيم». والسؤال الآن. ما أصل الأديغة الشركس؟ يجيبنا المؤرخ الشركسي يوسف عزت فيقول: إن الأديغة هم أحفاد «الهاتي ـ الحثيين» وأيد رأيه بالعديد من الدلائل والقرائن منها[1]:

١ ـ ثبت من البحث في نواويس وتوابيت موتى الحثيين التي صنعها المصريون القدماء وحفظوها بمصر، ومن التدقيق في وجوه وتكوين هياكل هؤلاء الموتى، ومن ملابسهم وأزيائهم ومعتقداتهم، اتضح أنهم أجداد الشركس بلا نزاع.

٢ ـ إن الخط الميخي الذي اخترعه الحثيون واستعملوه لا يزال مستعملاً عند الشراكس كشارات وعلامات للعائلات والأفخاذ والقبائل.

٣ ـ إن البقية الباقية من لغة الحثيين وعلى الرغم من قلتها تنطبق تمام الانطباق على لغة الشراكسة وتنسجم معها ولا يفرق بينهما فارق.

٤ ـ أكد العلامة الإنجليزي «سايس» والمؤرخ «لو نورمان» وكذلك العالم الفرنسي «مورجان» وبعد قيامهم بحل رموز الكتابة الحثية أن الحثيين هم أجداد الشراكسة، وأوضحوا أن الحثيين لم يأتوا إلى القوقاز بعد تفكك أمبراطوريتهم التي كانت تمتد وتشمل آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وسورية لغاية الحدود المصرية، بل إنهم كانوا يقطنون وطنهم وبلادهم الأصلية القوقاز قبل هذا التوسع العظيم وتكوين امبراطوريتهم، وكان عصرهم الذهبي في القوقاز في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وأعظم ملوكهم في القوقاز كان «أ. إيتس» وقد ورد ذكره في أسطورة «أرجونوت» عند قدماء اليونان، وبناء على ذلك فإن الشراكس من الأمم العريقة في القدم كالمصريين والصينيين والفينيقيين وغيرهم.

اللغة الشركسية:

على الرغم من أن الشراكس ينحدرون من أصل واحد ولهم ثقافة واحدة إلا أن اختلاطهم بالشعوب الأخرى أدى إلى ظهور فوارق لغوية بينهم، وقد أكد المؤرخ الروماني «بليني» في القرن الأول الميلادي أن «١٣٠» لغة كانت موجودة في القوقاز. وذكر ابن الفقيه المؤرخ العربي «أن في بلاد القوقاز حوالي «٧٢» لساناً

---

(١) راجع «تاريخ القوقاز» تأليف المؤرخ الشركسي يوسف عزت ص ٩٣. مرجع سابق.

لا يعرف كل إنسان لغة صاحبه إلا بترجمان[1]. أما شاعر داغستان «رسول حمزاتوف» فيؤكد أن الكتب في بلده تصدر بتسع لغات[2]، وعندما سئل عن هذا التعدد في اللغات لجأ إلى الخيال لتفسير ذلك فقال: «كان والدي يروي القصة التالية: «أخذ موزع اللغات يجوب الأرض على بغله ويوزع على الشعوب لغاتها من خِرج ضخم، فزار الصينيين وأعطاهم اللغة الصينية، وزار العرب وأعطاهم اللغة العربية، وأعطى اليونانيين اليونانية، والروس الروسية، والفرنسيين الفرنسية، وكانت اللغات متنوعة منها المموسق ومنها القاسي، ومنها الجميل واللطيف، وأخيراً وصل موزع اللغات على بغله إلى داغستاننا بعد أن أعطى الجيورجيين لغتهم، لكن صدف أن عاصفة ثلجية هبت على داغستان في ذلك اليوم، وكان الثلج يدوم في السفوح ثم يرتفع في الجو فلم يكن يرى شيئاً، لا طرقاً ولا سكناً، ولم يكن يسمع إلا الريح وهي تصفر في العتمة، والصخور وهي تنهار بين الحين والآخر، عندها قال موزع اللغات، وقد بدأ شارباه يتجمدان: لا، لن أتسلق هذه الصخور في مثل هذا الطقس. فأخذ خرجه، وكان لا يزال في أسفله مقدار حفنتين من اللغات التي لم توزع بعد، ونثر هذه اللغات كلها على جبال القوقاز، وقال: ليأخذ كل منكم اللغة التي يريد». وهناك روايات أخرى متناثرة في الأساطير الشركسية، تعطينا تفاسير مختلفة لتعدد الألسنة في القوقاز.

وإذا نظرنا في هذه اللغات نجد أنها تتكون من ثلاث مجموعات:

الأولى: مجموعة شمالي القوقاز، وهي بلاد الشراكسة القديمة ووطنهم الأول، والتي تسكنها قبائل: «الأبزاخ ـ والبزادوغ ـ الحاتقواي ـ الكمير كوي ـ الآ دمه ى، والشابسوغ، والناتخواي، والشيشان والأنغوش» ولهجة هذه القبائل تكاد تكون واحدة لولا وجود بعض الاختلافات البسيطة في تقديم بعض الحروف أو تأخيرها في بعض الكلمات، ويؤكد الباحثون أن لهجات هذه القبائل هي نفس اللهجة التي كان يتكلم بها قدماء الشراكسة «الحثيين».

---

(١) راجع مجلة العربي الكويتية العدد ٣٣٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٦ ص ٧١ مقال واستطلاع «فسيفساء اللغات والناس في بلاد القوقاز».

(٢) راجع كتاب «داغستان بلدي» تأليف رسول حمزاتوف، تعريب عبد المعين ملوحي ويوسف حلاق، دار الفارابي بيروت. ١٩٨٢ ص ٣٥٠.

الثانية: مجموعة لغات منطقة بلاد القابردي الكبرى والصغرى.

الثالثة: مجموعة بلاد الأباظة، وهؤلاء تختلف لغاتهم عن باقي اللغات الشركسية تمام الاختلاف ويظهر الفرق واضحاً في النطق والتعبير.

ويؤكد علماء اللغات أن اللغة الشركسية هي لغة هندية ـ أوروبية قريبة من اللغات الأوروبية، من حيث قواعد اللغة وتركيب الكلمات ومخارجها، وحتى تركيب الجملة في اللغة الشركسية يتبع قواعد تشبه قواعد اللغة الألمانية. إلا أن المؤرخ الشركسي «شورا بكيمرزانو غموقة» يؤكد «أن لغة الأديكة تختلف كثيراً عن اللغات الأوروبية والآسيوية من حيث طريقة تركيبها وأساليبها الخاصة بها. ولهجة القبارطاي، والسبلاني، أحسنها وأنقاها، وقد احتفظت لغتنا الشركسية بفضل الأغاني القديمة بهاتين اللهجتين بكثير من الروايات والأساطير القديمة الخاصة بأمتنا، والتي تحدثنا إلى يومنا هذا بوقائع العصور والأزمنة الغابرة». ويؤكد «شورا بكيمرزانو غموقة» أن اللغة الشركسية قد تأثرت باللغات الأوروبية فيقول: «وهنا لا تخلو من الفائدة أن نذكر أن لغتنا الشركسية وإن كانت تختلف عن اللغات الأوروبية فقد استعارت بعض الكلمات المشتقة من اللغات القديمة، مثل اليونانية واللاتينية، والروسية»[1].

وقد تطورت لغة الكتابة الشركسية بشكل منفصل في منطقتين:

١ ـ في شركسيا، وهي موطن الشركس في القوقاز منذ بداية القرن التاسع عشر.

٢ ـ في مناطق الأمبراطوريتين، العثمانية والفارسية[2].

أما الآن فيتم التفاهم بين سكان القوقاز بالروسية التي فرضت فرضاً على الشراكسة، وقبل فرضها كانت شعوب القوقاز قد استعملت التركية والفارسية على نطاق ضيق. أما اللغة العربية فقد استخدمت على نطاق واسع في عهد القياصرة البيض لكتابة اللغة الأديغية في المدارس دون أن تنتشر في أوساط الشعب إلا في

---

(١) راجع كتاب «تاريخ الأديكة الجركس القديم» مرجع سابق ص ٤٠.

(٢) راجع كتاب «أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكس» ص ١٣. تأليف: باتراي أوزبك ترجمة أحمد راتب زنداقي، عمّان، الأردن، إصدار مكتبة الشباب ١٩٨٨.

نطاق محدود، إلا أنها بقيت لغة للكتابة الرسمية حتى جاء القياصرة الحُمر عام ١٩١٧ م وبعد أن تمكنوا من إخضاع القوقاز بالحديد والنار أجبروا السكان على استعمال الحرف اللاتيني بدلاً من العربي، واستمر ذلك حتى عام ١٩٢٨ م ومنذ ذلك الحين استعملت الكتابة السلافية «الروسية» مع إضافة بعض التعديلات لتناسب الحروف الخاصة في اللغة الشركسية، وقد برر الشيوعيون أسباب فرض اللغة السلافية على الشركس بحجة أن العلماء حاولوا في عشرينيات هذا القرن تطوير اللغة الشركسية المكتوبة بالعربية كي تستوعب العلوم والتقنية الحديثة، إلا أنهم فشلوا في ذلك، فاضطروا للاستعانة باللاتينية، ثم بالسلافية، إلا أن الحقيقة هي أن الشيوعيين كانوا يهدفون إلى القضاء على الإسلام، وهذا لا يتم إلا بالقضاء على اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، أما أن اللغة العربية قاصرة عن استيعاب التقنية والعلوم الحديثة فهو محض افتراء. فاللغة العربية لغة غنية وعريقة وقد استوعبت علوم اليونان والهنود والصينيين القدماء، وهي قادرة اليوم على استيعاب كل العلوم مهما كانت معقدة، وهي لغة حية ولودة حافظت على حيويتها وديمومتها منذ أكثر من ١٥٠٠ عام، ولا تزال وستظل كذلك إلى ما شاء الله.

خصائص مجتمع الأديغة «الشركس»:

من الأمثلة القديمة المتداولة في مجتمع الأديغة: «الآنت الذي لا يعرف الكلل ولا الملل» وهذه لعلها أولى الصفات التي يتحلى بها الأديغة. وقد ساعدت التربية القومية لهذا الشعب على تهذيب نفوسهم، وعلى جعلهم أقدر من غيرهم على تحمل المشاق، ومواجهة الأخطار، وقد تحلى مجتمع قدماء الأديغة بالمهارة الحربية والفروسية الفريدة، والهندام الأنيق، وامتاز بميزات كثيرة تأتي في مقدمتها الميزات العسكرية.

الحياة العسكرية عند الأديغة:

يقول الكاتب الشركسي «يحيى حالوق بك»[1] في وصفه الحياة الحربية عند الشراكس: «إذا جلسنا إلى شيوخ الشراكس، وسمعنا حكايات الحروب ووقائعها وتفاصيلها، نلاحظ أننا نسمع قصصاً مشابهة تماماً للقصص الحربية المدوَّنة عن إسبارطة اليونانية، مع أن الشراكس لا يعرفون إسبارطة ولم يسمعوا عنها شيئاً،

(١) راجع «تاريخ القوقاز»، تأليف يوسف عزت، مرجع سابق. ص ٢٢١.

وهكذا فإن تقاليد الحرب عند الأمتين كانت واحدة ومتفقة تمام الاتفاق حتى في التفصيلات الدقيقة». وتذكر القصص والأساطير الشركسية روايات متعددة عن الحرب ومن ذلك فعندما يعود أحد الشبان من الحرب ويصل لبلده يجد والدته على سطح داره فيناديها: «يا أماه قد ذهبت إلى الحرب وها أنا عائد منها». فتصيح الأم في وجهه وتلقي عليه حجراً قائلة: «إذا كنت ذهبت إلى الحرب حقاً وشاركت إخوانك صدقاً، لكنت أصبحت في عداد الموتى الآن، أغرب عن وجهي يا جبان».

أما الخضوع والاستسلام للعدو فهذا أمر مستحيل أن يحدث عند الأديغة وبهذه المناسبة نذكر جواب الفارس الشركسي «لاوريتاس» لخان الأوار حينما طلب إليه هذا على لسان رسله الخضوع لسلطته ودفع الجزية، فقال «لاوريتاس»: «سوف لا نخضع لأحد، ولا ندفع أية جزية ما دامت سيوفنا بأيدينا وأبطالنا الشجعان على قيد الحياة». ومن التقاليد الشركسية المتوارثة لبس السواد على موتاهم، ولكن التقاليد تحرم على الوالدة والزوجة وأقارب شهيد الحرب لبس السواد عليه، وإقامة المآتم والظهور بمظهر الحزن، وحتى أن ذرف الدموع يعد نقيصة قومية يُعاب عليها، وعند تشييع الجنازة يرتدي الشراكسة ملابس بيضاء، ويشتركون في كل شيء حتى توديعه في مقره الأخير بكل هدوء ينظرون ولا يتكلمون ولا يبكون. ولعل أرداً صِفةٍ يخاف الشركسي من أن تُلصق به هي صفة الجُبن، وإذا ما وجهت هذه التهمة إلى شخص ما، فإن على عائلته عدم الخروج من دارها ولا مواجهة الناس، ولا حتى ارتياد المجتمعات والأسواق، وحتى إذا ما زارهم بعض أقاربهم تمنوا لهم زوال هذه الشدَّة بقولهم «بيَّض الله وجه زوجك» وطبعاً لا يزول هذا العار إلا بدخول ذلك الشخص حرباً جديدة إما أن ينتصر فيها أو يصمد حتى الموت[1].

إكرام الضيف:

تقضي التقاليد الشركسية المتداولة والمتوارثة بإكرام الضيف وتقديم[2] أفضل ما لدى المضيف من طعام وشراب، وحتى إذا رحل عنه وجب عليه أن يرافقه

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن خصائص مجتمع الشراكسة يمكن مراجعة كتاب: «تاريخ الأديكة القديم»، وكتاب يوسف عزت: «تاريخ القوقاز».

(٢) للمزيد من التفاصيل عن المضافة الشركسية يمكن مراجعة كتاب «أساطير النارتيين». مرجع سابق ص ٧٣، وما بعدها.

ويحميه من كل اعتداء طارىء، وإذا صادف أن أهمل الشركسي ضيفه فسرعان ما يجتمع مجلس الشعب ويفرض على المهمل ما يستحقه من جزاء. ويقول «نويمان»: ليس هناك في العالم شعب يرحب بالغريب أفضل من هؤلاء الشركس، فهم يخدمون الضيف بأنفسهم لمدة ثلاثة أيام، ومن التقاليد المعمول بها أنه لا يجوز مبادرة الضيف بسؤاله من أين جاء؟ ومتى يذهب؟ ولكن طريقة تعليقه لسوطه على الجدار تدل على ما إذا كان سيتابع السفر بعد مكوث قصير، أو أنه ينوي البقاء طويلاً؛ فإذا علق سوطه بحيث يتدلى بكامله للأسفل فإن هذا دليل على أنه لن يطيل المكوث، أما إذا علقه من منتصفه فإن هذا يدل على أنه ينوي قضاء وقت أطول. ومن الأمثلة الشركسية في هذا المجال «دار لا ضيف فيها لا بورك فيها»، «الضيف شريك الروح» ومن الطريف ذكره أنه إذا حدث، ورغم الحفاوة بالضيف، أن اختار الضيف مضيفاً آخر فيجب على المضيف الجديد تقديم كفارة، وذلك بإقامة حفلة تكون تكاليفها هي الغرامة المفروضة، ولم تكن المضافة الشركسية «هاتشئيش» مخصصة لإكرام الضيف وحسب، بل كان لها دور كبير في تناقل الثقافة والتراث للأجيال الجديدة، وكانت أشبه بمنتدى ثقافي يجري فيه الحديث عن المعتقدات الدينية، والأساطير، والحكايات، والأشعار الشعبية، والتاريخ، والبطولات، وأحياناً يُلقى فيها الشعر. وقصارى القول: إن المضافة هي مكان يتعلم فيه الشعب الشعر والتاريخ والرواية، وعن طريق المضافة أمكن حفظ التراث الشركسي حتى اليوم من الضياع، ويقول المؤرخ الشركسي الموثوق «شورا بكيمرزانو غموقة»: «ليس في الروايات الشركسية ما يدل على ارتكاب الشراكس شيئاً من السرقات أو اللصوصية، وحتى أنه إذا التجأ إلى القرى الشركسية غريب وكان فقيراً فقد كانت العادة أن يسمح له باقتناء المال حتى بالوسائل غير المشروعة، ويفسح له المجال للحصول عليه بمختلف الوسائل، وأيسر السبل، حتى يتمكن من تحسين وضعه المادي بسرعة وبعد مضي سبع سنوات على مزاولة عمله غير المشروع فقد كان عليه أن يمتنع عن تلك الوسائل غير المشروعة».

الثقافة والفنون عند الشركس:

يمكن القول إن الشراكسة شعب شاعري واسع الخيال، متوقد الروح، وعميق الإحساس بمحاسن الطبيعة، وإذا نظرنا بإمعان في ما وصلنا من شعر

وقصائد شركسية نلاحظ أنها تتغنى بروح الشجاعة والأفعال الحميدة. وتذم الجُبن والأخلاق السيئة. ويلاحظ وجود أربعة أنواع من الشعر الشركسي[1]:

١ ـ القصائد القديمة: وتتضمن قيماً سامية وتحض على التمسك بالمثل العليا.

٢ ـ أغاني الأفراد.

٣ ـ قصائد الهجاء.

٤ ـ أغاني جماعية ذات محتوى لماح ساحر.

وبشكل عام فالقصائد الشركسية هي مرآة حقيقية لشخصية الشركسي وما يتحلى به من خصال حميدة، ويلاحظ أن هذه القصائد خالية تماماً من الإسفاف وكل ما يتعارض مع الأدب والشرف؛ وهذه قصيدة من القصائد التي ترددها المربية المشرفة على تربية الطفل الشركسي[2]:

لاي لاي لاي لاي يا قرة العـ ـين! أنت اليوم طفل صغير
وغداً ستغدو بطلاً عظيماً فإذا ما اشتد ساعدك
لك أن تغزو بقطعان الخيل والغنائم والأسلاب
ولكن إياك أن تنساني حينذاك أنا مربيتك العجوز

أما الأغاني الشركسية فتقسم إلى قسمين:

١ ـ وَرَدْ: وهي أغاني مخصصة لوصف الحياة القومية، والوقائع الحربية، والحب، ويصعد تاريخها إلى زمن الحثيين، أجداد الشراكس.

٢ ـ غيبزه: وهي عبارة عن مرثيات لشهداء الحرب، المقتولين قهراً، أو الذين قضوا نحبهم في حب الوطن، ولا يسع سامعها إلا التأثر وذرف الدموع، والطموح إلى الأخذ بالثأر. وهناك قول قوقازي مأثور يشرح الغاية من الأغاني الشركسية وهو: «يعرف الخنجر الجبلي أنشودتين فقط: واحدة عن الموت، والأخرى عن الحريّة». وعرف المجتمع الشركسي القديم ظاهرة المغني الجوال وقد كان مرهوب

---

(١) راجع كتاب «أساطير النارتيين». مرجع سابق.

(٢) «تاريخ الأديكة القديم» ص ٢٨.

الجانب ومحترماً، وكان يشارك في المعارك لأن وجوده إلى جانب المقاتلين كان يدفع عنهم الخوف والجبن ويحصنهم من التفكير بالهرب خشية الهجاء، وقد كان من العار أن يذكر اسم إنسان في قصيدة هجاء ويُعد عقاباً شديداً لا يحتمل!

أما الرقص الشركسي فيختلف عن رقص سائر الشعوب الشرقية، ويشبه رقص الأوروبيين، وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ وبچ، ٢ ـ قافة، ٣ ـ ججن.

وكل من هذه الأقسام يتفرع إلى عدة أنواع وأوضاع، فالقافة والججن هما الرقص بين شاب وشابة وجهاً لوجه.

أما رقص الوبچ فيكون من مجموعة شبان وشابات.

ويدور الرقص على أنغام الموسيقى التي تعزفها شابة من الحاضرات، ويتحتم على الراقص أن يتتبع حركات مراقصته دون ملامسة، وأن ينسجم معها بخفة ورشاقة. وهناك نوع من الرقص الشركسي يشترك فيه الرجال فقط، ويسمى «رقصة الحرب» والموت، وعادة ما يكون الراقص يحمل خنجره، وتهدف هذه الرقصة[1] التي يشترك في أدائها عدد كبير من الرجال إلى إظهار تصميم الشركس على خوض الحرب دفاعاً عن الوطن.

أما الآلات الموسيقية التي استخدمها الشركس فهي كثيرة أهمها: «الأكورديون والمنفاخ، والكمان»، ونوع معروف باسم «بجامى» وهو مزمار يستعمله الرعاة عادة. ومن الملاحظ أن الكثير من الألحان الشركسية الرائعة مُقيدة في نوتات حديثة، بقي أن نذكر أن المؤرخ الشركسي «شورا بكيمرزانو غموقة» قد أكد: «أن الأغاني قد تضاءلت عند الشراكسة بعد اعتناقهم الإسلام اتباعاً لما فيه من النهي عنها».

أخلاق الشركس وتقاليدهم وقوانينهم:

خضعت عموم بلاد الشركس في القوقاز لقانون واحد هو «الأديغة خابزة»،

---

(١) يؤكد الدارسون لخصوصية شعوب القوقاز: «أن الرقصات الشعبية التي يمارسونها حتى وهم في سن متقدمة والتي تعتمد على حركات رياضية قاسية وصعبة ومرونة جسمية كبيرة، تدل على مدى تحمل الشركس وقدرتهم على بذل الجهود القاسية وميلهم إلى القوة في كل مظاهر حياتهم في السلم والحرب.

وهو بمثابة دستور مُستمد من التقاليد والعادات القديمة التي لها مكانتها وقدسيتها في نظر جميع فئات المجتمع، وقد كان واضعو قواعد «الأديغة خابزة» حكماء لأنهم راعوا فيها الأمراض الاجتماعية، فاحتاطوا لها بهذا القانون، الذي يُعد سياجاً ووقاية من تلك الأمراض قبل حدوثها، وكان هذا القانون يسري على الجميع، الحاكم والمحكوم على السواء، ويحدد السلوك الاجتماعي الضروري والمناسب للفرد والجماعة، وهو بهذا المعنى ساعد في تنظيم حياة الإنسان والبلاد عامة من قيادة الشعب، وتنظيم الجيش، وتداول المال والقوانين السياسية، والاقتصادية والاجتماعية. ونتيجة لهذا القانون فإنه لم تقع حادثة واحدة في بلاد الشركس[1] تُخل بالشرف أو تجرح الناموس، وكان الشركس ينادون بعضهم بكلمة أديغة ومعناها «مواطن رفيق» وبموجب القانون المذكور أصبح أفراد القبيلة متساويين في الحقوق، وبدرجة واحدة، وكانوا متضامنين متكاتفين متحدي القلوب، يطيعون آباءَهم طاعة مطلقة ويحترمون الشيوخ والعلماء.

ومن عادة الشركس عدم معاملة أولادهم بقسوة، وكذلك صيانة العرض والشرف والكرامة، ولهم في ذلك شعار مشهور: «الأرواح رخيصة في سبيل الكرامة». أما عن مركز المرأة في المجتمع الشركسي القديم فقد كان مرموقاً، فكانت تشارك الرجل برأيه، وتعيش في بيتها معززة مُكرمة، ومهمتها الأساسية تربية الأولاد، وكانت تساعد الرجل في الزراعة، وبعض الحرف اليدوية، ومن تقاليد الشركس أن العروس لا تكلف بأية خدمة لمدة طويلة، ربما بلغت بضع سنين، والشركسي لا يقبل تعدد الزوجات مطلقاً.

أما لباس الشركس فهو في مجموعه يصلح أن يكون لباساً للرجل بكل ما في الكلمة من معنى، هو أنسب الأزياء للرجل الكامل، وفي الوقت نفسه هو الزي الجميل المناسب للفارس الخيال، ولا يزال حتى اليوم هو الزي الشعبي القومي لعموم سكان القوقاز، وتُعرف الألبسة الشركسية بأسماء مثل الـ «صاكوه» وهي كلمة تركية معناها «حرملة» وهي طويلة تُغطي الفارس وكفل فرسه وعلى الفارس ألا يفارق سوطه، وأن يغطي رأسه «بالقالباق» ولا يزال مستخدماً حتى اليوم.

---

(١) راجع كتاب «تاريخ الأديكة القديم» تأليف شورا بكيمرزانو غموقة. مرجع سابق.

نظام الحكم والإدارة:

هناك عدة مصادر تحدثت عن الطبقات الاجتماعية، وقد أجمعت هذه المصادر على أن المجتمع الشركسي كان يتألف من الطبقات التالية:

١ ـ البشي: وهو الأمير الكبير أو رئيس القبيلة.

٢ ـ اللقوه لاش: وهم الأمراء أو أتباعهم.

٣ ـ الوَرْقْ: وهؤلاء هم الحكام الفعليون في الأقسام والدوائر.

٤ ـ فقول: وهم الأهالي الأحرار ومعظمهم من الفلاحين.

٥ ـ بشيتل: وهم العبيد ومعهم أيضاً الخدم[١].

أما المنازعات بين الأهالي فقد كان الورق يفصلون فيها.

أما الفصل في القضايا الهامة الكبرى فهو من اختصاص مجلس الأعيان. أو المجلس القومي الأعلى، ويتكون عادة من العلماء والورق، والأمراء، ويرأسه البشي الكبير، ومن اختصاصه إعلان الحرب بعد أخذ رأي الجماهير، مع بيان للأسباب التي دعت إليها، حتى إذا ما قبلوها، تعلن الحرب، وهكذا فالحكم الدستوري كان معمولاً به منذ قديم الزمان وحتى قبل أن يعرف العالم المجالس النيابية بآلاف السنين، والشورى كانت من تقاليدهم، وقد عززها الإسلام في حياتهم أكثر فأكثر.

وهكذا لم يعرف الشراكسة أي نوع من أنواع الحكم الاستبدادي، وحتى أن «البشي» وهو أعلى مسؤول في الجهاز الإداري الشركسي كانت سلطاته محدودة لا تتعدى قانون «الأديغة خابزة» وما عدا ذلك فإنه كان يستمد سلطته من مجلس الأمراء والأعيان وعليه أخذ موافقتهم قبل اتخاذ القرارات الهامة. بقي أن نشير أخيراً إلى أن الشراكسة لم يجاروا الأمم المتحضرة في مجال العلم والمدنية والمحصول الثقافي، وذلك لأسباب كثيرة؛ يقول المؤرخ الشركسي يوسف عزت: «إن الذي قضى على الأمة الشركسية هو السبب نفسه الذي قضى على الفينيقيين، ألا وهو قصر النظر وعدم تكوين جبهة متراصة وكذلك تنافسهم وتطاحنهم، والاختلافات بين القبائل». ويستشهد بقول الكاتبة «خيرية ملك خونج» إذ قالت:

---

(١) راجع كتاب «أساطير النارتيين». مرجع سابق ص ٥٤ وما بعدها.

«من أهم الأسباب التي لا تقع على حصر وعجلت باضمحلال الشراكسة وكثير من الأمم الأخرى، الشقاق وعدم الاتحاد، ولم يفق الشراكسة يوماً من المنازعات فيما بينهم ويتفقوا على الاتحاد والتآلف، ويكونوا كتلة واحدة قوية أمام أعدائهم ومنافسيهم، بل الأدهى والأمر من ذلك أنهم لم يفهموا أن حياة الأمة واستمرارها خير من حياة الفرد والقبيلة وبقائهما، والذي أبعد الشراكسة عن إدراك هذه الأسرار وفهم أسباب الحياة والبقاء هو ابتعادهم عن العلوم والمعارف وعدم اهتمامهم بتلك الدعائم القوية التي ترتكز عليها حياة الأمم والشعوب، فمن سوء طالعهم أنهم كانوا بعيدين عن مناهل العلم والعرفان بمسافات كبيرة، حتى كان من أمرهم ما كان». أما كبير المؤرخين الشركس «شورا بكيمرزانو غموقة» فيعلل تخلف الشركس من الناحية الثقافية قائلاً: «إن الحروب المستمرة، التي فُرضت على الشركس، ودفاعهم الدائم عن كيانهم جعل منهم أمة حربية أكثر من زراعية أو صناعية أو علمية، ولم يتقدموا في الفنون وتركوها وانكبوا بكل ما يملكون نحو ضروب الفروسية، ولا شك أن سبب تأخر الشركس في مجاراة الأمم المتحضرة في مضماري العلم، والمدنية، والعمران، هو استيلاء القوى الهمجية على بلادهم مثل الأوار، والهون، والخزر، والروس، الذين أمعنوا في تقتيل السكان وتشريدهم وتهجيرهم مما أدى إلى انحطاط شعبنا وزوال أثر المدنية التي اقتبسها من الإغريق».

الآثار القديمة في بلاد الأديغة الشركس:

تُعَدُّ بلاد القوقاز منطقة تعج بالأساطير، فالتوراة وضعت فيها الجنة، وبها استقرت سفينة نوح، فوق قمة جبل «آرارت». ويؤكد علماء الآثار[1] أن أولى الآثار البشرية التي اكتشفت في القوقاز تعود إلى «أربعين» ألف سنة قبل الميلاد. وأن أقوام العصر الحجري القديم والمتوسط والحديث، قد استوطنت في هذه المنطقة، وأثبتت الحفريات واللُقى الأثرية التي عثر عليها في موطن الأديغة أنها تعود إلى العصر الجليدي وذوبان الثلوج، ودلّت الآثار المكتشفة أن القوقازيين قد استعملوا أدوات يدوية بدائية، وأن الإنسان القوقازي القديم اهتم بالأعشاب،

(١) للمزيد من التوسع في دراسة آثار الشركس يمكن الرجوع إلى كتاب، «تاريخ الأديكة» تأليف شورا بكيمرزانو غموقة، وكتاب «دراسات أثرية تاريخية في القوقاز» «فرنسي» تأليف مورجان، و«تاريخ الأمم الشرقية» «فرنسي» تأليف ماسبيرو.

وكان له أسلوبه المتميز في الصيد. وتعد منطقة القوقاز من أقدم حواضر العالم حيث ظهرت فيها صناعة التعدين لأول مرة في تاريخ البشرية، وأكد علماء الآثار أن منطقة القوقاز هي مهد صناعة البرونز، وانتقلت منها إلى أوروبا. وقد عثر في منطقة «ميتسامور» في أرمينيا على أحواض منحوتة في الصخور. وفي مناطق أخرى من شمال القوقاز عُثر على قوالب مُعدَّة لصب الحديد والنحاس وهذا دليل أن القوقاز هو مهد صناعة الحديد أيضاً. وفي عام «٢٠٠٠ ق.م» بدأ القوقازيون يصنعون قوالب صلصالية ويصبون فيها النحاس المُذاب لصنع الأدوات الضرورية لحياتهم، وكانوا يصنعون أدواتهم أحياناً من السيراميك، ولاحظ علماء الآثار تشابهاً كبيراً بين الأدوات المعدنية المصنَّعة في القوقاز وأوروبا، واعتبروا هذا التشابه دليلاً على نوع من التواصل الحضاري بين هذه الشعوب منذ قديم الزمان، وأوضح العلماء أنه في القرن الثامن ق.م اجتاح اليونانيون بلاد القوقاز وأسسوا فيها مراكز مراقبة «Comptoirs» على البحر الأسود ومستعمرات في جهات متفرقة من شمال القوقاز، ونتيجة لهذه العلاقات بين اليونانيين والقوقازيين فقد تأثرت حضارة كل منهما بالأخرى، فكما استفاد الشركس من الحضارة اليونانية كذلك اغتنت الحضارة اليونانية من حضارة الشركس، وفي الألف الأولى قبل الميلاد شهدت منطقة القوقاز صناعة مزدهرة ألا وهي صناعة الحلي والمجوهرات، والأواني الخزفية، وكان منقوشاً عليها في الغالب رسم الصليب، ولكن الأديغة لم يرسموا هذا الرسم حُباً في الصليب، بل كانوا يصنعونه بشكل عفوي، مثله مثل باقي الأشكال الهندسية الأخرى، وكانوا يرسمون الصليب قبل ظهور المسيحية بمئات السنين، ويؤكد علماء الآثار أن الصناعة في القوقاز قد تطورت بعد مجيء «الأيرون» في القرن السابع إلى القوقاز لأنهم كانوا صنَّاعاً مهرة. وكان القوقازيون يدفنون موتاهم ومعهم جميع ممتلكاتهم الثمينة، وأموالهم، وأسلحتهم الحربية، وكانوا يزودون موتاهم بالأغذية، ويستدل من ذلك أن القوقازيين كانوا يعتقدون بفكرة خلود الروح، أما قبورهم فهي مختلفة الأشكال مربعة ومستطيلة، أما أسلحتهم فكانت تشمل «القامة والسيف والقوس، والترس، والنبال المتعددة الأشكال، وأحزمة الوسط». وكان طول النبلة يتراوح ما بين ١٨٠ سم إلى مترين، أما القوس فكانوا يصنعونه من حجر الصوان، وكانوا يستعملون ألبسة دفاعية،

مثل: الزرد، والقلنسوة المصنوعة من الحديد؛ حتى الخيول صنعوا لها «زرد» تقيها شر سلاح الأعداء. وكان القوقازيون يستعملون أقراطاً من الحديد والفضة في آذانهم وشعورهم، ويلبسون في أيديهم أساور من حديد وفضة، ويضعون خواتم في أصابعهم. ويؤكد علماء الآثار أن القوقازيين اخترعوا إبرة الخياطة من الحديد والبرونز، وبمختلف الأحجام. واخترعوا أمشاط الشعر، ورسموا صوراً للنسر والعقاب والأيل والحصان والكلب والثور والإنسان، وكان الإنسان يُمثَّل دائماً من غير رأس اعتقاداً منهم بأن دينهم يمنع ذلك. وكان القوقازيون يستعملون الأوزان في معاملاتهم، وقد اقتبسوها من الآشوريين، واستخدموا النقود التي سكها هرقل سنة ٦٢٤ م، ثم نقود بيزنطة، ثم الدراهم الكوفية التي جلبها المجاهدون العرب إلى منطقة القوقاز. وعرف القوقازيون الزراعة وتربية الحيوان، وكان الشركس يستفيدون من لحم الحيوان ولبنه كغذاء وصوفه كلباس، ودهنه كمادة مشتعلة للإضاءة. واستعملوا المحراث الحديدي بدلاً من الخشبي، وهذا ما أدى إلى تطوير وزيادة الإنتاج الزراعي. أما بالنسبة للقلاع التي اهتمت بها كل الشعوب القديمة لتأمين الحماية والدفاع عن نفسها فيقول المؤرخ «شورا بكيمرزانو غموقة»: إنه لا توجد في بلاد الشراكس قلاع ولا آثار باقية من منشآتهم، لأنهم قوم حافظوا على كيانهم ببسالتهم وشجاعتهم وبتلك القلوب الكبيرة التي كانت مؤلفة بينهم، والشركسي في ذاته ونفسه قلعة وسد منيع في وجه عدوه، فلهذا بقوا طوال هذه السنين صامدين لأعدائهم المغيرين عليهم من كل فج عميق، فكان اعتمادهم على قوتهم المعنوية، وعلى نفوسهم الحية الفتية، التي أغنتهم عن القلاع الحقيقية». ويؤكد المؤرخ الفرنسي «مورجان» صحة ما ذهب إليه «شورا بكيمرزانو غموقة» فيقول: «إن الروس لم يلاقوا صلابة ولا شدة في حروب القوقاز إلا من الشراكسة فقط، فقد ذاقوا منهم الأمرين، ولم يستولوا على بلادهم إلا بعد أن هاجروا منها، وقد كلفهم ذلك الشيء الكثير».

الفصل الثالث

لمحة عن تاريخ الشركس في القوقاز

أكد علماء الآثار أن منطقة شمال القوقاز، قد شهدت قيام حضارات مزدهرة، وبالتحديد على السواحل الشرقية للبحر الأسود، وعلى ضفاف نهر القوبان والترك، ونشأت حضارات ودول «الميئوت، السند، الزيخ» أجداد الشراكسة القدماء، ومن الآثار الشهيرة في منطقة الأديغة بقايا مدينة «بالق» التي سكنها القبرطاي، وورد ذكرها في أشعارهم ومراثيهم. وكذلك مدينة قديمة كانت تعرف باسم «برغوسانت» عند مصب نهر القوبان. وقد كانت هذه المنطقة مقدسة عند قبائل «النارت» وكانوا يسمونها «پسناج» أي العين المباركة، ومن هنا من منطقة الأديغة مرت شعوب وقبائل باحثة عن ملاذ آمن مدفوعة بجيوش الإمبراطوريات القديمة «الإغريق، والرومان، والفرس، والاسكيت، والتتار، والمغول، والهون» ونشأت علاقات حضارية مثمرة بين مملكة «البسيقورس» الإغريقية التي نشأت في القرم، ومن هنا مرت جيوش جنكيز خان وقوات تيمورلنك. ناشرة فيها الخراب والدمار، محدثة تغييرات كثيرة في مواطن الشعوب والقبائل التي كانت تعيش فيها. وقد اتفق المؤرخون على تقسيم تاريخ الأديغة إلى أربعة أدوار رئيسية[1]:

الدور الأول: دور الفتح والتضخم:

ويبدأ هذا الدور منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد كما يقول «مورجان»

---

(١) للمزيد من التوسع في تاريخ الشركس القديم يمكن مراجعة «تاريخ الأديكة القديم» فهو المرجع الأساسي الذي يعتمد عليه في تاريخ الشراكسة.

وينتهي في القرن التاسع قبل الميلاد. وفي هذا الدور أسس الحثيون أجداد الشراكسة أمبراطورية شملت جميع آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام، وقد استفاد اليونانيون من الحضارة الحثية وجعلوها أساساً لمدينتهم. ويقول «د. عمر شابوغ» مترجم كتاب «فك رموز الكتابات القديمة في القوقاز» لمؤلفه «غ. ف تورتشايفنوف» بأن للكتابة الشركسية القديمة علاقة بأشكال ورسوم الكتابة الفينيقية الأولى وأن علاقة حميمة ربطت قدماء الشراكسة منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد مع أهالي فينيقيا وخاصة «جُبيل» واستمرت هذه العلاقة فترة طويلة من الزمن[1]، ومن أشهر الشخصيات الحثية في هذا الدور الملك «مائوزير» والملك «مائوطور» والشاعر الكبير «پانشاور».

٢ ـ دور التقهقر والانحطاط:

ويبدأ من القرن التاسع قبل الميلاد لغاية القرن السابع بعد الميلاد، وقد تخللت هذه المدة حوادث وكوارث عصفت بالامبراطورية الحثية، ومن أهم هذه الحوادث هجوم الآشوريين من الجنوب والبيلاج من الغرب على الدولة الحثية، وكذلك هجوم السكيت على الحثيين وانقسام سكان الكيمرى، وهم سكان القوقاز، وتفرقهم أمام زحف السكيت الجارف، وكذلك مجيء قدماء اليونان في القرن السابع قبل الميلاد إلى سواحل البحر الأسود وداخل القوقاز وقيامهم بتأسيس ممتلكات ومراكز تجارية. وفي القرن الثاني قبل الميلاد تمكن ملوك السرمت من السيطرة على قسم من بلاد الشركس إلا أن حكمهم لم يستمر طويلاً لأن الحضارة القوقازية تفوقت على حضارة السرمت وصهرتهم في بوتقتها، وفي القرن الأول الميلادي استطاع شعب «الآلان» فرض سيطرته على شمالي القوقاز، وتمكن من إنشاء دولة اشتركت فيها معظم قبائل الشركس. وفي أوائل القرن الخامس الميلادي انتشرت المسيحية في جنوب القوقاز على نطاق ضيق، وفي بداية القرن الخامس الميلادي جاءت حملات الهون على شمالي القوقاز، وتمكن الهون بقيادة «آتيلا» (٤٣٢ ـ ٤٥٣ م) من القضاء على دولة الآلان، وأباد الهون قسماً كبيراً من القبائل

---

(١) راجع مجلة الآداب الأجنبية العدد ٩١ صيف ١٩٩٧ مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب في سوريا مقال قباردا بلقاريا والعالم العربي، إعداد نوح شورهي، ص ١٨.

القوقازية، ومن تبقى منهم أجبروهم على الالتجاء إلى الجبال العالية. وعن وحشية الهون يقول الشراكسة «بأن المكان الذي مروا به لا ينبت به شيء لمائة عام». وقد ورد ذكر «آتيلا» ملك الهون في إحدى الأغاني القديمة مع لقب «فلاكة الله» وجاء في إحدى القصائد الشركسية:

ولمـــا لـــم ينسنـــا الله شملنـــا بـــرحمتـــه
وأعـــاد إلينـــا جبـــالنـــا ووديـــاننـــا
بعـــد أن ابتعـــد ورحـــل عنـــا فـــلاكـــة الله[1]

وبعد نجاة الشركس من «فلاكة الله» خضعوا للنفوذ البيزنطي في القرن السادس الميلادي، وفي القرن السابع تشكلت دولة الخزر واتحدت في وجهها القبائل الشركسية واشتبكت معها في حروب طويلة، ويؤكد المؤرخ «شورا بكيمرزانو غموقة» إن الشراكس لم يخضعوا لدولة الخزر أبداً.

٣ ـ دور التيقظ والانتباه:

ويبدأ هذا الدور في أوائل القرن السابع الميلادي، ولغاية أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، ويبدأ هذا الدور بدخول العرب المسلمين في جنوبي القوقاز، وقيامهم بنشر الدين الإسلامي.

الفتوحات الإسلامية في القوقاز:

ترى ما هي معتقدات سكان القوقاز قبل وصول طلائع الإسلام إلى القوقاز؟ يؤكد المؤرخون: إن الأديغة الشركس كانوا كغيرهم من الشعوب القديمة يعبدون الشمس، والقمر، والهواء، والآلهة «عشترة»، وقد عثرت لجنة الآثار الروسية في سلسلة جبال القوقاز على هياكل ومعابد للمعبودة عشترة، ويقول المؤرخ «مورجان»: إن العثور على معابد عشترة في القوقاز، وهي التي كان يعبدها الحثيون، هو دليل آخر على أن الحثيين هم أجداد الشراكس. وإلى جانب عشترة يقول المؤرخ «شورا بكيمرزانو غموقة»: «إن الشراكسة عبدوا آلهة كثيرة قبل اعتناقهم المسيحية منها:

---

(١) انظر كتاب: «تاريخ الأديكة القديم»، تأليف: شورا بكيمرزانو غموقة ص ٥٣. و«تاريخ القوقاز»، تأليف: يوسف عزت، مرجع سابق.

١ ـ زَايِكُتُوَه تْحَهْ: رب الحرب.
٢ ـ لَهْ يَصْ: رب الحديد.
٣ ـ بَلَهْ وُوصْ: رب الرقص.
٤ ـ يَهْ لَهْ: رب الصواعق.
٥ ـ وه زَه: رب الجمال.

ومن عادات الشركس القديمة التي لم يقلعوا عنها إلا مؤخراً إكرام أرواح الموتى، لأنهم كانوا يعتقدون بخلود الروح وأبديتها!

وكانوا يعبدون الأشجار، وإذا صادفهم نقص في الرزق، أو الثمار هرعوا إلى الأشجار وتضرعوا إليها، فإذا لم تستجب لدعائهم هددوها بالقطع والقلع، وإذا لم تستجب للتهديد والوعيد قطعوها فعلاً واختاروا شجرة غيرها ليعبدوها».

وفي عهد جوستنيان أشهر أباطرة الدولة البيزنطية (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) انتشرت المسيحية في بلاد الشركس، وجاء الرهبان «شوجن» وأقاموا بعض الكنائس في مناطق مختلفة من جبال القوقاز، وقد انتشرت المسيحية بسرعة في القوقاز. وتوجد حتى اليوم آثار قديمة من العهد المسيحي مثل أطلال الكنائس والأديرة، وبقايا الصلبان المصنوعة من الحجر والحديد، إلا أن المؤرخين وفي مقدمتهم «مورجان» يرى، ويؤيده في ذلك «شوبان»، أن الشراكسة لم يعتنقوا النصرانية بحذافيرها، بل أخذوا منها ما يناسب أمزجتهم، وتركوا منها ما لم يوافقهم ولا يتماشى مع أخلاقهم وعاداتهم، وكانوا يميلون دائماً إلى معتقداتهم الوثنية القديمة رغم اعتناقهم المسيحية، وظلوا متمسكين ببعض المظاهر العالقة في أذهانهم من زمن الجاهلية الأولى، وكانوا يقدمون الضحايا لأرواح الموتى ويطعمون الطعام حباً لهم، وظلوا على تقديسهم للإله الوثني «لَهْ يَصْ» رب الحديد، وهكذا ظلت عقائد الشركس مضطربة، وغير مستقرة، وخليطاً من الوثنية والمسيحية حتى جاء الإسلام ونسخ كل هذه الاضطرابات، وبدأ نوره ضعيفاً حتى قوي وظهر وشعَّ على آفاق القوقاز، فدخل الشركس في دين الله أفواجاً وعن قناعة، وتحمسوا للإسلام تحمساً شديداً!

أما الديانة اليهودية فقد انتشرت في بلاد القوقاز قبل الميلاد، وينحدر يهود القوقاز من أصول آرية وتركمانية، وبحكم الطبيعة القوقازية أصبحوا جبليين، ويرتدون الزي الشركسي المعروف «جركسكا» وكانت لغتهم القومية خليطاً من

العبرانية والإيرانية ويسمون أنفسهم «داغ جوغورْت»، أي اليهود الجبليين، وقد تمكن اليهود من إدخال مجموعة من الخزر في اليهودية الأمر الذي ساعدهم على التسلط على الامبراطورية الخزرية، التي كانت تضم شعوباً طورانية كثيرة، وكان معظم قواد ورؤساء الدولة الخزرية من اليهود، وقد كاد اليهود الخزر ينجحون في تهديد روسيا كما سنرى في الصفحات القادمة.

الفتوحات الإسلامية في القوقاز:

يتفق معظم المؤرخين أن أول اختراق إسلامي لمنطقة القوقاز كان عام ٦٣٩ م لكن انتشار الإسلام كان بطيئاً لعدة أسباب أهمها:

١ ـ طبيعة القوقاز الجبلية: لم تكن من التضاريس المألوفة للعرب الذين اتقنوا القتال في السهول والصحارى المنبسطة.

٢ ـ نشوب صراع مرير في تلك المنطقة بين عدة ديانات ومذاهب، مثل المسيحية، واليهودية، والزرادشتية، والمانوية الفارسية.

٣ ـ وجود دولة الخزر الخاضعة لمشيئة اليهود، الذين قاوموا الفتوحات الإسلامية مقاومة عنيفة في أذربيجان وداغستان.

٤ ـ دعم الامبراطورية البيزنطية للكرج في جورجيا والأرمن في أرمينيا للوقوف في وجه المد الإسلامي.

وقد انتشر الإسلام في القوقاز على ثلاث مراحل:

١ ـ الفتوحات الإسلامية:

أدرك العرب أهمية إخضاع القوقاز لنفوذهم، ولذلك لم تنقطع محاولاتهم لاختراقه، وكان أول اختراق عربي لمنطقة القوقاز عام ٦٣٩ م في منطقة أذربيجان، ثم استطاعوا بسط نفوذهم على ممر «دربند» أو «باب الأبواب» كما يسميه العرب عام «٦٤٣ م»، واستولوا على أذربيجان وأرمينية وجورجيا وسمحوا لحكام هذه المناطق بالاحتفاظ بديانتهم المسيحية. ويقول «آرثر كوستلر»[1] إن المسلمين حاولوا التوغل في جبال القوقاز لكنهم اضطروا للتراجع. وفي الفترة الممتدة بين

---

(١) راجع كوستلر في كتابه: «القبيلة الثالثة عشرة»، ترجمة أحمد نجيب، منشورات الهيئة المصرية العامة عام ١٩٩١.

(٦٤٣ ـ ٦٥٢ م) عاد العرب من جديد ليخترقوا ممر «دربند»[1] ونجحوا في التوغل في بلاد الخزر، وحاولوا الاستيلاء على «بلادنجار» أكبر مدن الخزر حتى يقيموا لهم موقعاً على الجانب الأوروبي من القوقاز لتتخذ منه قواتهم قاعدة لزحف جديد، لكنهم لم يفلحوا في ذلك رغم تكرار محاولاتهم. ودارت آخر معركة بين العرب والخزر سنة «٦٥٢ م» استخدم فيها الطرفان «المرجام»، وهي آلة لإطلاق الحجارة، والمنجنيق لرمي القذائف، وقد استشهد في هذه المعركة أربعة آلاف مسلم من بينهم قائدهم الشهيد «عبد الرحمن بن ربيعة». ويورد «كوستلر» أن العرب لم يقوموا طيلة السنوات الثلاثين أو الأربعين التالية بأية محاولة لشن غارات على معاقل الخزر وانشغلوا بشن هجماتهم الرئيسة نحو بيزنطة، وفي مرات عديدة في الأعوام: ٦٦٩ م ٦٧٣ م ـ ٦٧٨ م ـ ٧١٨ م حاصروا القسطنطينية براً وبحراً، واستطاعوا أن يلتفوا حول العاصمة عبر جبال القوقاز وحول البحر الأسود. وكان من المحتمل أن يتقرر مصير الدولة البيزنطية، ومن المؤكد أن الصراع العربي الخزري على القوقاز قد بلغ ذروته بين الفترة (٧٣٠ م ـ ٧٤٥ م). وفي مرحلة من مراحل تلك الحروب التي استمرت خمسة عشر عاماً اجتاح الخزر جورجيا وأرمينيا وهزموا العرب في معركة «إرديبل» في أواخر سنة «٧٣٠ م» وتقدموا حتى وصلوا الموصل وديار بكر، لكن هذا الهجوم الخزري أخفق في التقدم نحو دمشق، عاصمة الخلافة، ورد الخزر على أعقابهم بعد هزيمة نكراء. وفي العام التالي نجح القائد العربي المظفر **مسلمة بن عبد الملك** الذي سبق له أن قاد حصار القسطنطينية في انتزاع «بلادنجار» من الخزر وواصل تقدمه حتى «سمندار»، وهي من المدن الكبيرة في الشمال. وفي عهد مروان بن محمد الأموي (٧٣٤ م ـ ٧٤٣ م) تمكن العرب من هزيمة الخزر نهائياً في أذربيجان والأجزاء الجنوبية الشرقية من داغستان، ورغم أن القائد مسلمة بن عبد الملك تمكن من فتح معظم الأجزاء الباقية من الداغستان في الأعوام ٧٣٤ م ـ ٧٤٣ م وخضع له حكام تلك المناطق من سكانها الوطنيين، إلا أنه كان خضوعاً إسمياً إذ عندما ضعف الحكم الإسلامي ارتد هؤلاء الحكام إلى دياناتهم السابقة، أما بلاد جورجيا، والأرمن، والمناطق

---

(١) راجع كتاب : «التاريخ السياسي للدولة العربية»، تأليف: د. عبد المنعم ماجد، منشورات الجامعة العربية بيروت ص ٢٤٨.

الجنوبية من القوقاز، فقد استمر الحكم الإسلامي فيها لمدة طويلة، لكن في نهاية العصر العباسي، بدأت عناصر الحكم الإسلامي تضعف في منطقة القوقاز الجنوبي والأجزاء الشرقية الساحلية من داغستان، وانقسمت تلك البلاد إلى عدة دويلات محلية، مما سهل على السلاجقة في آسيا الصغرى احتلال هذه المناطق، بعد أن نجحوا في احتلال إيران وخوارزم ومعظم آسيا الوسطى، ونظراً لكون السلاجقة من المسلمين فقد انتعش الإسلام مرة أخرى في تلك المناطق، وامتد إلى جبال داغستان ووسطها وشمالها. أما الأجزاء المتاخمة لبلاد الداغستان، وهي الشيشان، والأنغوش فبقيت وثنية بالنسبة للشيشان، ومسيحية للأنغوش، وأهم ما يميز هذه المرحلة هو أن التعايش بين الأديان كان طبيعياً في مختلف مناطق القوقاز، ولم تشهد المنطقة نشوب أي نزاع عسكري بسبب التعصب الديني.

٢ ـ دور المغول والتتار في انتشار الإسلام في القوقاز:

لقد أدى ظهور المغول والتتار على مسرح الأحداث في البلاد العربية والإسلامية، وقيامهم بتدمير بغداد ومدن بلاد الشام، إلى إضعاف الإسلام في مناطق القوقاز، وارتداد كثير من شعوب القوقاز إلى الدين المسيحي، وذلك لأن الموجات الأولى من المغول كانوا إما أتباع مذهب الروحية أو مسيحيين، أو بوذيين، وجميعهم كانوا معادين للإسلام، ولكن التحول الكبير لصالح الإسلام بدأ عندما تولى «بركة خان» ابن جوجي ابن أخي جنكيز خان حكم القبيلة الذهبية[1] وذلك سنة ١٢٥٦ م، وكان بركة خان قد دخل في الإسلام منذ طفولته، واستمر حكم بركة خان إلى سنة ١٢٧٦ م، وتحول في أثنائها معظم أفراد القبيلة الذهبية إلى الإسلام. وامتد سلطان القبيلة الذهبية من تركستان حتى روسيا وسيبيريا، وحكموا موسكو نفسها، ولم يكن ينصب أمير موسكو إلا بعد موافقتهم، وقد أقاموا مدينة «قازان» الشهيرة شمالي نهر «الفولغا» لتكون عاصمتهم، وهكذا اعتنق المغول الإسلام وتحمسوا له، وحكموا باسمه أمداً طويلاً، وبلغ من سطوة المغول أن «بارسلوف» دوق روسيا الأعظم، اضطر أن يقسم يمين الولاء للأمير «باطو» هو وسائر الأمراء الروس وأن يعلنوا خضوعهم لسلطته. وحتى سيبيريا التي دخلها

---

(١) القبيلة الذهبية جاءت من اللفظة التركية «أوردو» Ordu، ومعناها المخيم، أما وصفها بالذهبية فيرجع إلى الخيمة ذات القبة التي كانت موشاة بالذهب.

الإسلام ظلت بلاداً إسلامية خالصة حتى القرن السابع عشر للميلاد، الحادي عشر للهجرة، ولم تسقط في يد الروس إلا بعد حرب ضروس دامت ٥٦ سنة، أما العصر الذهبي للإسلام في منطقة القوقاز[١] من حيث ثبات العقيدة ورسوخها بين سكان شمال القوقاز فقد كان في عهد «تيمورلنك» (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥ م)، الذي احتل أذربيجان والداغستان، وأصبح الإسلام راسخاً فيهما ما بين أعوام ١٣٨٥ ـ ١٣٩٥ م، واهتم تيمورلنك شخصياً بالقضاء على كل ما هو غير مسلم في أذربيجان وداغستان، وأصبح الإسلام هو الدين الوحيد لسكان وسط الداغستان، وهم شعب «اللاك»، الذين أصبحوا بدورهم حماة الإسلام في الداغستان ضد المسيحيين والوثنيين هناك، واتخذ «اللاك» مدينة «غازي ـ قمق» عاصمة لهم ومركزاً إسلامياً رئيسياً في داغستان، ومن هذا المركز انطلق الدعاة الأوائل لنشر الإسلام ووصلوا إلى الشيشان، وقبائل «القمق» التركية في داغستان، والتي كانت مثل الشيشان لا تزال وثنية، ويُذكر لتيمورلنك أنه وجه ضربة عنيفة لأكبر قوة مسيحية في وسط وشمال القوقاز، وهي مملكة شعب «الآلان» وهم أجداد شعب الأوستين الذين يعيشون اليوم في أوسيتيا الشمالية والجنوبية. وفي عهد تيمورلنك دخلت معظم شعوب داغستان في الإسلام، وفي نهاية القرن الخامس عشر ظهرت قوتان إسلاميتان في القوقاز الشمالي وهما تركيا وخانية القرم. وكان لهاتين القوتين الفضل في تحول الأبخاز من المسيحية للإسلام وكذلك شراكسة الغرب «الأوديغيون» وشراكسة الشرق «القبارطيون» والأباظة، أما في القوقاز الجنوبي الشرقي فإن الدولة الصفوية في إيران قامت بغزو «دربند» وخانية «شيرون» عام ١٥٣٨ م، وبالتالي فإن الإسلام الشيعي أصبح هو الطابع الإسلامي لما يسمى بأذربيجان. وفي منتصف القرن السادس عشر انتشر المذهب الشافعي في الداغستان، بينما انتشر المذهب الحنفي في شمال غرب القوقاز، ولغاية ذلك الوقت وباستثناء مجموعة قليلة من الزعماء والنبلاء فإن معظم الشيشان والشراكسة في القبارطاي، وكذلك قبائل القرشاي والبلقار، والأنغوش والأوستيين، ظلوا إما وثنيين أو مسيحيين.

---

(١) انظر دراسة الدكتور موسى عادل الشيشاني، أستاذ في جامعة الملك سعود بالرياض كلية التربية، في جريدة الشرق الأوسط عدد ٢٥/ ١/ ١٩٩٥ حول انتشار الإسلام في القوقاز.

٣ ـ دور العثمانيين:

بدأ الاحتكاك الروسي بمنطقة القوقاز عام ١٥٥٦ م وكان هذا التحرك بداية حرب بين الإسلام والمسيحية، وبدأ التحرك الروسي المنظم ببناء مستعمرات وقلاع حصينة على امتداد نهر «الترك»، وكلفوا شعوب القوزاق المسيحية بحماية هذه المستعمرات والقلاع، وبعد ذلك قام الروس بإغراء أحد أمراء القبارطاي المسلمين وهو الأمير «تيمروك» بالتحول إلى المسيحية مقابل مساعدة روسيا القيصرية له ضد خانات القرم والأتراك، وبالفعل تحول «تيمروك» إلى المسيحية وزوَّج إحدى بناته للقيصر الروسي «إيفان الرهيب»، وبادرت روسيا بإرسال المنصِّرين إلى شمالي القوقاز، وظهرت أولى الكنائس في مقاطعة «بيسيلني» بقبارطاي، وفي أوسيتيا المجاورة فاضطر العثمانيون وخانات شبه جزيرة القرم للتصدي لهذا التوسع الروسي في شمال القوقاز، وقام خان القرم بحملة عسكرية على قبارطاي عام ١٥٥٨ م وأحرقها عقاباً لها على تحولها إلى المسيحية وتحالفها مع الروس أعداء المسلمين، وفي عام ١٥٩٤ م أرسل الروس حملة عسكرية إلى شمالي داغستان، فتصدت لها قوة مشتركة من الأتراك والتتار والداغستانيين. وهُزم الروس بعد معركة شرسة، لكنهم عادوا مرة ثانية عام ١٦٠٤ م بقوة عسكرية أخرى وهزموا خان القرم، وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كثف خانات القرم، والعثمانيون، جهودهم لنشر الدين الإسلامي في الأجزاء الشمالية الغربية والوسطى في شمال القوقاز. وفي عام ١٧١٧ م أصيبت المسيحية بمحنة كبيرة، عندما أمر سلطان الأتراك وخان القرم «دولت كراي» ومن بعده خاز كراي، بنشر الديانة الإسلامية بين الشراكسة بقوة، وقد ساهم «علي فرح باشا» الوالي العثماني مساهمة كبيرة في نشر الإسلام حيث جلب العلماء من الآستانة وبنى المساجد وجعل من «أنابا» عاصمة لولايته على ثغر البحر الأسود، ومركزاً رئيسياً للدين الحنيف ومن «أنابا» انتشر الإسلام في عموم شمالي القوقاز، بما في ذلك الشيشان. وهكذا أصبح الشراكسة عموماً مسلمين ومتعصبين لدينهم متمسكين به أشد التمسك، ويتضح ذلك التمسك في كل مناحي الحياة في المجتمع الشركسي، وسأضرب مثالاً واحداً على التزام الشركس بالأحكام الشرعية، يروى عن الأمير العادل «عادل كراي» أنه دخل ذات مرة إلى محكمة كانت في حالة انعقاد برئاسة القاضي الجريء «أبوق حاجي

إسحاق»، وبعد استماعه إلى المناقشات والمرافعات، التفت إلى القاضي قائلاً:

«إذا لم تحافظ على الحقوق العامة في دائرة العدل التامة فلأقيمن العدل بهذا مشيراً إلى سيفه!

فأجابه القاضي: «وإذا رأيت فيك إهمالاً أو تقصيراً في تنفيذ أحكامي التي أستمدها من الشريعة الإسلامية الغراء، أنفذ فيك أمر ربي، وأخرج من تحت الوسادة الجالس عليها غدارة وصوَّبها نحوه».

٤ ـ دور الانقراض والزوال:

وهو يمتد من أوائل القرن الثامن عشر الميلادي وحتى اليوم، ومن الجدير ذكره أن هذه التسمية غير دقيقة رغم أن الشراكس تعرضوا في هذه الفترة لحرب إبادة، شنها قياصرة الروس، وكذلك في العهد الشيوعي وفي عهد يلتسين، ولكنهم بعون الله لم ينقرضوا بل انتصروا؛ حتى أن الشعب الشيشاني، وهو أصغر الشعوب الشركسية، ألحق بالجيش الروسي هزيمة نكراء، وحصل على استقلاله بعد حرب ضارية استمرت «٢١» شهراً، وكذلك فإن شعوب القوقاز الشركسية الأخرى تتحفز للنضال من أجل الخلاص من السيطرة الروسية، ومن هنا فإن تسمية هذا الدور الرابع من أدوار التاريخ الشركسي غير دقيقة، وغير صحيحة، رغم المحن والمآسي التي تعرض لها هذا الشعب الشجاع.

الفصل الرابع

قيام الامبراطورية الروسية

أصل الروس:

ذكرت في الفصل الثاني أن سكان القوقاز «الشركس» ينحدرون من السلالة الآرية، ويشكلون أمة متميزة لها حضارتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها الخاصة، وتدعى أمة «الآنت»، وقد شرحت بعض خصائصها وعاداتها. أما الروس فهم أمة أخرى مختلفة تمام الاختلاف عن الشركس، وينتمون إلى[1] الاسكندنافيين وينحدرون من السلالة «الصقلبية»، وكانوا في البداية يقطنون شرقي السويد، ثم اتخذوا طريقهم إلى بحيرة «إيلمن» «ilmen»، بعد أن اجتازوا البحر البلطي وأنشأوا مدينة «نفجورود»، عند الموضع الذي خرج منه نهر «**فولخوف**» من بحيرة «إيلمن». اشتهر الروس بنشاطهم التجاري فاحتكروا ما يجري من التجارة بين شمال شرقي أوروبا، وبين العواصم الكبيرة في الجنوب أمثال القسطنطينية وبغداد وإيتل. ولم يمارس الروس الفلاحة، بل كانوا مجتمعاً من تجار مقاتلين، وكان يبلغ عددهم عند وصولهم إلى قرب بحيرة «إيلمن» ما يقارب «١٠٠» ألف، وعاشوا على النهب والتجارة، وكانت تجارتهم مع اليونانيين، ومع التجار اليهود من الخزر، ثم وسعوا نطاق تجارتهم إلى نهر الفولجا، واجتازوا بحر قزوين، ومارسوا تجارتهم مع المسلمين. وكان لتجارة الروس أهمية بالغة عند كل من الأمبراطور البيزنطي وخاقان الخزر، إذ كان يتقاضى كل منهما العشر على جميع ما

---

(١) راجع «الدولة البيزنطية» تأليف الدكتور السيد الباز العريني، الناشر: دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٥، ص ٢٩٠.

يجتاز بلاده من متاجرهم. وفي تلك المرحلة التي كان الروس يمارسون التجارة فقط كانوا وثنيين، وقد تطلعت ثلاث قوى تمثل الديانات السماوية الثلاث لكسب الروس. فمن جهة كانت الدولة البيزنطية تبذل جهودها لنشر المسيحية بين الروس على المذهب الأرثوذكسي، ومن جهة ثانية كانت دولة الخزر اليهودية تحاول نشر اليهودية بين الروس، ومن جهة ثالثة كان المسلمون يحاولون نشر الدين الحنيف في تلك الربوع النائية؛ ومن هذه المحاولات نذكر أن أحد الملوك الصقالبة التي كانت عاصمته على مقربة من «قازان»، وهو «ألمش بن يلطوار» طلب إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله (٩٠٨ ـ ٩٣٢ م) أن يرسل إليه بعثة من قبله تفقهه في الدين، وتعرفه شرائع الإسلام، وتبني له مسجداً وتنصب له منبراً يقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته، وسأله كذلك أن يبني له حصناً يتحصن فيه من ملوك الخزر، وهم من اليهود الذين كانوا يعتدون على قومه، ويفرضون عليهم الضرائب يؤدونها عن كل بيت في المملكة جلد سمور، وابن ملك الخزر يخطب من يريد من بنات ملك الصقالبة[1] ويتزوجها غصباً. وقد استجاب المقتدر لطلب «ألمش بن يلطوار» وأرسل له «ابن فضلان» الذي رحل من بغداد يوم الخميس ١١ صفر ٣٠٩ هـ الموافق ٢١ حزيران/يونيو ٩٢١ م، وقد نجح في مهمته، إلا أن المسلمين لم يأخذوا القضية على محمل الجد، ولم يرسلوا الدعاة، ولا الجيوش، لفتح تلك المناطق. وهكذا انسحب المسلمون وتوقفت محاولاتهم لنشر الإسلام بين الروس. أما يهود الخزر الذين تصدوا للفتح الإسلامي وحاربوا المسلمين أكثر من مائة عام في منطقة القوقاز، وشكلوا تهديداً خطيراً للروس وكادوا يكتسحون أوروبا بكاملها وينجحوا في تهويد الروس، وفعلاً أصبحت روسيا كلها مهددة من خطر التهويد لأن أمير الروس في تلك الأزمنة كان يفاوض الخزر في هذا الشأن، إلا أن الوقت لم يتسع لهذا الأمر إذ جاء المسلمون وفتحوا مناطق واسعة في القوقاز الجنوبي وحاربوا الخزر حرباً طويلة كما ذكرنا، كما أن جيوش المغول قامت بهجمات عنيفة ضد الخزر. وكذلك ساهم الشركس في حرب الخزر على يد

---

(١) راجع رسالة ابن فضلان في وصف رحلته إلى بلاد الترك والخزر والروس سنة ٣٠٩ هـ ٩٢١ م، حققها وعلق عليها وقدم لها «الدكتور سامي الدهان» الطبعة الثانية أعدتها مديرية إحياء التراث العربي بوزارة الثقافة السورية دمشق ١٩٧٧، ص ٣١ وما بعدها.

الأميرين «آلجوقه وبزرقوه»، وقد دب الوهن في دولة الخزر بعد أن أنهكتهم الحروب وصرفوا النظر عن تهويد روسيا، ثم جاءت الضربة القاضية التي زعزعت كيان دولة الخزر على يد الأمير الروسي «سويا توسلاف» عام ٩٦٨ م مما أدى إلى انحلال أمبراطوريتهم وزال خطر التهويد عن روسيا وأوروبا والقوقاز والعالم، فاضطر اليهود للهجرة إلى أوروبا. ولا بد من التنويه بأن اليهود الذين سيطروا على مملكة الخزر في منطقة القوقاز وجنوب روسيا لم يكونوا من قبائل إسرائيل الاثني عشر كما تزعم إسرائيل والصهيونية وإنما هم من أصول آرية تركمانية، اعتنقوا اليهودية ولما أبيدت دولتهم فروا من الاضطهاد الروسي إلى دول شرق أوروبا ليشكلوا غالبية المعتنقين للديانة اليهودية في العالم اليوم والذين يقدرهم الخبراء بـ ٩٢٪ وبذلك فإن أسطورة النقاء الجنسي اليهودي، أو إسرائيل الحالية هي امتداد لإسرائيل التوراتية وامتداد للأصل السامي هي خرافة كبيرة تعشش فقط في أذهان الصهاينة[١].

انتشار المسيحية في روسيا:

على الرغم من أن العلاقات الروسية البيزنطية كانت غير ودية، ورغم أن الروس هاجموا عاصمة البيزنطيين غير مرة، وضربوا أرباضها، وفرضوا عليهم الكثير من الضرائب، وانتزعوا منهم العديد من المكاسب والامتيازات والحقوق التجارية، إلا أن البيزنطيين تمكنوا في النهاية من تنصير الروس. وكانت أهم حلقة في العلاقات بين الروس والبيزنطيين زمن الأمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٤ ـ ٩٥٩ م) إنما تتمثل في رحلة الأميرة «أولجا» إلى القسطنطينية، حوالي سنة ٩٥٦ م أو سنة ٩٥٧ م[٢]. وقد كان الغرض من الرحلة كما تتفق معظم المراجع والمصادر هو تلقي التنصير في القسطنطينية، إلا أن بعض المراجع ذكرت أن الأميرة «أولجا» اعتنقت المسيحية سنة ٩٥٤ م، أي قبل قدومها إلى القسطنطينية بثلاث سنوات،

---

(١) راجع كتاب «امبراطورية الخزر وميراثها» للمفكر الصهيوني «كوستلر» الذي ولد في هنغاريا عام ١٩٠٥ وانتقل إلى بريطانيا منذ عام ١٩٤٦، وقد أكد فيه بالوقائع التاريخية أن معظم اليهود لا ينتمون للعرق السامي، من دون أن يعني ذلك تبدلاً في موقفه المؤيد لإسرائيل، وقد أثار كتابه ضجة كبرى وأسخط الصهاينة، وجمعوا ما تيسر لهم من نسخ الكتاب وأحرقوها.

(٢) راجع: تاريخ الدولة البيزنطية، تأليف د. السيد الباز العريني، مرجع سابق، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ وما بعدهما.

ومهما يكن من أمر فقد استُقبلت الأميرة استقبالاً عظيماً، وتعدُّ هذه الزيارة بحق بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات الروسية البيزنطية، واستغلتها بيزنطة لتوسيع نشاطاتها التنصيرية في روسيا. وبعد تولي «سفيا توسلاف» أمر الروس وكان قد حظي في صغره برعاية أمه، وهي الامبراطورة «أولجا» التي زارت القسطنطينية سنة ٩٥٧ م وتنصرت واتخذت اسم «هيلين» إلا أن «سفيا توسلاف» هاجم القسطنطينية ولكنه لم يفلح في احتلالها ورد البيزنطيون على هجومه بهجوم واسع انتصروا فيه على الأمير «سفيا توسلاف» وألحقوا بجيشه هزيمة ساحقة. وفي سنة ٩٧٣ م لقي «سفيا توسلاف» أمير الروس مصرعه على يد «البجناك» فخلفه على الحكم أبناؤه الثلاثة «ياربولك ـ أوليج ـ فلاديمير». ولم يلبث الشجار أن دب بين الأخوة الثلاثة، وانتهى بتغلب فلاديمير على أخويه، فاستقر له الحكم سنة «٩٨٠ م»، وعلى الرغم من أن «فلاديمير» سيطرت عليه الرغبة في الانتقام من البيزنطيين الذين هزموا والده، إلا أن العلاقات لم تتوقف بين الروس وبيزنطة إذ أن «الورنك»، وهم بعض عناصر الجيش الروسي[1]، أخذوا يهرعون إلى بيزنطة التماساً للرزق بما يؤدونه من خدمة للامبراطورية البيزنطية، وقد مهد هؤلاء المرتزقة السبيل لتغلغل النفوذ البيزنطي عند الروس، وحدث في سنة ٩٨٨ م أن قدمت إلى بيزنطة أول فرقة كبيرة من «الورنك» الروس، وقد بلغ عدد أفرادها ستة آلاف مقاتل فأصبح «الورنك» يؤلفون جانباً من الجيش البيزنطي، وفي سنة ٩٨٨ م دارت مفاوضات بين فلاديمير والامبراطورية البيزنطية أسفرت عن توجيه سفارة من قبل فلاديمير إلى البلاط البيزنطي من أجل زواج فلاديمير من «آن»، أخت الأمبراطور البيزنطي، الأمر الذي أدى إلى قيام تحالف بين الروس والبيزنطيين وتحول الروس إلى المسيحية، وعندها أرسل الأمبراطور «باسيل» أمبراطور بيزنطة أخته إلى كييف في حاشية من القسس وكبار رجال الدولة كيما يحوِّلوا الروس الوثنيين إلى المسيحية؛ وهكذا تم تنصير الروس بعد أن تنصر أميرهم فلاديمير في أوائل خريف سنة ٩٨٩ م، وتحول الروس جميعاً إلى المسيحية الأرثوذكسية ويعد هذا الحدث بداية مرحلة جديدة في نمو روسيا وتطورها، ويعتبر انتصاراً باهراً لبيزنطة، إذ أن دائرة النفوذ البيزنطي بلغت من الاتساع درجة لم تحلم بها، وأضحت الكنيسة الروسية

(١) راجع: «تاريخ الدولة البيزنطية»، تأليف د. السيد الباز العريني، ص ص ٦٢١ـ ٦٢٤ مرجع سابق.

خاضعة لبطريركية القسطنطينية، وصارت إدارتها، منذ بداية عهدها، في أيدي مطارنة يونانيين تبعث بهم بيزنطة. يضاف إلى ذلك أن حضارة روسيا خضعت فترة من الزمن لتأثير بيزنطة واقتبس الروس الكثير من حضارة البيزنطيين وأخذوا يقلدونهم في كل شيء.

توحيد روسيا وقيام الأمبراطورية الروسية:

روسيا والمغول: في القرن الحادي عشر الميلادي، كانت روسيا الجنوبية خاضعة لقبائل: «القومان والبلغار والخزر والبلوڤتسي والبتزيناك» أما باقي روسيا الأوروبية فكان مقسماً إلى أربع وستين إمارة ـ أهمها «كييف، ونڤجورود، وريازان، وبرياسلافل». وكانت هذه الإمارات تعترف بسيادة «كييف» عليها بشكل أو بآخر، وقبل أن يموت «بارسلاف» أمير كييف سنة ١٠٥٤ م وزع هذه الإمارات على أولاده، ولكن سرعان ما نشبت الخلافات بين أبناء «بارسلاف»، مما أدى إلى انقسام هذه الإمارات إلى عدد من الإقطاعيات، وهكذا نشأ النظام الإقطاعي في روسيا. ونتيجة للفوضى التي واكبت النظام الإقطاعي، فقد اضمحلت مملكة كييف وسقطت. ونشبت بين عامي ١٠٥٤ م و ١٢٢٤ م ثلاث وثمانون حرباً أهلية في روسيا وأُغير عليها ستة وأربعون مرة. وشنت دول روسية ستة عشر حرباً على شعوب غير روسية، وتنازع «٢٩٣» أميراً عرش أربع وستين إمارة، ونتيجة لهذه الفوضى وإهمال الشعب الروسي الذي عضه الفقر بنابه فقد قامت اضطرابات وثورات في كييف وغيرها ضد الاستغلال والبطالة وهاجمت الجماهير الروسية بيوت المرابين ونهبتها واستنجد الروس بـ «مونوماخ» أمير «بريا سلافل» واستدعوه إلى كييف ليكون أميراً عليها، وقد حاول إصلاح أمور الناس الفقراء وذلك بتخفيض سعر الفائدة على القروض وقيَّد سلطة أرباب العمل، ولكن إصلاحاته لم ترض الأغنياء واعتبروها بمثابة مصادرة لأموالهم، ونقم عليها الفقراء لأنها لم تحدث تبديلاً جوهرياً في مستوى معيشتهم، وهكذا فشل «مونوماخ» في إصلاحاته وعاد النزاع بين الأمراء، واحتدم الصراع بين الشعب والأمراء الروس وعمَّت الفوضى في الإمارات الروسية، وقد استغلت بعض القوى الخارجية هذه الفوضى وكان في مقدمة هذه القوى البابا «جريجوري التاسع» الذي أراد أن يخرج روسيا من المذهب الأرثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكي، ودعا إلى حرب صليبية على

«نفجورود» وظهر جيش سويدي على نهر «النيفا» ولكن الأمير الروسي ألكسندر نفسكي أمير «نفجورود» هزمه قرب لينينغراد الحالية سنة «١٢٤٠ م». وحاول الألمان بدورهم نشر المذهب الكاثوليكي ولكن الروس أفشلوا محاولتهم، في هذا الوقت بالذات دخلت قوات المغول إلى روسيا واجتازت جبال القوقاز فاستنجد «القومان» بالروس رغم العداوة القائمة بينهما وقالوا لهم «لقد امتلكوا اليوم ديارنا، وسيملكون دياركم غداً». وقام تحالف بين الروس والقومان ضد المغول، لكن المغول هزموا هذا التحالف بسهولة، ثم ارتد المغول إلى منغوليا وحاولوا فتح الصين، وعاد الأمراء الروس إلى الحرب فيما بينهم، ولكن المغول عادوا في عام ١٢٥٦ م، وكانت عدتهم نصف مليون من الفرسان الأشداء، وتمكنوا من احتلال معظم الإمارات الروسية، وقاموا بتأسيس عدة مدن مثل «سراي»، واتخذوها عاصمة لعشائر مستقلة تعرف باسم «**الحشد الذهبي**». وظلَّ «باتو» وخلفاؤه يسيطرون على الجزء الأكبر من روسيا مدة «٢٤٠» عاماً وسمحوا للأمراء الروس بأن يحتفظوا بأرضهم شريطة دفع جزية سنوية لخان المغول، وأن يقوموا بين الحين والآخر بتأدية فروض الولاء والطاعة لخانات المغول، وبعد فترة من الزمن شعر الأمراء الروس بأن المغول قد حموهم من الثورات الشعبية فانضموا إلى المغول في هجومهم على الشعوب الأخرى. ورغم ذلك أدرك المغول أنهم لا يستطيعون إخضاع روسيا بالقوة وحدها، فاصطلحوا مع الكنيسة الروسية وحموا لها ممتلكاتها، وأعفوها من الضرائب وجعلوا الإعدام عقاباً لمن ينتهك حرماتها، وبدورها قامت الكنيسة برد الجميل للمغول ودعت الله جهرة[1] أن يهبهم السلامة». ومن الناحية الاجتماعية حصل اختلاط بين المغول والروس، وتزوج كثير من الروس مغوليات، ودخلت بعض السمات والأخلاق المغولية في السلالات الروسية، وأخذ بعض الروس بتقليد أساليب المغول في التحدث والملبس وغير ذلك.

توحيد روسيا «١٣٠٠ ـ ١٥٨٤»: ظلَّت موسكو قرية مغمورة حتى أواخر القرن الثالث عشر، وفي ذلك الوقت جاء «دانيال اسكندروفتش»، وعمل على توسيع موسكو حتى جعل منها إمارة صغيرة، ثم تنافس ابنه «يوري» مع أمير «تفر»

---

(١) انظر «قصة الحضارة»، تأليف: ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء ١٥، ص ١٥٣، وما بعدها.

للاستيلاء على إمارة «سوزدال» المجاورة لموسكو، ونجح يوري في ضم «سوزدال» إلى موسكو. وهكذا نمت موسكو. واتخذ إيفان الأول أخو «يوري» لقبي أمير موسكو العظيم ودوق فلاديمير العظيم، في ذلك الوقت وبعد فترة طويلة من الاختلاط والحياة المشتركة بين المغول والروس، استطاع الروس أن يكتشفوا نقاط ضعف المغول في مجال تنظيم إدارات الدولة، وبشكل خاص الجوانب المالية منها، لذا فقد اعتمد المغول على بعض الأمراء الروس وأعطوهم بعض الامتيازات مثل جمع الجزية، وكان أول أمير روسي يحصل على هذا الامتياز هو الأمير الروسي «إيفان الأول» وكان يتقاضى أكثر مما يرسله أو يحوله إلى المغول، وأثرى بهذه الطريقة، وبعده جاء حفيده الأول «ديمتري» وهو يحمل كل الصفات التي تتطلبها الحرب وتحدى خان التتار، ولكن «ماماي خان» خان المغول تقدم نحو موسكو وقابل ديمتري وحلفاءَه الروس ولكنه هزم في معركة «كوليكوفو» سنة ١٣٨٠ م وبعد عامين عاد المغول واستولوا على موسكو، وذبحوا أربعة عشر ألفاً من السكان وأحرقوا موسكو بكاملها ولكن الروس وعلى الرغم من الهزائم التي لحقت بهم فقد استعادوا إيمانهم بقدرتهم على محاربة المغول والتحرر من سيطرتهم، وعلى الرغم من إحراق موسكو فإن انتصارهم في «كوليكوفو» جعلهم يدركون أن التحرر من ربقة المغول ليس مستحيلاً، ولعل مما سهَّل على الروس مهمة التخلص من المغول هو ظهور تيمورلنك على المسرح الروسي، حيث استطاع إلحاق الهزيمة بالأمير المغولي «توختامش خان»، وهز بذلك كيان الدولة المغولية من أساسه، وفي عام ١٣٩٦ م قام تيمورلنك بشن هجوم آخر على المغول الذين تحالفوا مع الشركس، ولكن تيمورلنك انتصر على هذا التحالف وأخذ يكيل الضربات للمغول حتى أضعفهم إلى حد كبير، واستفاد الشركس من ضعف المغول واستعادوا أراضيهم منهم[1].

إلا أن الخطوة المهمة التي خطاها الروس في سبيل توحيد روسيا كانت في عهد «إيفان الثالث» الذي رأى أن التخلص من المغول قد أصبح أمراً يسيراً إذ لم يبق لهم سوى ثلاثة مراكز في «سراي وقازان والقرم» فأخذ إيفان يضرب كلاً منها بالأخرى حتى اطمأن أنها لن تتحد ضده. وفي عام ١٤٨٠ م امتنع إيفان الثالث عن

(١) انظر كتاب: «أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز»، تأليف: شوكت المفتي، ص ٢٠ وما بعدها.

دفع الجزية للمغول بعد أن جمع كلمة الروس ووحد صفوفهم ووجه ضربات عنيفة إلى الليتوانيين ووضع حداً نهائياً لتجزئة روسيا واتخذ لقب «ملك روسيا بأسرها» واقتبس من بيزنطة نظريات الحكم وأعيادها ومراسمها وكذلك فعلت الكنيسة الروسية. ثم جاء بعده إيفان الرابع[1] الملقب بالرهيب الذي تمكن من إكمال مهمة سلفه من طرد المغول وتعزيز وحدة روسيا. وسأتوقف قليلاً عند هذا الحاكم لأن حكام روسيا الذين أتوا بعده ساروا على نهجه واتبعوا نفس الأساليب الإرهابية التي ابتكرها. ويقول بعض الباحثين: إن صدى إيفان الرهيب لا يزال يجلجل في أروقة الكرملين مجسداً قمة الإرهاب والبطش والقتل الهمجي، ويقول آخرون: إن القياصرة الذين تعاقبوا على حكم روسيا قد تخرجوا من مدرسة إيفان الرهيب، لأنهم استخدموا نفس الأساليب الوحشية في قمع المعارضة الداخلية وفي إبادة الشعوب التي استعمروها، وكذلك نهل القياصرة الحمر أمثال ستالين وغيره من فكر إيفان الرهيب وساروا على نفس الطريق الذي اختطه، وحتى يلتسين الديمقراطي الإصلاحي اتبع نفس أساليب إيفان الرهيب في داخل روسيا، وفي خارجها، وخاصة في الشيشان.

إيفان الرهيب القيصر الذي لا يهز رأسه

سياسته الداخلية: خلال أعوام (١٥٠٠ ـ ١٥٥٢ م) كانت روسيا دولة أوروبية كبرى، ورغم أن مساحتها آنذاك كانت تعادل مساحة فرنسا وإسبانيا وبريطانيا وإيطاليا إلا أن سكانها يقدرون بين ١٠ ـ ١٢ مليون نسمة فقط، وكان معظمهم من الفلاحين الذين رزحوا تحت نير العبودية القيصرية وأنهكهم دفع الضرائب والأتاوات لسادة الإقطاع. يتميز الروس بالصلابة والحزم وإطلاق لحاهم، ويعود انتفاخ بطونهم إلى إدمانهم الكحول في سن مبكرة، وأما النساء فكن يجلدن في بيوت الزوجية، والمرأة التي تُدان بالخيانة عقوبتها تقشعر لها الأبدان، إذ يصهر الرصاص ويسكب مزيجه الكاوي في فمها بعد أن يمسك زوجها الصليب ويقبله، وذلك كاف لتصديقه.

ولد إيفان الرهيب سنة «١٥٣٠»م، وترعرع في ردهات الكرملين، وقبل

(١) انظر «قصة الحضارة»، تأليف ول ديورانت، الجزء ٢٦، ص ١٣، وما بعدها.

وفاة والده إيفان الثالث، موحد روسيا، دعا إلى مجلس كنسي، وانعقاد هيئة الدوما، أي الشورى، التي كانت تضم نخبة من الارستقراطيين الروس وكبار الإقطاعيين، وأرغمهم على قسم يمين الطاعة للصغير إيفان قيصراً لروسيا. ترعرع إيفان في ردهات الكرملين في كنف والدته التي لم تكن أماً رؤوماً، وبعد أربع سنوات اغتيلت بالسم، فنشأ الخلاف بين الأوصياء على عرشه، وقد كانت هذه الخلافات لمصلحة المغول، فهاجموا الأديرة والكنائس وقتلوا الرهبان والراهبات. وكان إيفان في الثالثة عشرة من عمره فانطبعت في ذهنه هذه المجزرة التي جعلته يحسم أمر المغول فيما بعد. وفي سنه هذه فاجأ إيفان مجلس الدوما بطلبه الزواج، وألح على تنصيبه قيصراً، إلا أنهم اعترضوا إزاء عدم نضج الأمير الصغير وصغر سنه. وبعد فترة وجيزة رضخوا لمشيئته ونُصب في كانون الثاني/ يناير ١٥٤٧ م قيصراً لروسيا، وهو لقب يفوق في عظمته تسمية الخان عند المغول بل ويعلو تيهاً على ألقاب الأباطرة والملوك. ولفظة قيصر تعني «الملك الذي لا يهز رأسه»، تزوج القيصر من «أنستاسيا رومانوفا» ومن لقب أسرتها سوف يتحدر في المستقبل القريب لقب أسرة حاكمة، كان القيصر يحب زوجته حباً جارفاً، ويعبدها، ويدللها، وقد أحبها الشعب الروسي لرقّتها وتواضعها ورباطة جأشها، ودورها في تهدئة هيجان القيصر. وقد أنجبت «أنستاسيا» خمسة أولاد «إيفانوفيتش ـ إيفانوفا ـ إيلينا ـ ديمتري ـ تيودور». وفي ذلك الوقت عاشت روسيا حالة من الغليان مما حدا ببعض المواطنين إلى إحراق أنفسهم احتجاجاً وتعبيراً عن البؤس واليأس. وعندما مثل موفدان من قبل الشعب بين يدي القيصر أخذ عريضتهم وبدأ يغني طلباتهم تهكماً وسخرية، ورشق النبيذ المغلي في وجوههم. استيقظ القيصر ذات صباح على صخب الجماهير تزمجر سخطاً في شوارع موسكو، فأدرك إيفان عندها أنه بحاجة إلى مستشارين يساعدونه في مهامه، فاستعان القيصر برجال الدين، وكان المطران «سيلفستر» راسبوتين روسيا في ذلك الوقت حيث يجلس القيصر ساعات طويلة يستمع إليه بذهول والكاهن يحشو رأسه بحكايات الأشباح والمعجزات، وإيفان يطلب المزيد. أما أهم ما احتوت مكتبة القيصر فهو كتاب «سر الأسرار»، ومن بين أهم نصوصه النصيحة السرية التي قدمها الفيلسوف «أرسطو» إلى الإسكندر الأكبر، والتي تدعو الحكام إلى الورع في قيادة الرعية،

وإلى توخي الحذر من النبلاء وسبر أغوار نفوسهم فيما يتوقون إليه. ولكن الحدث الجلل عندما وقع القيصر يصارع المرض، وتناهى إلى الأمة أن القيصر ينازع على فراش الموت، وكان جناحه يغص بمستشاريه، ورهبانه يراقبون صحته، التي أخذت بالتدهور يوماً بعد يوم، فطلب إيفان اجتماع مجلس الدوما كما فعل والده، وأمرهم أن يقسموا يمين الولاء لابنه «تيودور» خلفاً له. وأثناء إحدى نوبات الألم الحادة التقط سمعه حديثاً عن مؤامرة يحيكها بعض أعوانه، وقد حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد تحسنت صحة القيصر، وتعافى وأول ما فعله هو أن مزَّق أوصال المعارضين، ورمى بهم إلى كلاب الكرملين الضارية. وبعد وفاة زوجته الشابة «أنستاسيا» التي قضت مسمومة بمؤامرة مدبرة تحول جبروته الطاغي إلى صرعات هيجان جنوني، وأصبح القيصر شاذاً، وغريب الأطوار، ودون سابق إنذار وفي ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٥٦٤ م غادر إيفان موسكو مع أسرته إلى مقره الصيفي في «إسكندرومنسك» التي تبعد ستين ميلاً عن موسكو، وهو يحمل معه أيقوناته وكنوزه، وأرسل إلى موسكو بيانين زعم في الأول أن النبلاء، والبيروقراطية والكنيسة تآمروا ضده وضد الدولة وإنه لذلك مع أشد الأسف اعتزل الآن عن العرش ليعيش في عزلة. أما البيان الثاني فقد أكد فيه لأهل موسكو أنه أحبهم وأن لهم أن يبقوا واثقين من نياته الطيبة. وفي خضم هذه التطورات لاحت بوادر العصيان وسال لعاب المعارضة، وعندها وفي شباط/ فبراير ١٥٦٥ م عاد إيفان، وعلى الرغم من أن سنه لم تكن تجاوزت «٣٥» عاماً إلا أنه بدا كهلاً وتساقط شعره وجحظت عيناه، وصرح أن الخيانة هدَّت بنيان الأمة وأدمت قلبه، ونادى الشعب بعبارته المشهورة: «من أحب أمه وأباه أو ابنته وابنه أكثر مما يحبني فلا يقترب مني». وقام إيفان بتأسيس قوات خاصة به وأطلق عليها اسم «الأوبرشنكي»، وكانوا يتشحون بالسواد ويمتطون خيولاً سوداء حتى لقبوا «بالأرامل»، ويرفعون شعاراً يرمز إلى كلب أسود ضخم محاط بمذراة من القش، واعتمد على الأوبرشنكي اعتماداً كلياً في تصفية المعارضة وقمعها، وعن طريق الأوبرشنكي مارس إيفان أبشع أنواع القمع والقتل الهمجي، وكان يقتل الناس بمجرد شبهة تحوم حولهم، مما دفع سفير بريطانيا إلى الفرار مذعوراً إلى بلاده عندما أقدم القيصر على تعليق أحد أبطال المغول ونبلائهم مع ابنه الصغير على خازوق كونه

حاول تبرئة نفسه من افتراء أُلصق به. وفي سنوات ١٥٦٠ ـ ١٥٧٠ م قتل إيفان نحو «٣٤٧٠» رجلاً، وكان الضحية يعدم مع زوجته، أو مع زوجته وأطفاله. وقام إيفان بقتل اثنين من زعماء المعارضة بطريقة لم يسبق لها مثيل، إذ حشر الرجلين في قدر ضخم وأضرمت من تحته النيران، وأمر بغطسهما تارة في مياه جليدية وأخرى بمياه تغلي حتى تفتت اللحم وتناثر عن أجسادهم. وفي مذبحة مروعة قام إيفان بتقطيع رؤوس بعض النبلاء وألقى بجماجمهم على الطرقات، ثم أطلق رجاله «الأوبرشنكي» في الأحياء تراقب كل مواطن يندب رأساً مقطوعاً، وبعدها ينقضون بفؤوسهم يدقون أعناق المنتحبين. تفنن القيصر بالبطش بل كان يتلذذ وهو يرمي بأعدائه طعاماً للحيوانات الضارية، أو الكلاب التي تجوَّع عمداً، ثم يختلي في مقره الروحي «اسكندرومنسك» ويشرع بممارسة فرائضه الدينية. إن إيفان الرهيب بكل تأكيد هو مخلوق جمع كل نقائص النفس البشرية وشذوذها، وقد خطط القيصر لمصاهرة سياسية، وتزوج واحدة من أميرات المغول التي سرعان ما توفيت مسمومة من جراء تناولها سمكة فاسدة في وليمة أقامها أحد النبلاء، الأمير «سترانسكي»، فكان انتقام القيصر جماعياً، إذ أجبر الأمير على تناول السم وقتل عائلته حتى والدته المسنة أمر بشنقها، ولم يكتف بذلك بل قتل الطاهي وابنه وتاجر السمك، وحتى الصياد قطع رأسه، وفي «نفجرد» بلغ الإرهاب القيصري ذروته فقد تناهى إلى سمع القيصر أن هناك تعاون بين نفجرد وبسكوف مع بولندة لخلع القيصر، وفي ٢ كانون الثاني/ يناير ١٥٧٠ م انقضت قوات «الأوبرشنكي» على بلدة «نفجرد» وأعملت النهب والسلب في الأديرة وقبضت على «٥٠٠» من الرهبان والكهنة وفي ٦ كانون الثاني/ يناير ١٥٧٠ م وصل القيصر إلى هناك ووزع «الأوبرشنكي» لسدِّ منافذ البلدان وانقضوا بفؤوسهم على كل عابر سبيل، وأحرق جنود القيصر كل حوانيت المدينة ودمروا بيوت التجار، وبعد أن فرغ من القتل والتدمير ألقى القيصر موعظة دينية تبشيرية أعلن فيها أنه سيتسامح مع بقية المتمردين. ولا يفهم من هذا أن القيصر كان متديناً، بل استغل الدين المسيحي ورجال الكنيسة لخدمة مصالحه، ففي سنة ١٥٦٨ م أثناء الصلاة في كنيسة الصعود رفض المطران فيليب، مطران موسكو، أن يمنح إيفان البركة التي توسل إليه فيها، وطلب القيصر ذلك ثلاث مرات، ولكن دون جدوى، ولما سأل أتباعه عن سبب

الرفض بدأ المطران فيليب يعدد جرائم إيفان، وفسوقه، فصاح القيصر: «هدىء من روعك وامنحني البركة». فأجاب المطران: «إن سكوتي يوقعك في الخطيئة ويستوجب هلاكك». وبعد شهر من هذه الحادثة قام إيفان بحرق المطران فيليب وهو حيٌّ. وفي عام (١٥٨٠) وفي شهر تشرين الثاني/نوفمبر بالتحديد، أنَّب القيصر زوجة ابنه الثاني إيفان، وضربها لما بدا له أنها ترتدي ثوباً ينافي الحشمة فأجهضت، فما كان من ابن القيصر إلا أن وجه اللوم إلى أبيه، وفي ثورة هياج تناول إيفان الرهيب عصا الصولجان وهوى بطرفها المدبَّب على رأس ابنه إيفان، فسقط ينزف، وتوفي بعد يومين متأثراً بالتهاب الجرح. وما حلَّ بالقيصر يفوق الوصف إذ أخذ ينتف شعر رأسه ولحيته وقضى أيامه ولياليه يصرخ صراخاً عالياً من الحزن والأسى، وكان يقدِّم تنحيه عن العرش صباح كل يوم، وأمر بتوزيع ثروته على الأديرة والرهبان متوسلاً أن يصلوا من أجل راحة ابنه الأبدية، وشرع بكتابة عريضة يذكر فيها آثامه وشروره وضحاياه ويتضرع إلى الكهنة أن يقيموا الفرائض والابتهالات إلى الله أن يغفر له، وعندما خانته ذاكرته في إحصاء جرائمه ركع على ركبته وقال: «أيها الرب أنت تعرفها جيداً فرحماك». وعاش إيفان ثلاث سنين بعد ذلك ثم أصابه مرض غريب جعل جسمه يتورم وتنبعث فيه رائحة مُنتنة، وفي ١٨ آذار/مارس ١٥٨٤ م قضى نحبه وهو يلعب الشطرنج مع «بوريس جو دونوف» وتناثرت الإشاعات تتهم بوريس بأنه دس له السم، وهكذا مات جسد إيفان الرهيب ولكن نهجه في القمع والتنكيل والإرهاب ما يزال حياً يرزق، وذلك لأن الحكام الروس قد تناقلوه، ولم يتخلوا عنه حتى يوم الناس هذا.

سياسته الخارجية: كان همه الأول تقوية الجيش واعتمد على القوزاق، وهم طبقة من الفلاحين الذين كان مقامهم في جنوب روسيا، وكانت سياسته الخارجية بسيطة فقد أراد أن تربط روسيا بين بحر البلطيق وبحر قزوين، وكانت «قازان واستراخان والقرم وسيبيريا» لا تزال في قبضة المغول الذين كانوا لا يفتأون يطالبون موسكو بالجزية ولكن عبثاً. وكان إيفان الرهيب يعتقد أن أمن روسيا ووحدتها تتطلبان امتلاكها لهذه المناطق التي سيطر عليها المغول. وفي عام ١٥٥٢ م قاد القيصر إيفان الرهيب «١٥٠» ألف رجل إلى أبواب «قازان» وحاصرها لمدة خمسين يوماً، ولكن المسلمين وكان عددهم «٣٠» ألف رجل قاوموا

وصمدوا في عناد، تحدوهم الروح الدينية، وهاجموا أعداءهم في غارات متكررة، وعندما أُسر نفر منهم وعُلقوا على أعواد المشانق أمام الأسوار سدد إخوانهم المدافعون إليهم السهام صائحين: «خير لهؤلاء الأسرى أن يموتوا بأيدي بني وطنهم النظيفة من أن يهلكوا بأيدي المسيحيين الدنسة». وبعد أن وهنت عزائم[1] المحاصِرين وأصابهم القنوط بعد شهر من الإخفاق، أرسل إيفان إلى موسكو في طلب صليب عجيب فما أن ظهرت هذه الأعجوبة أمام جنوده حتى ثارت حميتهم من جديد، وبث مهندس ألماني الألغام في الأسوار فانهارت واندفع الروس إلى المدينة صائحين «الله معنا»[2]؛ ودخلوا المدينة وارتكبوا مجازر جماعية أشبه ما تكون بالتصفية العرقية، ومن نجا من القتل تحول إلى رقيق، وقام إيفان بإسكان المسيحيين في أطلال قازان المدمرة وهتفت روسيا بأن إيفان أول سلافي يستولي على معقل تتري. وفي عام ١٥٥٤ م استولى إيفان الرهيب على «استراخان» وأصبح نهر الفولجا قناة روسية خالصة. أما القرم فقد ظلت بيد المسلمين حتى سنة ١٧٧٤ م. وأما سيبيريا التي كانت جزءاً من الدولة المغولية التي أسسها «باطو»، فقد ظلت بلاداً إسلامية حتى أوائل القرن السابع عشر للميلاد، ولم تسقط في أيدي الروس إلا بعد حرب دامت «٥٦» سنة، وكان السلطان «كوجم» آخر حكامها المسلمين، وقد عرض عليه الروس بعدما انهار جيشه، أن يقبل الاحتلال الروسي وأن يكون ملكاً تابعاً لهم، ولكن السلطان المسلم رفض العرض الروسي وقاتل دفاعاً عن سيبيريا المسلمة حتى آخر رمق في حياته. وفي أعقاب إحدى المعارك رُئي السلطان كوجم يمشي هائماً على وجهه وقد فقئت عينه، ومن حوله أكداس القتلى من جنوده البواسل، فعرض عليه السفير الروسي الاستسلام وجاء في رده على الروس: «لا أقبل عيش الأسير ولا موت الذليل، ولست أحزن لفقد أموالي وأملاكي، وإنما حزني من أجل أولئك التعساء الذين يعيشون تحت نير الاستعباد الروسي». وقاتل السلطان الروس حتى استشهد[3] ووضع الروس أيديهم على هذه

---

(١) انظر: «قصة الحضارة»، تأليف ول ديورانت ترجمة د. عبد الحميد يونس، مراجعة الأستاذ علي أدهم. الجزء ٢٦، ص ١٣ وما بعدها.

(٢) انظر «قصة الحضارة» الجزء ٢٦ مرجع سابق، ص ١٥.

(٣) انظر: «الإسلام في وجه الزحف الأحمر»، تأليف المرحوم الشيخ محمد الغزالي، منشورات =

الأرض الشاسعة وأسموها «سيبيريا»، وهو لفظ مُحرف من «صابري» الاسم القديم لهذا الإقليم. بقي أن نذكر أن أولى المناوشات الفعلية بين الروس والشركس في القوقاز كانت أيضاً في عهد «إيفان الرهيب» فقد دأب الروس منذ عهده على الاقتراب بشتى الوسائل من القوقازيين، وفي مقدمة هذه الوسائل إدخال «القوزاق» إلى الأراضي القوقازية، ومن ثم إحداث بعض المراكز التجارية، وهكذا أخذ إيفان الرهيب يحضر ويمهد لغزو القوقاز، وبعد وفاته اجتاحت روسيا حرباً أهلية، وسادت بها الفوضى حتى عام ١٦١٥ م. حيث استقرت الأوضاع فيها وبدأ الروس يعملون بكل الوسائل لإخضاع البلدان المجاورة والتي تقطنها في الغالب شعوب إسلامية. وانساح الروس في[1] البلدان الإسلامية وتمكنوا من احتلال الأورال، واستراخان، والقرم، والتركستان بالإضافة إلى سيبيريا، أي الشمال الشرقي من العالم الإسلامي كله. وعمل القياصرة منذ أن استولوا على هذه البلاد على سحق الإسلام فيها ومحو معالمه الثقافية والاجتماعية. والسياسة الروسية في هذا الميدان جزء من المخطط العالمي الصليبي للإجهاز على الإسلام ودك قواعده، لا بل إن روسيا شرعت تناوش بلاد الأفغان في الوقت الذي اتفقت فيه مع بريطانيا على تقسيم إيران إلى منطقتي نفوذ واحدة في الشمال خصت بها نفسها، وأخرى في الجنوب كانت من نصيب بريطانيا، وقد قاوم المسلمون الاستعمار الروسي مقاومة باسلة، ولكن قوى الشر كانت أقوى. إلا أن روسيا جوبهت بمقاومة عنيدة في القوقاز استمرت منذ عهد إيفان الرهيب حتى احتلال القوقاز بشكل نهائي عام ١٨٦٤ م.

= المكتبة العصرية بيروت رجب ١٣٨١ هـ، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٦، ص ١١١ وما بعدها.

(١) شرح المؤرخ الروسي «كليوشفسكي» ظاهرة حب الروس للسيطرة على المناطق المجاورة لهم وولعهم الشديد بالتوسع في كتاب له عام ١٩٣٧ م، فقال: «إن التوسع الروسي ظاهرة قديمة لا تعود فقط للعهد القيصري، أو الشيوعي، فقط، بل منذ قديم الأزل. وقال: إن تاريخ روسيا هو تاريخ دولة إذا لم تجد دولة تحتلها ستحتل نفسها.

الفصل الخامس

الاستعمار الروسي في القوقاز
أو حرب القوقاز الأولىٰ

بعد أن توحدت روسيا وتخلصت من المغول بدأ القياصرة بتنفيذ مشاريعهم الاستعمارية التوسعية، وقد حدث ذلك في نفس الوقت الذي بدأ فيه الأوروبيون في الغرب توسعهم وانتشارهم في نصف الكرة الغربي، بعد اكتشاف أمريكا. ولكن الروس لم يهتموا بالعالم الجديد «أمريكا» بعد اكتشافها ،ولم يهاجر إليها سوى عدد قليل من الروس رغم أنها كانت أرضاً بكراً وجذابة لطالبي الثروة والمغامرة، وذلك لأن الروس لم يكونوا بحاجة إلى الأراضي، وخاصة بعد أن انتزعوا سيبيريا من المسلمين ووضعوا مخططاً للتوسع في البلاد الإسلامية في أواسط آسيا، وهي الأقرب منالاً، ولا تحتاج لركوب البحر، وتحمل المشاق، أو المغامرة. ولم يكن هدف الروس من التوسع واحتلال الأقطار الإسلامية في آسيا هو حب التوسع فقط والمزيد من الثراء، بل كان الدافع الأهم هو حاجتهم إلى المواقع الاستراتيجية والبحار الدافئة، وزعم الروس أن الهدف من استعمارهم للبلدان الإسلامية هو تعميرها لأنها شبه خالية من السكان، وهي نفس حجج الغرب الاستعماري وحجج الصهاينة. وقد قال أحد المؤرخين الروس[1]: «إن الرسالة التاريخية لروسيا ليست استغلال البلاد الواقعة في الغرب التي تسكنها أقوام وشعوب كثيرة العدد، بل استعمار البلاد شبه الخالية في الشرق حيث كثافة السكان ضئيلة، ومن ثم إيصال

(١) انظر كتاب: «أبطال وأباطرة في تاريخ القوقاز»، تأليف: الدكتور شوكت المفتي، الطبعة الأولى ١٩٦٣، القدس، كانون الثاني/ يناير ١٩٦٣ شعبان ١٣٨٢ هـ، ص ٢٤ وما بعدها.

المدنية الأوروبية إلى تلك الشعوب الصغيرة، والنصف متوحشة، التي تسكن هذه البلاد». ومن اللافت للنظر أن التوسع الروسي في البلاد الإسلامية عامة، ومنطقة القوقاز خاصة، قد بدأ في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية في أوج قوتها، وعزّ جبروتها، وبعد أن قضى الروس على دولة المغول. وأيضاً كانت الدولة الصفوية في إيران في أوج قوتها كذلك. وكما ذكرنا سابقاً بدأ التحرك الروسي المنظم نحو القوقاز من خلال بناء المستعمرات والقلاع على امتداد نهر «الترك» وكلفت القوزاق المسيحيين بحماية هذه القلاع، وقامت روسيا أيضاً بإرسال البعثات التنصيرية لتنصير المسلمين. ولكن جهود المنصرين باءت بالفشل، واعترف بطريرك «استراخان» في عام ١٧٧٤ م «أن الديانة المسيحية في مناطق القوقاز لم تزل في البداية، بسبب إهمال الروحانيين الموكول إليهم أمر نشرها، وعدم قيامهم بواجبهم». وكان الروس قد قاموا بتأسيس مدرسة لتدريب أطفال القوقاز في «مزدوك» إلا أن سياسة التنصير مُنيت بالفشل الذريع، لذلك قررت روسيا استخدام الأساليب العسكرية السافرة، ورغم ذلك لم ينظر العالم الخارجي إلى خطر الاستعمار الروسي في القوقاز وفي أواسط آسيا، ومردُّ ذلك إلى عوامل مختلفة منها:

١ ـ كان الناس ينظرون إلى التوسع الروسي في تلك الجهات على أنه امتداد طبيعي فيما خالوه جزءاً متمماً لبلاد سيبيريا، التي كانت روسيا تتملكها منذ أن انتزعتها من المغول في القرن السابع عشر.

٢ ـ إن آسيا الوسطى سواء من حيث موقعها الجغرافي، أو من حيث ظروفها الأخرى كان يكتنفها ستار من الظلام فبدت كما لو أنها جزءاً متمماً لأملاك روسيا الآسيوية، كما أن الاستعمار عن طريق البر، أو الاستعمار «من الباب للباب» لم يكن لافتاً للنظر كاستعمار البلاد النائية التي تقع فيما وراء البحار.

٣ ـ إن معظم شعوب آسيا وإفريقيا التي كانت تتمتع بوعي سياسي أو قومي كانت تركز كل حملاتها لبيان مساوىء الاستعمار الأوروبي الغربي وحده، بينما كانت روسيا تتسلل في غفلة من العالم إلى البلدان الإسلامية التي تشغل أواسط آسيا دون أن تلفت إليها الأنظار. لذلك كان التوسع الروسي في القوقاز وغيره يجري في ذلك الوقت بعيداً عن أعين الناس رغم أنه كان استعماراً همجياً بكل ما

تحمله الكلمة من معنى، واتبعت روسيا سياسة الإبادة الجماعية وقتلت ونهبت وهجّرت السكان. وتنبغي الإشارة إلى أن الدولة العثمانية كانت على علم بالمخططات الروسية، وحاولت التصدي لها ولكن العثمانيين عندما كانوا يدخلون في معارك مع الروس كانوا ينسحبون من هذه المعارك إذا ما شعروا أن هذه المعارك تهدد كيان الدولة العثمانية، فمصلحة الحكم العثماني كانت في الاعتبار الأول. ونفس الشيء ينطبق على الصفويين الذين كانوا في حالة نزاع دائم مع العثمانيين. ومن الجدير ذكره أن إنكلترة كانت تسعى أيضاً لتحقيق حلمها بالسيطرة على القوقاز الشمالي، لتأمين ممر بري نحو الشرق الأقصى، وعملت قدر استطاعتها لاحتدام الصراع بين العثمانيين وروسيا القيصرية، وبين الصفويين وروسيا، لإضعاف القوى الثلاثة وإبعادهم عن أوروبا، وهكذا وقعت منطقة القوقاز في دوامة الصراع بين الدول الكبرى، وحتى عندما بدأت الهجمة الاستعمارية الروسية على القوقاز لم تكن القبائل الشركسية تشكل كياناً سياسياً واحداً، بل كانت كل قبيلة شركسية تنظم أمورها بمفردها، وفي حال تعرض هذه القبائل لخطر خارجي داهم كانت تتحد وتتحالف لصد هذا الخطر. ومن الموضوعية أن نعترف أن الدولة العثمانية بذلت جهوداً كثيرة في محاولة منها للتصدي للاستعمار الروسي. وشنت روسيا القيصرية «١٢٠» حرباً ضد العثمانيين الأتراك استغرقت «١٥٠» عاماً، وشنت «٦٠» حرباً ضد الصفويين الفرس استغرقت «٩٤» عاماً، وهكذا أضعفت روسيا كل من العثمانيين والإيرانيين، واستغلت الصراع الإيراني العثماني، ثم استفردت بكلٍّ منهما على حدة لتثبيت أقدامها في القوقاز. وبعد حروب طويلة بين الروس وبين كلٍّ من العثمانيين والفرس، استطاعت روسيا القيصرية إرغام إيران على عقد معاهدة «تركمانكي» عام (١٨٢٨ م)، والتي اعترفت فيها إيران بموجبها للقيصر الروسي بالسيادة على القوقاز. أما الدولة العثمانية فلم تحارب الروس في القوقاز حباً بالقوقازيين، ودفاعاً عنهم، بل حباً بالسيطرة والوصول إلى منطقة طوران، مهد الأتراك، فقد أرغمتها روسيا القيصرية على التوقيع على سلسلة من المعاهدات مثل معاهدة «قينارجه» عام ١٧٧٤ م التي سلخت روسيا بموجبها منطقة القرم من الدولة العثمانية، وأُعطيت منطقة القبردي لروسيا من دون أن يكون لشعب القبردي أي

علم بذلك. ثم اندلعت حرب جديدة بين العثمانيين وروسيا القيصرية وانتهت باضطرار تركيا إلى توقيع معاهدة أدرنة عام (١٨٢٩ م) وفيها اعترف الأتراك بسيطرة الروس على شمال القوقاز.

ولكن التخلي الإيراني التركي عن القوقاز، ومهما تكن أسبابه أو مبرراته لم يمكِّن روسيا من ابتلاع القوقاز لقمة سائغة، فقد قامت ثورات عظيمة ضد الروس قبل التخلي الإيراني التركي عن القوقاز وبعده. ولعل أهم هذه الثورات تلك التي قادها المريدون في القوقاز، وكانت أول ثورة من ثورات المريدين ثورة الشيخ منصور الشيشاني:

ثورة الشيخ منصور الشيشاني ١٧٨٥ م

نبذة موجزة عن الحركة المريدية:

إن كلمة المُريد معناها المجتهد، الذي يريد أن يجد طريقاً إلى الجنة. أما الحركة المريدية فهي حركة دينية توحيدية، وتعتبر طريقة دينية مثل غيرها من الطرق. انطلقت هذه الحركة في القوقاز من بلاد داغستان، وكانت تدعو لمقاومة الكفرة الروس، أو «الغازقي» باللغة الشيشانية، تحت راية الإسلام الخضراء، وجمعت تحت لوائها رجال الدعوة المخلصين ودعت إلى الحريَّة والمساواة بين الناس إذ كانت لا تقر استعباد أو استغلال شخص ما من قبل شخص آخر. وكان من أهدافها جمع كلمة الإسلام التي تفرقت بسبب انقسام المسلمين إلى جماعتين: جماعة أهل السنة وجماعة أهل الشيعة. وأعلنت بصورة نهائية توحيد مذهب السنة والشيعة لأن جميع الناس عيال الله. انتشرت هذه الحركة بسرعة مذهلة في الجبال القوقازية، وقد أراد مؤسسو الحركة جمع كلمة المسلمين وتعزيز قدراتهم للتصدي للجيوش الروسية الغازية.

ثورة الإمام منصور الشيشاني: ظهر في مدينة «الدي» ببلاد الشيشان عام (١٧٨٥ م) الإمام منصور أو «أشورما» كما لقبه الروس، وكان ظهوره بداية حرب جديدة لم يألفها الروس من قبل، وهي حرب الجهاد المقدس الذي نادى به الإمام منصور كوسيلة سياسية وعسكرية لتوحيد شعوب القوقاز التي كانت وقتئذ قد اعتنقت الإسلام. وسرعان ما تجاوب مع الإمام منصور شعوب الداغستان،

والقبارطاي، والنوغاي، بالإضافة إلى الشيشان. وتجمع لديه جيش ضخم استطاع أن يلحق الهزائم المتكررة بالروس في شمالي القوقاز[1].

كان الإمام منصور معروفاً في بلاد الشيشان بزهده وتقواه وكرهه لغير المسلمين، واسمه الحقيقي «محمد». وكان منذ صغره عصبي المزاج تنتابه نوبات من الحزن الشديد، ولكنه كان ذا ذكاء حاد غير عادي وذاكرة قوية جداً. كان يحفظ القرآن الكريم كله عن ظهر قلب، ويحفظ آلافاً من الأحاديث النبوية الشريفة. وكان عفيفاً طاهراً نأى بنفسه عن ملذات الدنيا وشهواتها المختلفة، وكان يمضي جل وقته في الزهد والعبادة والصوم. ونظراً لتمتعه بهذه الصفات النادرة فقد كان له نفوذ وتأثير لا يجارى بين الشعوب الشركسية القوقازية المسلمة، وكان يحرِّض الناس جهاراً على القيام ضد الروس يداً واحدة مبيناً لهم أهمية الاتحاد، وبأنه الطريق الوحيد للتصدي الناجح للروس؛ ونجح أيما نجاح في إثارة الحقد على الروس. كان على اتصال بالعثمانيين الذين كانوا يكثرون له الوعود الخلابة ويحثونه على بذل أقصى ما يمكن من جهد لإثارة النقمة على الروس، فدأب الإمام منصور على التجوال في مختلف أنحاء القوقاز ليخطب في الناس ويعظهم بترك أمور الدنيا والتعلق بأهداب الفضيلة، وكان زاهداً متقشفاً لا يتغذى إلا من الحليب والخبز، وإذا خرج إلى الغزو وكسب شيئاً من الغنائم كان يوزعها على المجاهدين والفقراء دون أن يستأثر لنفسه بشيء منها، أما المعارك التي خاضها فهي كثيرة، وهذه لمحة عن أشهرها[2]:

خاض الإمام منصور الشيشاني معارك عدة مع الروس، بعد أن تجمع لديه جيش ضخم من المجاهدين في شمال القوقاز، ورغم أن «كاترينا» الأمبراطورة الروسية التي خلعت زوجها بطرس الثالث واستولت على الحكم (١٧٢٩ ـ ١٧٩٦) م» لم تكترث في بادىء الأمر بالإمام منصور وحركته في بلاد الشيشان، إلا أن هزيمة الكولونيل «بيري» الذي أرسله «بوتمكين» للقضاء على الإمام منصور، جذبت اهتمام كاترينا لهذا الخطر الذي ظهر فجأة ضد أطماعها في شمال القوقاز، حيث تمكن الشيشان وحلفاؤهم الداغستان من قتل الكولونيل «بيري» ومعه سبعة ضباط آخرين

---

(١) راجع مقال/ ثورة الإمام منصور أجهضت أحلام القياصرة، للدكتور موسى عادل الشيشاني، جريدة الشرق الأوسط العدد «٥٩٠٢» تاريخ ٢٥/ ١/ ١٩٥٥.

(٢) راجع كتاب: «أبطال وأباطرة في تاريخ القوقاز»، تأليف: د. شوكت المفتي، مرجع سابق.

إضافة لستمائة جندي، وغنموا الأسلحة التي كانت بحوزتهم ومن ضمنها اثنا عشر مدفعاً. وبعد توالي انتصارات الإمام منصور في بلاد الشيشان والداغستان ازداد تعلق الشراكس بالإمام، وتدافعوا للانضمام إلى حركته وجهاده. واستطاع شعب القبارطاي الشركسي الانفصال مؤقتاً عن الروس. ثم حاول الإمام منصور الاستيلاء على حصن «قيزليار»، وعندها أرسلت «كاترينا» جيشاً ضخماً بقيادة الكولونيل «ناجل» الذي استطاع أن يهزم الإمام في معركة «تتار توب» بتاريخ ٣٠/ ١٠/ ١٧٨٥ م على نهر التيرك، إلا أنها كانت هزيمة مؤقتة لأن الإمام منصور انسحب من المعركة عندما شعر بأنه سيخسرها، نتيجة التفوق العددي الروسي، وعاد إلى بلاده الشيشان، ولم يحاول الروس اللحاق به داخل بلاده واقتصر نشاطه بعدها على غارات مُباغتة وسريعة على القلاع الروسية في القبارطاي. وعندما بدأت بوادر الحرب تلوح بين روسيا وتركيا عام ١٧٨٧ م استنجد الأتراك بالإمام منصور فلبى النداء، وظهر فجأة بين الشراكسة في الغرب، الذين التفوا حوله وقاموا بمهاجمة القوات الروسية من الخلف، وفي الذكرى السنوية لمعركة «تتار توب» هاجم الإمام ومعه الشراكسة ثلاثة أفواج من قوزاق الدون وأبادوهم، وفي أيلول/ سبتمبر عام ١٧٨٧ م هاجم الروس قلعة «أنابا» على ساحل البحر الأسود فقام الإمام منصور بالهجوم على الروس من الخلف في منطقة «أوبون» وقتل ثلاثة آلاف جندي روسي في هذه المعركة، وإثر هذه الهزيمة تمَّ عزل «الجنرال توكالي» وحل محله «بيبكوف»، وأيقن الروس بأن احتلال «أنابا» لن يتم إلا بهزيمة الإمام منصور أولاً، وكان الأتراك قد أرسلوا حسين باشا «بطال باشا» للدفاع عن «أنابا» على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف رجل مزودين بالمدافع والذخيرة والمؤن، وفور وصوله «لأنابا» قام بطال باشا بمعاملة الإمام منصور ومتطوعيه من الشيشان والشراكسة بجفاء وعجرفة عندما قدموا للترحيب به، ونتيجة لهذه المعاملة غير اللائقة غادر الإمام منصور ومتطوعوه «أنابا» بعد أن أرسلوا شكوى إلى السلطان العثماني ضد تصرفات «بطال باشا». وعندما أرسل السلطان لجنة تحقيق برئاسة «محمود حساكي آغا» المشهور بعدله هرب «بطال باشا»، خوفاً من العقوبة[1] وتوقف قبل سحق الروس

(١) راجع مقال المرحوم الدكتور شاكر مصطفى: الشركس كيف أخرجوا من ديارهم، مجلة العربي الكويتية العدد ٤١٧، آب/ أغسطس ١٩٩٣.

ثم أخذ «٨٠٠» كيس من الذهب وهرب إليهم وانضم لأعداء الدين، ونتيجة لإلحاح السلطان العثماني والشراكسة عاد الإمام منصور «لأنابا» للدفاع عنها، وفشل الجنرال «بيبكوف» باحتلال أنابا وتم استبداله بالجنرال «بيلمان». وبتنسيق مع الأتراك خرج الإمام من حصن أنابا ومعه مقاتلوه لمهاجمة قوات الجنرال «جيرمانيين»، أحد مساعدي «بيلمان» وجرت معركة «كوبيروسكوي» والتي اضطر الإمام للانسحاب منها لأن القوات التركية لم ترسل التعزيزات التي كان قد اتفق على إرسالها أثناء المعركة، ولكن الإمام منصور عاد ثانية إلى أرض المعركة، واضطر الجنرال «جيرمانيين» للانسحاب. وبعد مسلسل الفشل الروسي في احتلال أنابا قامت الإدارة الروسية بتعيين الجنرال «غوردو فيتش» لقتال الأتراك والإمام منصور، وأرسلت له تعزيزات كثيرة من السلاح والجنود وبعد وصولها قام «غوردو فيتش» بالهجوم على أنابا في ٢١/٦/ ١٧٩١ م وتمكنت القوات الروسية من دخولها في اليوم التالي بعد أن فاوض الأتراك الروس، بعد دفاع أسبوعين وقبلوا الاستسلام رغم احتجاج الإمام منصور ومتطوعيه، وحثهم القائد التركي على المقاومة لآخر رجل، وكان الشيخ منصور ومتطوعوه من الشراكس هم الذين قاوموا الروس بعد دخولهم مدينة «أنابا»، بينما وقفت القوات التركية موقف المتفرج. وخلال المعارك في المدينة سقط الإمام منصور جريحاً، فتم أسره ونقله إلى الإمبراطورة «كاترينا» التي رغبت برؤية هذا الشيشاني الذي كان مصدر إزعاج دائم لها منذ عام ١٧٨٥ م ثم سُجن في سجن «شليسبرغ» وهناك قتل بعد أن قتل الجندي المسؤول عن حراسته. وبذلك سقط الإمام منصور الشيشاني شهيداً في «١٣ نيسان/ إبريل ١٧٩٤ م» بعد تسع سنوات من الجهاد المتواصل. وبسقوط «أنابا» واستشهاد الإمام منصور انتهت المقاومة الإسلامية في شمالي القوقاز، لكن لتعود ثانية وبشكل أقوى وأعنف وأشمل في الربع الأول من القرن التاسع عشر. أما الخائن «بطال باشا» فقد أصدرت الدولة العثمانية عفواً عاماً عنه، وبعد العفو عنه عُين والياً على طرابزون، مكافأة على خيانته للإمام منصور والإسلام والمسلمين.

وبعد أن أَجهضت ثورة الإمام منصور أحلامَ القياصرة في بسط نفوذهم على القوقاز وضعوا خططاً جديدة تتضمن تنصير الشركس، أو إخراجهم من أرضهم. وعندما فشلوا في تحقيق هذه الخطط لجأوا إلى سياسة الأرض المحروقة وحرب

الإبادة الكاملة، فعلى سبيل المثال قامت قوات الجنرال «غلا زينب» في ٤ أيار/ مايو ١٨٠٤ م بهجوم واسع النطاق حيث دمرت ٨٠ قرية، وفي نيسان/ إبريل ١٨١٠ م قامت القوات الروسية بقيادة الجنرال «بولفاكوف» بهجوم وحشي دمرت «٢٠٠» قرية وأحرقت «٩٠٨٥» بيتاً و«١١٠» مسجداً إلى جانب الاستيلاء على المؤن والمواشي، وانتشر مرض الطاعون بين الشركس الذين هربوا إلى الغابات والجبال خوفاً من حملات القمع والإبادة الجماعية من قبل الروس. وقد تسبب انتشار الطاعون في هلاك آلاف الأطفال والشيوخ والنساء، غير أن ذلك لم يمنع من اتساع أعمال المقاومة للوجود الروسي، بل ولم يمنع من تحقيق انتصارات باهرة رغم تعيين الجنرال «يرملوف» الذي عُرف برعونته وبطشه وقسوته ودمويته، قائداً للقوات الروسية في القوقاز بعد انتصاره على نابوليون، ونجح هذا القائد بالسيطرة على منطقة القبردي وإخلائها من السكان ليمنحها للقوزاق[١]. ولكن الشركس تصدوا لسياسة «يرملوف» وقاوموه مقاومة عنيفة بقيادة المريدين، وقد قاد المقاومة في الربع الأول من القرن التاسع عشر الإمام الغازي مولاي محمد.

ثورة الإمام الغازي مولاي محمد

كان يقطن «باراح» جنوب الداغستان وكان عالماً بالدين وذا سيرة حميدة لا هم له سوى تلاوة القرآن وتفسير آياته. وكان الشركس يقصدونه من كل أنحاء القوقاز للاستماع إلى توجيهاته والإصغاء إلى خطبه. وقد هداه الله إلى فكرة عظيمة وأدرك مبلغ الذنب العظيم الذي يرتكبه الناس بخضوعهم للأجنبي الروسي الذي لا يستحق إلا الطرد والإبادة بكل الوسائل الممكنة، وفي سنة ١٨٢٤ م وقف في الناس خطيباً بصورة علنية[٢] فأكد للجماهير أن التزامهم بتأدية الشعائر الدينية، وحتى قيامهم بالأعمال الصالحة، في هذه المرحلة لا فائدة منها ولا يقبلها الله ما دام المستعمر الروسي سيد بلادهم، وصاحب الأمر والنهي في بلادهم. وأكد أن الإسلام عندما يكون حقيقياً وفي سبيل الله وبعيداً عن الاتجاهات الدنيوية والنفاق

---

(١) راجع مقال: قباردا ـ بلقاريا والعالم العربي، إعداد غسان نوح شوهي، مجلة الآداب الأجنبية، مرجع سابق، ص ١٤.

(٢) راجع كتاب: «أبطال وأباطرة»، مرجع سابق، ص ١٠٥: ثورة الإمام غازي محمد.

السياسي فإنه يصبح قوة لا تقهر، حتى عند الهزيمة الميدانية. وبعد هذه التعبئة النفسية أعلن الإمام الجهاد وصرَّح للمجاهدين: «إن من يريد الآخرة عليه الاستغناء عن ملاذ الدنيا، ونبذ امرأته وأولاده وماله ويضحيها في سبيل الله، والمؤمن وجب عليه الجهاد». ولذلك عليهم أن يتسلحوا ويُعدوا العدة انتظاراً للساعة المؤاتية. وهكذا نجح الغازي محمد في تكوين جيش الخلاص وانتشرت أفكاره بسرعة هائلة في الداغستان والشيشان، ودوت صيحة الحرب في الجبال والوديان، ونتيجة للقمع الروسي الوحشي فقد أطلق المريدون شعارات متشددة تحمل الوعيد والتهديد للروس ومن أهم الشعارات التي أطلقتها حركة المريدين:

- الجنة تحت ظلال السيوف.
- جميع الروس لا يدينون بدين.
- من شروط الإسلام كره الروس[1].
- كل ما هو عائد للروس فهو محرَّم على المسلمين.
- لا يقبل الدين قطعياً ذهاب المريض للعلاج عند الأطباء الروس.
- كل شخص لا يحارب الكفرة مصيره إلى جهنم.
- إن أمة محمد لا يمكن أن تعيش تحت إدارة الكفرة غير المؤمنين بالله.
- على كل مسلم أن يفكر بالجهاد والشريعة السمحة.

وبالمقابل قام الروس بتأسيس حركة متعصبة متزمتة جعلت شعارها حرباً أشد وأكثر عماية، وهي حركة «الزباروزي»: ومن شعاراتها المتطرفة:

- أفضل الأديان هي المسيحية.
- يجب قتل كل قوقازي يرفض ذلك.
- وهذه هي أولى مهمات الزباروزي.

وهكذا تأججت نيران العداوة والحقد بين الطرفين ولا يستطيع أحد أن يوجه اللوم للشركس لأنهم أطلقوا هذه الشعارات المتعصبة، وذلك لأنهم أطلقوها بعد تدمير مدنهم وقراهم، وبعد مقتل الآلاف من أبنائهم، فالروس هم الذين دفعوهم إلى إطلاق مثل هذه الشعارات المتعصبة، وبالفعل نفَّذ الإمام الغازي محمد هذه

(١) راجع كتاب: «تهجير الشراكسة»، تأليف نهاد برزخ، ص ٩٦ ـ ٩٧ وما بعدها، مرجع سابق.

الشعارات على أرض الواقع، وقال في بعض خطبه إلى المجاهدين: «إن معابدكم ومساجدكم فقدت حرماتها لأن الكافر الروسي ينظر إليها بعين وقحة. وخير لكم أن تهدموها على أنفسكم وأن تُدفنوا تحتها، إن كل حجر تقتلون به روسياً سوف يصبح تمثالاً للحرية ومعبداً لتمجيد الله». وقبل أن يبدأ جهاده الرائع خاطب المجاهدين:

«لقد دقَّت الساعة الرهيبة، واليوم هو يوم النصر أو الموت، ومن يضحي في سبيل الله له الجنة في الآخرة، ومن ينصر الله منكم فله الحرية في هذه الدنيا، وما لكم الآن إلا الحرية أو الموت، فماذا تنتظرون؟». وبعد أن حشد جموع المجاهدين من كل أنحاء القوقاز أعلن الجهاد بعد أن بايعه الناس في بلدة «غيمري» زعيماً للجهاد المقدس، وبعد مبايعته قال:

«جنة الفردوس تنتظر كل من يُقتل في سبيل الله والوطن، أو من يقتل روسياً، ولكن الويل لمن يفر من ساحة الوغى أو من يدير ظهره للأعداء». وبعد فترة قصيرة اعترفت بزعامته جميع الشعوب الشركسية ما عدا «خان الأوار» التي كانت عاصمته «خونزاخ»، فقرر الإمام غازي معاقبة الأوار وشن عليهم هجوماً بمساعدة الإمام «شامل» ولكن الهجوم فشل وقد اشترك الحاج مُراد في صفوف الأوار لصد حملة الإمام غازي محمد. وبعد فشل الحملة قام الحاج مراد بجمع مخلفات جيش المريدين وأرسلها إلى الروس ليبرهن على تضامنه معهم، أما الغازي محمد فقد لمَّ شتات جيشه ورجع إلى «غيمري» وأعلن أن هزيمته تعود إلى ضعف إيمان شعبه وفساد أحلامه. وفي عام ١٨٣٠ م، أرسل الروس جيشاً كبيراً إلى داغستان للقضاء على ثورة المريدين، فتصدى له الثوار بقيادة الإمام غازي محمد الذي وضع خطة رائعة لاستدراج الروس إلى الموقع الذي يريده ويناسبه. وفعلاً نجح الإمام في استدراجهم إلى الغابات الكثيفة، والوديان الضيقة، وأخذ يشن عليهم الهجمات المباغتة والسريعة وينقض عليهم كالصاعقة ويلحق بهم الهزائم المتلاحقة. وفي عام ١٨٣١ م هاجم الإمام غازي مدينة «باراثول» ورغم أن المدافع الروسية كانت تمطره بوابل من قذائفها من قلعة «بورنايا» فقد كاد ينجح في احتلالها لولا وصول النجدات الروسية في اللحظة المناسبة. وبعد شهر واحد هاجم الإمام غازي قلعة «ونسبانايا»، في سهول داغستان الشمالية، وحاصرها فترة طويلة ثم اضطر للتراجع

إلى الغابات حيث اشتبك مع الروس في معارك ضارية مُني فيها الروس بخسائر فادحة، وأصيب فيها الجنرال الروسي «أمانويل» بجراح خطيرة. ثم هاجم المدينة المحصنة «دربند» الواقعة على ساحل بحر قزوين، ولكنه تراجع بعد وصول النجدات الروسية. وفي خريف سنة ١٨٣١ م هاجم الإمام غازي مدينة «قيزليار»، الواقعة على الضفة الشمالية لنهر «الترك»، وتمكن من فتحها واستولى على كمية كبيرة من الغنائم، وأسر نحو «٢٠٠» أسير روسي، وفي ربيع سنة ١٨٣٢ م هاجم الإمام غازي مدينة «فلادي قوقاز» عاصمة القوقاز، وحاصرها مدة من الزمن، وكان هدفه تحريض القبرطاي للانضمام إلى ثورة المريدين لكن فشل في اقتحام المدينة. وفي شهر آب/ أغسطس ١٨٣٢ م استأنف الروس هجماتهم على الشيشان ودخلوا بلدة «غرماتشوك». وقد دافع عنها سكانها دفاعاً عظيماً رغم ضعف تسليحهم وصمدوا صموداً مشابهاً لصمود غروزني أمام الجيش الروسي في حرب ١٩٩٥ م، واستمر صمود سكان «غرماتشوك» حتى تمكن الروس من تدمير المدينة بكاملها ما عدا ثلاثة منازل بقيت صامدة فأضرم الروس النيران فيها، ولكن المقاومة استمرت، فعندها أرسل قائد الحملة الروسية مترجماً يطلب من الشيشان وقف إطلاق النار مقابل شروط مناسبة يعرضها عليهم، وعندها كف الشيشانيون عن إطلاق النار للاستماع إلى الشروط المعروضة عليهم. إلا أنهم، وبعد استماعهم لشروط الروس، استأنفوا إطلاق النار، وقالوا للوسيط المترجم: «إننا لا نقبل الاستسلام لأعدائنا الألداء بأي ثمن كان، ويكفينا فخراً وشرفاً أن يعلم الروس أننا متنا هنا حيث عشنا وأننا فضلنا الموت على قبول الاستسلام، وأننا أبينا أن نحني رقابنا تحت النير الروسي، وانقلوا جوابنا هذا إلى نسائنا كي يعلمن أننا متنا هنا ونحن نحارب». وهكذا استمر القتال بين الطرفين إلى أن التهمت النيران المنازل الثلاثة بما في ذلك جثث الشهداء والأحياء الذين ثابروا على القتال، وقد استشهد «٧٢» شيشانياً في تلك البيوت الثلاثة. وفي خريف ١٨٣٢ م قام الروس بحملة شرسة على «غيمري» للإجهاز على الثورة، والقضاء على الإمام غازي ومساعده الإمام «شامل». وكان هدف الروس تدمير المدينة نهائياً بما فيها، وبعد معارك ضارية فشل الروس في اقتحام «غيمري» وقد أبدى الإمام شامل شجاعة فائقة ونادرة، وبذل المريدون محاولات كثيرة لرفع الحصار الروسي عن المدينة،

ولكن الحصار كان مُحكماً. وفجأة ظهر رجل طويل القامة فحاول الروس ضربه ببنادقهم، فقفز عالياً من فوق رؤوسهم، ووصل إلى الأرض خلف صفوفهم، وبأسرع من لمح البصر قتل بسيفه ثلاثة من الجنود الروس، ولكنه أصيب في صدره بحربة جندي رابع، فبادر للقيام بحركة سريعة وسحب الحربة بيده اليسرى من صدره، وبيمناه ضرب الجندي المعتدي على رأسه، فأرداه صريعاً، وتمكن هو من الفرار ولجأ إلى الغابة القريبة من ميدان المعركة، واتضح فيما بعد أن طعنة الحربة لم تكن الجرح الوحيد الذي أصابه، بل أصيب بكسر في الأضلاع، وكسر في عظم الترقوة. وهذا الرجل الذي لم يعرفه أثناء المعركة أحد كان الإمام شامل. وبعد اقتحام الروس للمدينة وجلائهم عنها وُجدت جثة رجل في وضع خاص، إذ كان القتيل يشير بيده اليمنى إلى السماء، وباليسرى يُمسك بلحيته، ولما أبصره الشركس عرفوا أنها جثة إمامهم «غازي». أما الإمام شامل فقد تمكن ورغم إصاباته المتعددة من الوصول إلى بلدة «انتسكول»، وهو بين الحياة والموت. وقد عُولج وتعافى، وبعد استشهاد الإمام غازي. وخضوع الإمام شامل للعلاج أوكل المريدون أمر قيادة الجهاد إلى الإمام «حمزت بك جانقا» ولكن الإمام حمزت لم يكن يتمتع بمقدرات سلفه من حيث الجرأة والإقدام، ومع ذلك تمكن بمساعدة الإمام شامل من تثبيت سلطته، واستطاع أن يكسب شعب الأوار إلى حركة المريدين، لأنه ينتمي إلى هذا الشعب وتمكن الإمام حمزت من فتح «خونزاخ»؛ عاصمة الأوار. بعد أن قام بقتل عدد من سكانها. وعندما سمع الحاج مراد بأفعال الإمام حمزت قرر الانتقام منه ونجح فعلاً في اغتيال الإمام حمزت أثناء احتفال ديني في مسجد «خونزاخ». وفي عام ١٨٣٤ م بايع الشعب الحاج مراد أميراً على شعب الأوار. وبعد اغتيال الإمام حمزت لم يكن هنالك رجل أجدر من الإمام شامل ليتولى أمر المريدين، ويقود الجهاد ضد الروس، الذين وسعوا أعمالهم القمعية والإرهابية.

«ثورة الإمام شامل»

١٢٤٨ ـ ١٢٧٦ هـ/ ١٨٣٢ ـ ١٨٥٩ م

ولد الإمام شامل في قرية «كيمرى»، في داغستان في ٢١ آب/ أغسطس ١٧٩٧ م، ويرى الباحثون في تاريخ القوقاز أن شاملاً يعدُّ من الشخصيات الفذة والنادرة التي لا يجود الزمان بمثلها إلا نادراً، وذلك لأنه استطاع بجرأته وصلابته

أن يضرم النار الخبيئة في وجدان الشعب الداغستاني العريق والأصيل، بيد أنه لم يجد في شعبه خميرة من الفرسان ترقى إلى مواصفات وشروط وعناد الحرب الطويلة التي كان ينوي إشعالها، وقد وجد ضالته المنشودة في شعب الشيشان، فانتقل إلى بلاد الشيشان المجاورة لداغستان ليستقوي برجالها الجبليين الأشداء على روسيا وجيوشها الجرارة، وكانت أول مهمة نهض بها هي القضاء على الفرقة والتمزق الداخلي، ونجح نجاحاً رائعاً في رص الصفوف، ورأب الصدع، وإصلاح ذات البين بين القبائل الشركسية، وساعدها على تناسي خلافاتها وشكّل منها جبهة موحّدة متراصّة، واستنفر كل طاقات الشعب لتصُب في خدمة الجهاد، حتى أنه منع نظم الأشعار، وعندما سُئل عن سبب ذلك قال: «أريد أن يبقى الشعراء الحقيقيون وحدهم هم الشعراء، لأن الشعراء الحقيقيين يستمرون في نظم الشعر مهما حدث، أما الكذابون.. أما المنافقون، الذين يدعون أنهم شعراء فسيخافون مني ويسكتون لأنهم جبناء». وحرّم شامل الغناء وقال: «أبحث في الأغنية عن شيء واحد[1] الضحكة، أو الدمعة، ونحن الجبليين لسنا في حاجة الآن لا إلى هذه ولا إلى تلك، نحن نحارب والرجل لا يجب أن يشكو ويبكي مهما كانت المحن التي ينوء بها. ومن ناحية أخرى ليس هناك ما يُسر فالحزن والحرقة في قلوبنا، أمس أنزلت القِصاص بشبان كانوا يرقصون ويغنون قرب الجامع. إنهم الأغبياء وإني لعلى استعداد أن أعاقبهم ثانية إذا عادوا إلى مثل هذا، إذا كنتم في حاجة إلى شعر فاقرأوا القرآن، ورددوا آياته، فهي منقوشة حتى على أبواب الكعبة». وكان شامل يعاقب النساء المغنيات بضربهن بالمكنسة والرجل بالسياط. وعلّل شامل حملته على الغناء بقوله: «أيها الجبليون علينا أن نحارب، لا وقت لدينا لتأليف الأغاني وانتشارها، ولا لرواية القصص، فلنجعل الأعداء يغنون الأغنيات فينا وستعلمهم سيوفنا كيف يفعلون ذلك، امسحوا دموعكم واشحذوا سلاحكم لقد خسرنا «اخولفو»، لكن داغستان ما زالت حية والحرب دائرة». وسُئل مرة كيف تمكنت داغستان من مقاومة الروس، فأجاب: «لم يكن في وسع داغستان أبداً أن تصمد في صراع كهذا لو لم تتّقد في صدرها شعلة الحب والحقد، هذه النار هي التي اجترحت المعجزات، وصنعت المآثر، هذه هي روح داغستان. هي داغستان

---

(١) راجع كتاب «داغستان بلدي» للشاعر رسول حمزاتوف الداغستاني.

ذاتها». وهذه طائفة من أقواله المأثورة[1]:

ـ «الشعوب الصغيرة في حاجة إلى خناجر كبيرة».

قال في وصيته الأخيرة: «أيها الجبليون أحبوا صخوركم العارية المتوحشة لقد جلبت لكم جبالكم القليل من الخير، ولكن أرضكم بدون هذه الصخور لن تكون أرضكم، وبدون أرض لا حرية للجبليين الفقراء. قاتلوا من أجلها، وحافظوا عليها، واجعلوا صليل سيوفكم تهدهد نومي الأبدي».

نقش الشيخ شامل على سيفه حكمة من حكمه:

«من فكر قبل المعركة في نتائجها فليس شجاعاً».

ـ «يجب أن نحافظ على لغتنا محافظتنا على تراب وطننا».

وبعد أن اطمأن شامل إلى تماسك الجبهة الداخلية، دعا للجهاد والتصدي للمحتلين الروس منذ عام ١٨٢٩ م، وكان الساعد الأيمن للإمام الغازي محمد. وبعد استشهاد الإمام الغازي محمد، واغتيال الإمام حمزت لم تجد القبائل القوقازية شخصية تصلح لقيادة الجهاد أفضل من الإمام شامل، ومنذ أن بويع رفع راية الجهاد، وكان شعاره «الشهادة أو النصر». ويتفق جميع الباحثين في تاريخ القوقاز أن حركة المريدين كانت تعاني من الضعف قبل تولي شامل قيادتها، ولكنه استطاع بمساعيه الشخصية أن يبعث في الحركة المريدية روحاً جديدة واستطاع أن يجمع حوله الزعماء والشخصيات البارزة في الحركة. ولما استتب له الأمر بادر فوراً لإخضاع قبائل «الأوار»، ولكن الحاج مراد زعيم الأوار هزم الإمام شامل ثم مني الإمام بهزيمة ثانية أمام الجنرال الروسي «كلوجناو» وعلى أثر الهزيمتين أدرك الإمام أنه لا بد من القيام بمراجعة عامة لتحديد أسباب الفشل، والتعرف على نقاط الضعف. وتوصل إلى قناعة راسخة أنه لا يمكن تلافي نقاط الضعف إلا بالمزيد من تقوية الجيش، وتوحيد القبائل، وكسب الحاج مراد زعيم الأوار إلى صفوف المريدين، وركز الإمام جهوده لتحقيق هذه الأمور. وقد تسنى له كسب الحاج مراد عندما قام الروس بتعيين عدوه «أحمد خان» أميراً على الأوار، فتحول الحاج مراد إلى عدو للروس. ويلاحظ الباحثون في تاريخ القوقاز إن الإمام لم يكن قائداً

(١) كل هذه الأقوال مأخوذة من كتاب «داغستان بلدي» من صفحات متفرقة.

عسكرياً وحسب، بل كان يجيد الدخول في معتركات السياسة، ويعرف متى عليه أن يحارب، ومتى يجب أن يفاوض. فعلى سبيل المثال كان الإمام مضطراً لخوض معركة مع الروس عند بلدة «تي تيل» جنوب «خونزاخ» عاصمة الأوار، وعندما تمكن الروس من احتلال نصف البلدة قام شامل بعرض الهدنة، وفي المفاوضات كسب الإمام نصراً مبيناً إذ أنه ضمن انسحاب الروس دون شروط. وبعد هذه المعركة عاد الإمام إلى «اشيلتا» فوجدها مُدمرة ولم يبق فيها سوى خمسة دور دون تدمير، وحتى الجامع الذي بُويع فيه بالإمامة دمره الروس، فغضب الإمام وقرر الانتقام من الروس. واتخذ من «اخولفو» مقراً جديداً له بعد تدمير «اشيلتا» وقام بتحصينها وحولها إلى قلعة منيعة. وفي هذه الفترة لجأ الروس إلى المفاوضات واتصل الجنرال «كلوجناو» بالإمام شامل ليجتمع به في مدينة «تفليس»، عاصمة جورجيا، واستجاب الإمام لهذا الطلب ووصل إلى المكان المحدد مع «٢٠٠» من المريدين المدججين بالسلاح، وبعد مفاوضات طويلة فشل اللقاء وذلك لأن الإمام لم يتزحزح عن مواقفه، وطالب بجلاء الروس عن القوقاز كله، وعند انسحاب الجنرال من المفاوضات مد يده لوداع شامل، وعندها أسرع أحد المريدين ومنع شامل من مصافحة يده القذرة وصاح: لا يجوز لأمير المؤمنين أن يصافح اليد الكافرة الملوثة. مما أثار حفيظة الجنرال الروسي ورفع عصاه ليضرب المريد، ولكن شامل تلقى العصا بيده ومنع المريد أيضاً من ضرب الجنرال بسيفه[1].

في عام ١٨٣٧ م ازدادت قوة المريدين، ولذلك قرر الروس إخماد ثورتهم بأي ثمن، وأرسلوا الجنرال «غرابة» قائداً جديداً للقوات الروسية في القوقاز، وكلفوه بإخماد الثورة. وقرر «غرابة» مهاجمة «اخولفو» عاصمة الثورة، وتوجه إليها، وقام بقصفها بالمدفعية، ثم حاصرها ومنع المؤن من الدخول إليها، ودام الحصار شهراً كاملاً. وفي ١٦ حزيران/يونيو ١٨٣٧ م شنَّ الروس هجوماً على اخولفو وضربوها بالقنابل دون تمييز مما اضطر الإمام إلى المفاوضات، ولكن المفاوضات فشلت لأن الروس اشترطوا استسلام شامل وتسليم ابنه جمال الدين

---

(١) اعتمدت في كتابتي عن ثورة شامل على مرجعين هما: كتاب «أبطال وأباطرة»، للدكتور شوكت المفتي، مرجع سابق، وكتاب «داغستان بلدي» لرسول حمزاتوف.

للروس، ولذلك استؤنف القتال، ونشبت معارك جديدة، وكسباً للوقت وكي يتمكن الإمام من تحسين موقفه دخل مع الروس في مفاوضات جديدة، ولكن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة، وفي ١٦ آب/ أغسطس ١٨٣٧ م أرسل الروس إنذاراً نهائياً للإمام وأصروا على تسلم ابنه جمال الدين كرهينة. ولم يقبل شامل الإنذار واعتبره تهديداً، فشن الروس هجوماً واسعاً على «اخولفو» وكادوا يدمرون المدينة بكاملها فاضطر الإمام لتسليم ابنه كرهينة، ولم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره، ثم جرت مفاوضات بين الطرفين، وطلب الروس استسلام «اخولفو» وتسليمها للروس، ولكن الإمام رفض رفضاً قاطعاً واعتبرها أغلى من ولده وفلذة كبده، فشن الروس هجوماً جديداً وتمكنوا من دخول المدينة بعد مقاومة عنيفة دارت من حي إلى حي، ومن بيت إلى بيت، وكان الثوار متحصنين في الطوابق السفلية من البيوت وفي الأقبية والمغاور، وحتى النساء كن يهاجمن الروس ويرموهم بالحجارة، وعندما أصبح واضحاً أن «أخولفو» آيلة للسقوط بيد الروس قامت بعض النسوة بإلقاء أنفسهن في الهوة السحيقة المحيطة بالمدينة، وبعض النسوة قتلن أطفالهن خشية وقوعهم في أيدي الروس. ودامت المعركة «٧٠» يوماً وأهل المدينة تحت الحصار، وفي النهاية سقطت المدينة، ولكن الروس لم يعثروا على الإمام شامل لا بين الأموات، ولا بين الأحياء، على الرغم من أن المدينة كانت محاصرة حصاراً محكماً لرصد حركات الإمام وتعقبه في حالة فراره، إلا أن الإمام تمكن من الفرار وأنقذ نفسه كما فعل في «كيمرى» سابقاً، واتضح فيما بعد أن الإمام قد تمكن من الفرار في ليلة ٢٢ آب/ أغسطس ١٨٣٧ م ومعه امرأته وأصغر أولاده، والتجأ إلى أحد الكهوف، وبعد مواجهة مع دورية روسية تمكن من الهرب إلى جبال الشيشان. ولم تمض سنة حتى أعاد شامل ترميم قواته وأعاد تدريبها وتسليحها، وظهر ثانية على رأس جيش مؤلف من عدة آلاف، وهذا ما أدهش الروس. ولكن شامل تمكن ببساطة من إعداد جيشه الجديد من نسور الشيشان الأبطال الذين كانوا مهيئين للثورة. وعندما وصل الإمام إلى بلادهم بايعوه على الجهاد وانضووا فوراً تحت لوائه وتحرك فوراً، ومن جديد، لانتزاع داغستان من الجيش الروسي. ومما عزز قوة شامل هو انضمام الحاج مراد إليه، الذي تمكن من الهرب من قبضة الروس بعد أن وشى به أمير «الأوار» أحمد خان العميل الروسي، ولجأ إلى شامل

الذي عينه فوراً نائباً وصار من ألد أعداء الروس؛ وبانضمام الحاج مراد إلى شامل كسب المريدون جميع شعب الأوار. اتخذ شامل من بلدة «دارغو» مقراً جديداً له، وقام بسلسلة من الإجراءات التنظيمية لتنظيم المناطق التي حررها والتي شملت الشيشان وأراضي واسعة من داغستان، وانفسح الطريق أمام توحيد شمال وشرق القوقاز تحت راية المريدية، وكان في مقدمة هذه الإجراءات:

١ ـ تقسيم البلاد المحررة إلى مقاطعات وتعيين نائب لكل منها.

٢ ـ فرض الخدمة الإلزامية.

٣ ـ إنشاء المحاكم الشرعية.

٤ ـ فرض نظام صارم لا يعرف الرحمة.

وبرهن شامل أنه رجل إداري من الدرجة الأولى. وفي عام ١٨٤٢ م حاول الروس احتلال المناطق المحررة ولكنهم رُدوا على أعقابهم، فعاودوا الكرة بقيادة الجنرال «غرابة» وكان هدفهم «دارغو» لكن المريدين بقيادة شامل تمكنوا من دحرهم وهزيمتهم هزيمة نكراء، وعندما حاول «غرابة» مهاجمة الداغستان فشل أيضاً. وفي عام ١٨٤٣ م حاول شامل تحرير جميع أجزاء بلاده الداغستان من الروس، وهاجم مع الحاج مراد بلدة «أونتسكول» عندما طلب سكانها النجدة، واستطاع الإمام سحق القوات الروسية وحرر البلدة ثم حرر «خونزاخ»، وبذلك أصبح شمال داغستان حراً، وأصبح شامل السيد المطلق في الشيشان وداغستان. وهذا ما أوقع القيصر نيقولا الأول في حالة يأس شديد، خاصة أن الإمام كان ينجو من جميع الأفخاخ التي ينصبها الروس لاصطياده ويخرج منها ليكيل لهم الضربات القوية والمتلاحقة. لذلك أمر القيصر الجنرال «نايدهارت» بقيادة حملة في أعماق الجبال والتوغل بين الأدغال والأحراش لمحاربة المريدين، وزوَّده بأحدث المعدات. ولكن الجنرال الجديد فشل في تحقيق أهداف القيصر فعزله وعين الجنرال «فورونتسوف» الذي اكتسب خبرات عالية من حروبه ضد نابوليون، فتوجه الجنرال الجديد إلى «دارغو» عاصمة المريدين فاستقبله نسور القوقاز أحسن استقبال وأبادوا الحملة وفرقوا جموعها، ومن تبقى من جنود الحملة كاد يموت جوعاً. وعندما فكر «فوروتسوف» بالانسحاب وجد صعوبة كبيرة لأنه كان عليه أن يحمل «١٢٠٠٠» جريح فقرر التوقف وطلب النجدات السريعة ليسهل عليه

الانسحاب، وهكذا أيقن القيصر أن الإمام شامل أصبح أسطورة يجب الخلاص منها، وخاصة بعد أن شن الإمام شامل هجوماً على القبرطاي الخاضعة للاحتلال الروسي منذ سنة ١٨٢٢ م، وحولها الروس إلى قاعدة لأعمالهم الحربية في القوقاز، وكان هدفه من الهجوم تأمين الاتصال المباشر بين شرقي القوقاز وغربها، وتشكيل جبهة موحدة تمتد من بحر قزوين إلى البحر الأسود، وقد حاول شامل إقناع القبرطاي بالانضمام إلى المريدين ولكنهم تقاعسوا عن نصرته ولم ينجح في إقناعهم لذلك أرسل إليهم عام ١٨٤٦ م رسالة هددهم فيها قائلاً: «إن جيوشي الجرارة سوف تنقض على بلادكم الآمنة كالغيوم السوداء التي تقدح شرراً وصواعق فتاكة، وسوف ننتزع منكم غصباً ما رفضتم إعطاءه بالحسنى، وإن الدم سيسيل على جوانب طريقي إليكم وسوف يتبعني الخوف والهلاك». وفي عام ١٨٤٧ م هاجم شامل بلاد القبرطاي من جهة بلاد الشيشان، ولكنه لم يوفق في انتزاعها من الروس. لذلك وضع الروس تكتيكاً جديداً لمحاصرة الإمام شامل، فبنوا العديد من القلاع والحصون بين الروس وداغستان، وأمروا بإحراق الغابات الكثيفة في الشيشان، التي كانت تساعد الثوار على التخفي فيها، وأحرقوا جميع القرى التي كانت تعترضهم. أما شامل فقد انصرف خلال فترة الهدوء إلى تعزيز تحصيناته وتدريب جيشه وترسيخ حكمه في الجبال وتمتين الوحدة الداخلية. وقد اعتمد شامل على أحد معاونيه، وهو البطل الحاج مراد في شن الهجمات المباغتة والسريعة، فقد تمكن الحاج مراد سنة ١٨٤٦ م وبقوة لا تزيد عن «٥٠٠» فارس من دخول بلدة «جنكوتاي» عاصمة إقليم مشتولي وتمكن من خطف أرملة عدوه القديم «أحمد خان» رغم وجود قوات روسية كبيرة. وفي عام ١٨٤٩ م قام الحاج مراد بواحدة من أجرأ عملياته، فقد تمكن من دخول مدينة «تيمرخان شورا» المحصنة، ولجأ إلى خداع جميع من يتبعونه ويلاحقونه، وذلك بأن خلع حدوات حصانه وإعادتها مقلوبة، وبذلك استطاع تغيير آثار الأقدام وتبديل اتجاهها على الطريق الذي سلكه في سيره. ولا يظنن أحد أن الحاج مراد إرهابي ويحب القتل وسفك الدماء، وهذا دليل على ذلك، فعندما عاد الحاج مراد من «تيمرخان شورا» رأى في إحدى الغابات جنديين روسيين كانا يجلسان باطمئنان قرب نار أوقداها ويغنيان فسأل الحاج أحد مرافقيه، وكان يفهم الروسية:

- عم يغنيان؟

فقال المرافق: عن الأم، عن الحبيب!

وبعد أن استمع الحاج مراد إلى الأغنية الروسية، قال بصوت خافت: هذان الشخصان ليس عدوان، دعوهما وشأنهما!

في سنة ١٨٥١ م هاجم الحاج مراد بلدة «بونياكسك» على بحر قزوين بعدد من الفرسان لا يزيد عن «٥٠٠» فارس، وقتل «شاخ والي» وخطف امرأته وأولاده، واحتفظ بهم شامل كرهائن حتى افتداهم الروس بالمال. ويمكن المضي قدماً في سرد القصص التي رُويت عن الحاج مراد وعن أعماله الجريئة ونكتفي بالقول بأن أعماله دوَّخت الروس وجعلتهم يخافون حتى من ذكره، ولكن نجاحاته المتلاحقة زادت من عدد حُساده، واندفع بعض الحُساد من ذوي النفوس الضعيفة إلى زرع الخلاف بينه وبين الإمام شامل، وللأسف الشديد فقد أعار شامل لهؤلاء الوشاة اذاناً صاغية، واعتقد بأن الحاج مراد ينافسه في مركزه السياسي والديني فأصدر حكماً يقضي بإعدام الحاج مراد، ولكن الحاج هرب ولجأ إلى الروس في خريف ١٨٥١ م، فاستقبله الروس، واعتقدوا أن شاملاً قد انتهى بتخليه عن الحاج مراد، واستغل الروس الحاج مراد وسمحوا له بالإقامة قرب الحدود المجاورة لقوات شامل لكي يتمكن من الاتصال بأعوانه الذين تركهم في بلاده وأطلقوا يده ليفعل ما يشاء ويتحرك متى شاء. وكان هدف الحاج مراد هو اغتيال الإمام أو أسره وتسليمه للروس، ولكن الحاج مراد طال انتظاره، ولم يتمكن من الإيقاع بالإمام شامل، وفي نفس الوقت ازداد شوقه إلى عائلته وولده يوسف بالتحديد، الذي أخذه شامل أسيراً، وعندما نفذ صبر الحاج مراد واستبد به اليأس والقنوط لاذ بالفرار سنة ١٨٥٢ م، مع بعض رفاقه وقرر الالتجاء إلى الجبال ثانية، إلا أنه قبل أن يتمكن من مغادرة المناطق الخاضعة للروس أحاط الروس به وبرفاقه ونشبت معركة عنيفة ودامت فترة من الزمن، ولم يفكر الحاج مراد بالاستسلام، وثابر على القتال إلى أن نفذت ذخيرته فاستل سيفه وهاجم الروس ولكنهم قتلوه بنيران بنادقهم في ١٨ نيسان/ إبريل ١٨٥٢ م، وسقط إلى جانب رفاقه. وهكذا تخلص الروس من ألد أعدائهم. ولعل ذاكرة القوقازيين لا تزال إلى اليوم تتذكر أعمال الحاج مراد، رغم مرور السنين، وقد وصفه تولستوي في روايته «حاجي مراد» بأنه «عشبة يستحيل اقتلاعها من الأرض».

في ٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٥٣ م نشبت حرب القرم بين روسيا من جهة، والدولة العثمانية وفرنسا وإنجلترا من جهة ثانية. وبنشوب هذه الحرب جاءت فرصة أخرى للدولة العثمانية كي تتعاون هي والحلفاء مع القوقازيين بقيادة الإمام شامل، الذي كان يسطر أعظم ملاحم البطولة والفداء، وفعلاً وضع الحلفاء «تركيا وفرنسا وإنجلترا» خطة يقوم بموجبها القوقازيون بالتقدم إلى القرم من ناحية البر، وأغدق الحلفاء الوعود لشامل بأنهم سوف يرسلون له المساعدات العسكرية وغيرها، ولكن الحلفاء نكثوا بوعودهم ولم يقدموا شيئاً للشركس، وعندما تمكن الحلفاء من تحقيق أهدافهم، وانتصروا على روسيا، انسحبوا من المعارك. وفي ٢٥ شباط/ فبراير ١٨٥٦ م اجتمعت الأطراف المتنازعة في باريس، وتم عقد مؤتمر باريس وكانت المفاجأة أن المؤتمر لم يأت على ذكر القوقازيين ولو بكلمة واحدة، وعندما طرح مندوب إنجلترا موضوع انسحاب القوات الروسية من القوقاز استعمل المندوب الروسي حق النقض. وصرَّح مندوب الدولة العثمانية بأنه لا توجد أية قضية تتعلق بالقوقاز في هذا المؤتمر. وعندما عاد «مالسبوري» مندوب انجلترا في مؤتمر لندن إلى بلاده بحث البرلمان الإنجليزي بنود معاهدة باريس، والأسباب التي دفعت الحلفاء إلى ترك القوقاز لقمة سائغة لروسيا، وكان جواب المندوب الإنجليزي جملة واحدة: «إنه لا يمكن أن نصبح مسلمين أكثر من المسلمين أنفسهم» وبعد هزيمة روسيا في حرب القرم حشدت «٢٨٠» ألف جندي للقضاء على ثورة الشركس، بقيادة شامل، ولكن القوقازيين تصدوا للحملة الروسية، وتابع المريدون عملياتهم العسكرية. وحتى أن الإمام شامل أرسل ابنه، القاضي محمد، ليغزو إحدى الإمارات الجورجية، وقد نجح القاضي محمد في أسر الأميرة «جاوجافادزه» والأميرة «أوربلياتي»، واحتفظ شامل بهما إلى أن جرى مبادلتهما بابنه جمال الدين الذي اضطر إلى تسليمه للروس عام ١٨٣٩ م كرهينة، وكان عمره «١٣» عاماً. وعاد جمال الدين بعد أن أعده الروس ليكون وسيلة يضغطون بواسطتها على الإمام شامل، وطبعاً خضع لعملية غسيل الدماغ، وتحول من قوقازي إلى روسي، ونسي أصله ودينه، وعندما سأله الإمام: قل لي هل صليت ولو مرة واحدة من أجل داغستان؟ هل تذكر آيات القرآن الكريم؟[1].

(١) هذا الحوار منقول من كتاب: «داغستان بلدي»، لرسول حمزاتوف مرجع سابق.

أجابه جمال الدين: هناك حيث عشت لم يكن القرآن في متناول يدي.

واستأنف الإمام: ألم تصُم؟ ألم تؤد الصلاة؟ وكان الجواب بالنفي، وحاول الإمام تخليص ابنه من تربيته الروسية، وتطوير نفسه، ليتمكن من الاندماج مع أهله، ولكن جمال الدين بدلاً من الاستجابة لرغبات والده أخذ يثبط همة الإمام، ويدعوه لرمي السلاح والانحناء للقيصر، فقام الإمام بنفي ولده إلى قرية نائية. وبعد ثلاث سنين مات، وهكذا فشلت محاولة القيصر في التأثير على الإمام بواسطة ولده، وانصرف الإمام بعد ذلك للتصدي للجيش الروسي الجرار الذي يقوده الأمير «باریاتنسكي»، وأمام هذا الزحف الروسي الهائل اضطر الإمام إلى اختيار موقع «غوينب»، وحاول الصمود أمام الجحافل الروسية الجرارة، ولكن القوات الروسية حاصرت موقع غوينب من كل الجهات. وعند سفح جبل غوينب دارت آخر المعارك بين شامل والروس، وخلال المعركة حاول «باریاتنسكي» إقناع شامل بالاستسلام. وبعد معركة «فيدن» في بلاد الشيشان تمكنت قوات روسيا من اقتحام غوينب، فاضطر الإمام إلى الاستسلام. وفي ٦ أيلول/سبتمبر ١٨٥٩ م ترجل شامل واستسلم للجنرال «باریاتنسكي» ودار بين شامل وباریاتنسكي الحوار التالي[١].

قال باریاتنسكي:

- عبثاً كانت كل جهودك وكل جهادك.

فأجابه شامل:

- كلا لم تكن عبثاً، وستبقى ذكراها في قلب الشعب، لقد جعل جهادي من أعداء كثيرين أخوة، ووحد القرى التي كانت تتنازع فيما بينها، وصيَّر شعوب داغستان الكثيرة التي كانت تتعادى فيما بينها ويردد كل منها شعبي أمتي، شعباً داغستانياً واحداً، لقد غرست الشعور بالوطن، الشعور بداغستان الواحدة، وهذا الشعور أخلفه لأحفادي فهل هذا شيء قليل؟

- أيها السردار: لقد حاربت خمساً وعشرين سنة أدافع فيها عن شرف هذه الجبال وهؤلاء الجبليين، جروحي التسعة عشر تؤلمني، ولن تلتئم أبداً. إني

---

(١) راجع نص الحوار الكامل في كتاب: «داغستان بلدي»، لرسول حمزاتوف، مرجع سابق، ص ٢٨٥ وص ٣١٧.

أستسلم الآن وأضع أرضي بين يديك.

أجابه باریاتنسكي: يكفيك حزناً وإشفاقاً! ما أطيب أرضك! ليس فيها إلا الصخور والحجارة!

قال شامل: أيها السردار من كان على حق أكثر في هذه الحروب، نحن الذين كنا نموت في سبيل الأرض ونعتبرها رائعة أم أنتم الذين كنتم تموتون في سبيلها وتعتبرونها سيئة؟

وفي بطرسبرج سأله القيصر الروسي قائلاً:

ـ كيف بدت لك الطريق؟

أجاب شامل: بلاد واسعة جداً.

واستأنف القيصر أسئلته: قل لي أيها الإمام لو كنت تعرف أن دولتي على هذا القدر من القوة والجبروت، هل كنت تناصبها العداء طوال هذا الوقت، أم كنت ألقيت السلاح تعقلاً؟

قال الإمام: لقد حاربتمونا كل هذا الوقت، وأنتم تعرفون أننا بلد صغير وضعيف ولم تخجلوا!

وبعد إقامته في بطرسبرغ نُقل شامل إلى ضواحي موسكو، وأكرمه القيصر، وفي سنة ١٨٧٠ م طلب شامل إذناً بالخروج للذهاب إلى مكة المكرمة بقصد الحج فسمح له بذلك، وفي طريقه إليها استُقبل في استانبول استقبالاً منقطع النظير، مما جعل السلطان العثماني يخاف على مركزه الديني، ولكي يتخلص منه السلطان كلفه بالسفر إلى القاهرة ليتوسط في حل الخلافات المصرية العثمانية ونجح في هذه المهمة، ثم قصد مكة، وقضى أيامه الأخيرة بالقرب من الكعبة المشرفة، وانصرف إلى العبادة. وفي سنة ١٨٧١ م توفي ودفن في جنة الباكرة في المدينة المنورة. ولكن استسلام شامل لم ينه الحرب مع الروس، وإن خفت حدَّتها فعلى الرغم من إحكام السيطرة الروسية على منطقة القوقاز عام ١٨٦٠ م، وهجرة الشركس إلى سوريا، وتركيا، والأردن وغيرها، فقد قامت حركات جهاد واسعة ومنظمة ضد القوات الروسية في البلاد مثل: حركة الزعيم الشيشاني «أومادوييف»، ثم حركة «طابي أضاييف»، ثم حركة «زالماييف». أما أكبر حركات الجهاد القوقازية ضد

الروس في تلك الفترة فهي حركة الزعيم الشيشاني «علي بك حاجي» الذي قضى الروس على حركته وأعدموه في جروزني عام ١٨٧٨ م.

«التآمر الروسي ـ العثماني على الشركس»

حين توقفت المعارك بدأ فصل جديد من مأساة الشعب الشركسي أشد هولاً وقسوة من المعارك، إذ أن القياصرة مارسوا سياسة الإبادة المنظمة للشعب الشركسي، وارتكبوا العديد من المجازر، أشهرها: مجزرة «آخجب» في نهاية عام ١٨٦٤ م. ثم قام الروس بمصادرة الأوقاف الإسلامية، وأخضعوا المساجد، وإعادة ترميم المساجد المدمرة، إلى موافقة مسبقة من السلطات الروسية، بل من الكنيسة الأرثوذكسية نفسها. إلا أن مأساة التهجير تُعدُّ من أكبر المآسي في التاريخ كله، فقد اتحدت الإرادتان الروسية والعثمانية، والأعداء الألداء بالأمس جمعتهم المصلحة المشتركة الآن: الروس يريدون القوقاز بدون سكانه، والعثمانيون الذين لم يستطيعوا السيطرة على القوقاز بسكانها، فعلى الأقل القبول بسكانه لحل مشاكلهم في مناطق أخرى من دولتهم. وتحالف معهم الأشرار من كل شاكلة وطراز لارتكاب هذه الجريمة، وهي تهجير الشركس. فقد أعلن الروس أن على الشركس أن يرحلوا طوعاً أو كرهاً. عليهم الهجرة إلى البلاد العثمانية أو إلى غيابة المجهول، وبدأ الزحف باتجاه[1] الغرب نحو شواطىء البحر الأسود، ورسمت الأقدام الشركسية آلاف الدروب إلى شواطىء البحر، واكتظت الشواطىء بالمهاجرين، وكانت السلطات العثمانية تحتجزهم لأسباب ومبررات مختلفة، وسط ظروف غير صحية أو إنسانية، ومات منهم الألوف، وألقيت جثثهم في البحر الأسود، وهذا ما جعل كبار السن من الشركس الذين يعيشون على شواطىء البحر الأسود، يمتنعون عن أكل السمك لأنهم لا يريدون تناول السمك الذي افترس جثث أهلهم. وقد لعب المكر العثماني دوره في عملية الإسكان، فقام العثمانيون بإسكان بعض الشركس على مدن الحدود المتاخمة لروسيا، ليكونوا في وجهها عند الحرب، حتى كأنهم نقلوا من جبهة حرب إلى أخرى، والعدو هو العدو، وأسكنوا

---

(١) انظر مقال المرحوم د. شاكر مصطفى «الشركس كيف أخرجوا من ديارهم» مجلة العربي العدد ٤١٧، آب/ أغسطس ١٩٩٣.

بعضهم على الشريط الفاصل بين القرى التركية والبلغارية لكيلا يجد البلغار سواهم إن همُّوا بالقتال، وأنزلوا بعضهم حول استنبول، ليكونوا درع الحماية في الأخطار على مداخلها والطرق المؤدية إليها، وقام العثمانيون بتوطين المهاجرين في القرى والأماكن ذات الأغلبية المسيحية، مثل: «ملاذ كرد» في قلب أرمينية، لا ليخلقوا التوازن بين السكان وحسب، وليكن ليهددوا بعضاً منهم ببعض، لا يهمهم أيهم المقتول. وأرسل العثمانيون قسماً من المهاجرين إلى قبرص، ورودس، وإلى لبنان في البحر. وحين احتجت هذه البلدان ورفضت دخول المهاجرين استرضاها العثمانيون بإحراق السفن بمن فيها من المهاجرين[1]. ولم تقف الأمور عند هذا الحد فقد استغلت روسيا حربها مع العثمانيين في البلقان عام ١٨٧٧ م، وثورة الزعيم الشيشاني «علي بك حاجي»، لتتكرر عمليات التدمير الشامل للمنطقة وليساق عشرات الألوف من الشركس، الذين استطاعوا الصمود في بلادهم، إلى داخل روسيا والمناطق الجرداء، ولتفرض على العثمانيين ترحيل «١٥٠» ألف مهاجر شركسي من البلقان، وسيق هؤلاء من جديد إلى الأناضول وبلاد الشام، إلى سورية والأردن ولبنان، ليلحقوا بالأفواج الأولى من الشركس، التي استقر بعضها في هذه البلدان.

وهكذا كان مصير شعوب القوقاز، احتلال أوطانهم وتهجير ثلثي السكان الذين نجوا من الحروب إلى الدولة العثمانية، وهم يعيشون اليوم في «٢٤» دولة معظمهم في تركيا، والأردن، وسوريا، ويوغسلافيا، وأمريكا. ويقدر عددهم بثلاثة ملايين نسمة، أما من بقي في القوقاز الشمالي، وخاصة القسم الشمالي الغربي منها، والتي أصبحت شبه خالية فقد خضعت للاستعمار الروسي الاستيطاني، حيث حدثت هجرة واسعة من الروس «القوزاق»، والقوميات الأخرى إليها، وأصبح سكانها الأصليون أقلية في بلادهم، بعد أن فقدوا ثلثي عددهم في الحروب[2] والتهجير. ففي منطقة القبرطاي لم يبق سوى «٥٢٠٠» أسرة عام

---

(١) للمزيد من الإطلاع على مآسي الهجرة الشركسية يمكن مراجعة كتاب «أبطال وأباطرة» و «تهجير الشراكسة» و «تاريخ القوقاز» وكلها مراجع ذكرتها في حينها.

(٢) راجع مقال: قباردا ـ بلقاريا والعالم العربي، مجلة الآداب الأجنبية/ إعداد غسان نوح شورهي، العدد ٩١ صيف ١٩٩٧ مرجع سابق.

١٨٦٨ م، بعد أن كان عددهم يبلغ عام ١٧٣٩ م «٤٠٠٠٠٠» نسمة، ولم يبق من قبيلة «الأربيخ» أحد. وهكذا بقية القبائل. ولا بد من التنويه أن الشركس الذين استقروا في تركيا لا يعرف بالضبط عددهم، وقد شاركوا في كل الأحداث السياسية في تركيا، ولكن مصطفى كمال نقم على الشركس لأنهم لم يوافقوه على إلغاء منصب الخلافة عام ١٩٢٣ م، ومارس الأتراك سياسة التتريك ومنعوا حتى استيراد الآلات التي يعزف عليها الشراكس، مثل «الأكورديون». وكذلك منعوا أطفال الشراكس من دخول المدارس المتقدمة. وقد ساهمت الفكرة الطورانية التي جاء بها مصطفى كمال في دمج الشركس بالقوة، وأكد «محمود عزت» وزير عدل مصطفى كمال: «يجب على أعداء وأصدقاء بلدنا أن يعرفوا أن السيد الوحيد في هذه البلاد هو التركي، وغير الأتراك لهم حق واحد في هذه البلاد هو أن يكونوا عبيداً للأتراك، وأن يخدموا الأتراك كعبيد». وحارب[1] الأتراك اللغة الشركسية، ومنعوا استخدامها»، وحُظر عليهم تشكيل الجمعيات الثقافية أو الاجتماعية. أما الشركس في الأردن فيقدر عددهم بنحو ٥٠ ألف نسمة. وقد وصل بعض الشركس في الأردن إلى منصب رئاسة الحكومة «سعيد باشا المفتي». وشارك الشراكس في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ م، ودافعوا عن الأردن في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ م، ودافعوا عن القدس الشريف. وهناك أعداد كبيرة من الضباط الشركس، يتسلمون مناصب قيادية في الجيش الأردني، وفي مجلس النواب، وهم يعاملون كمواطنين عاديين مثلهم مثل بقية السكان العرب. وفي سوريا يبلغ عدد الشراكس نحو «٤٠» ألف نسمة، ويعاملون معاملة حسنة، وقد اندمجوا في المجتمع السوري، وحتى أنهم تفانوا في خدمة سوريا فاشتركوا في حرب ١٩٤٨ م، وأهم معركة ساهموا بها «تل العزيزات» ١٩٤٨ م. وفي هذه المعركة استشهد المجاهد الشركسي الكبير «جواد أنزور»، وتوجد أعداد كبيرة من الشركس في عداد القوات المسلحة السورية، حتى أن بعضهم قد تسلموا مناصب عليا، ولا يزالون كذلك.

---

(١) لقد تآمر الأتراك على الشركس رغم الخدمات الكبيرة التي قدمها الشركس للعثمانيين، ويذكر المؤرخون من ذلك أن الشراكسة كانوا عصب الجيش العثماني ما بين سنتي ١٥٦٠ م ١٩٠٨، ووصل ٤٠٠ منهم إلى رتبة الباشوية، وكان ١٢ منهم من الصدور العظام وحوالي مائة وخمسين ضابطاً في رتبة مارشال، عدا المئات من الوزراء والقادة والولاة والسفراء.

ويتواجدون في كافة المؤسسات الإدارية، والمالية، والاجتماعية، والثقافية، والخدمية، وبما أن بعض الشراكس استوطنوا في الجولان السورية فقد تعرضوا لمآسي جديدة بعد احتلال إسرائيل للجولان عام ١٩٦٧ م، فاضطروا للهجرة إلى مناطق أخرى، مثلهم مثل بقية السوريين، سكان الجولان. ويلاحظ على الشركس تفانيهم في عملهم وإخلاصهم له، وكذلك فإنهم يتقنون أعمالهم. وهذا ما أهَّلهم لتحمل المزيد من المسؤوليات والمزيد من المهام الوظيفية المختلفة.

ملاحظات على حروب القوقاز:

١ ـ كانت حرب القوقاز حرب جهاد بطولية أثبتت للعالم أجمع بأن الإسلام، عندما يكون حقيقياً، وفي سبيل الله، وبعيداً عن الاتجاهات الدنيوية والنفاق السياسي، فإنه قوة لا تقهر حتى عند الهزيمة الميدانية، كما أكد الإمام الغازي محمد.

٢ ـ لقد صمد الإمام شامل «٣٠» عاماً من القتال الضاري، وضد أقوى قوة عسكرية في العالم وأوروبا، وكانت هذه القوة، مُجهزة بأحدث أجهزة العصر، ومتفوقة عددياً، وبكثافة كبيرة. أما قوات الإمام شامل فلم تكن تملك إلا أسلحة تقليدية قديمة، وفي عدد قليل لا يمكن مقارنته بعدد القوات الروسية. والجدير ذكره أن ثورة الإمام شامل لم تلق دعماً ولا تأييداً من العالم الإسلامي بأي شكل من الأشكال. ومع ذلك جاء نصر القياصرة مكلفاً للغاية، فكما تقول معظم المصادر التاريخية. إن خسائر القوات القيصرية في بلاد الشيشان والداغستان تقدر بنصف مليون جندي، هلكوا في جبال وغابات الشيشان على مدى الثلاثة عقود التي استغرقتها المرحلة الأخيرة من الحرب، وعرف الشيشانيون بأنهم «سيوف الجنة» كما جاء في عنوان الكتاب الذي سمي بهذا الاسم، للمؤلفة الأمريكية «لزلي بلاش»[١].

٣ ـ ادعى «يرلوموف»، الجنرال الروسي الأرعن، الذي قاد جيوش اسكندر

---

(١) راجع كتاب «حرب القوقاز الأولى» تأليف د. أحمد موسى الشيشاني. وهو أحد المتخصصين البارزين في تاريخ القوقاز، وصدر ضمن سلسلة «دعوة الحق» العدد ١٥٢ شعبان ١٤١٥ هـ السنة الثالثة عشرة.

الأول في عدة معارك خاسرة ضد الشيشان عام ١٨١٨ م، أن حروب القياصرة في القوقاز لها مهمة تاريخية، وهي حماية المملكة المسيحية ضد كل الأعداء، وأن على الدول الغربية مساندتنا لنسحق الحشرات الشيشانية.

٤ ـ لم تحاول دول أوروبا الغربية منع القياصرة من احتلال القوقاز ولم تستنكر حملات الإبادة المنظمة التي شنها الروس على المسلمين في القوقاز. لأنها تشن حملات مماثلة على مناطق أخرى من العالم الإسلامي. وتفيد المصادر التاريخية أن بعض الضباط الألمان قاتلوا الإمام شامل وساعدوا الروس في احتلال القوقاز. وكان هؤلاء الضباط وهم ١ ـ فون فردر. ٢ ـ فون كرسدوف. ٣ ـ فون كرترتجن، يفاخرون بأنهم كانوا يقاتلون باسم الحضارة والمدنية ضد أولئك القوقازيين الهمج، وقد نالوا أوسمة جزاء خدماتهم وأصبحوا من فرسان الشرف، في منظمة «يوهانيز أوردن» العنصرية[١].

٥ ـ لقد تعاطفت جهات عديدة مع ثورة الإمام شامل ضد القيصر الروسي، فقد كان في صفوف حركته روس وبولونيون هربوا إلى القوقاز بعد انتفاضة عام ١٨٦٣ م، وكان الفلاحون الروس الذين هربوا من نظام القنانة يعدّون السلاح لقوات الإمام شامل، وبعضهم كان يزود الثوار بالمؤن[٢].

٦ ـ قال «جون بادلي» في كتابه «الغزو الروسي للقوقاز»: لو تم اتحاد تركيا وإيران ضد روسيا في القوقاز لتم طرد الروس نهائياً إلى حدودهم الأصلية خارج منطقة القوقاز. ويلاحظ المؤرخ الشركسي «يوسف عزت» أن موقف العثمانيين والصفويين كان غريباً، ويؤكد أنه على الرغم من أن مركز القوقاز الطبيعي ومقاومة سكانه للروس كانا السبب الرئيسي في حماية الدولة العثمانية، والصفوية، من هجمات الروس، وفي منعهم من تنفيذ أغراضهم التوسعية على حساب الدولتين المذكورتين، إلا أن هاتين الدولتين الإسلاميتين لم تحركا ساكناً لحماية سكان القوقاز الشراكسة، أو مساعدتهم، حينما هاجمتهم الجيوش الروسية لضم بلادهم إلى روسيا، ليخلو لها الطريق للزحف إلى الجنوب وبسط سلطانها على ساحل

---

(١) راجع كتاب: «أبطال وأباطرة في تاريخ القوقاز»، د. شوكت المفتي، مرجع سابق.
(٢) راجع كتاب: «داغستان بلدي»، لرسول حمزاتوف، ص ٣٢٤.

المتوسط مع أن تنفيذ هذه السياسة الروسية كان فيه تهديد لكيان هاتين الدولتين، ويؤكد «يوسف عزت» أنه لو ساعدت تركيا وإيران الشراكسة في حروبهم التي كانوا يحافظون فيها على استقلالهم لوجدتا من الشراكسة حصناً منيعاً قادراً على صد هجمات الروس، ولكنهما تخاذلتا ولم تقدما مساعدة تذكر. ولو اتفقت الدولتان الإسلاميتان وتحالفتا مع الشراكس في حلف إسلامي لتمكنوا من صد الروس، ولكن الخلافات المذهبية بينهما أضعفتهما، ومنعتهما من خدمة أو نصرة قضايا المسلمين[1].

قالوا عن حرب القوقاز الأولى:

لقد اخترت مجموعة من آراء المؤرخين والأدباء حول حرب القوقاز، وبخاصة عن أهميتها ودورها في حماية الشرق العربي والإسلامي من الزحف الروسي، وكذلك انطباعات الأدباء وأثر هذه الحرب في إنتاجهم الأدبي:

١ ـ قال السير هنري «راولنسون» السياسي والعالم الإنكليزي في كتابه: «إنكلترا وروسيا في الشرق» ١٨٧٥ م: «لما كان القوقازيون يدافعون عن بلادهم، وكان دفاعهم بمثابة حصن طبيعي يمنع تقدم جحافل الروس، ولكن حينما غُلب القوقازيون على أمرهم، وأزاحهم الروس عن طريقهم لم يعد هناك أي مانع طبيعي أو عسكري يقف في سبيل تقدم الروس من ضفاف نهر «آراكس» حتى ضفاف نهر الهندوس.

٢ ـ قال كارل ماركس: «يا شعوب العالم ليكن قتال القوقازيين من أجل حرياتهم درساً لكم» وقال أيضاً: «أنظروا ماذا يستطيع شعب يطلب الحرية أن يفعل، وشاهدوا البطولات التي قدمها القوقازيون رغم قلة قدراتهم من أجل الحفاظ على حريتهم، فعليكم أن تأخذوا العِبَر منهم».

٣ ـ قال المؤرخ «جون بادلي» في كتابه «احتلال القوقاز»: «إن حرب القوقاز هي حرب البطولة، ومن حقها أن تسترعي انتباه الدولة البريطانية، لا شك أن القوقازيين الذين دافعوا عن حرياتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم، إنما دافعوا في ذات الوقت عن سلامة البريطانيين في الهند، دون أن يعرفوا ذلك هم أنفسهم».

---

(١) راجع كتاب: «تاريخ القوقاز»، تأليف: يوسف عزت، مرجع سابق.

٤ ـ قال المؤرخ الروسي «فادييف»: «إن الحرب في شمال القوقاز، شلت حركات الجزء الأكبر من الجيوش الروسية بعض الوقت، وأنه لولا الحرب القوقازية التي عاقت تقدمنا لاستطاعت الجيوش الروسية أن تحتل الشرق جميعه من مصر إلى اليابان، وهي تسير على نغمات فرقتها الموسيقية».

وحتى الروس أنفسهم فقد علمتهم حرب القوقاز معنى البطولة والشجاعة وصار بعضهم يهجر بلاده إلى القوقاز، بغية إحراز الشهرة عن طريق المغامرة والقيام بأعمال البطولة بما في ذلك كبار الأدباء الروس، أمثال: تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وغيرهم. فقد كتب هؤلاء الأدباء البارزون في الأدب الروسي والعالمي عن هذه البلاد، وعن حرب القوقاز، وكان في مقدمة هؤلاء الأدباء: بوشكين، الذي تم نفيه سنة ١٨٢٠ م إلى القوقاز، وقد جاء هذا النفي بسبب انتقاد الشاعر بوشكين للأوضاع القائمة آنذاك في روسيا وقيامه بالتشهير بمساوىء النظام القيصري وظلمه وفساده، والتي عانت منه شعوب كثيرة، أُعجب بوشكين بالجنرال «يرمولوف» الذي عينه القيصر اسكندر الأول حاكماً عاماً على القوقاز، وعلى الرغم من أن هذا الجنرال كان مثالاً للقسوة والغلظة، كغيره من الروس. إلا أن بوشكين حبذ أعماله الوحشية، وامتدح خططه رغم كونها همجية وإرهابية والتي كان الهدف منها إخضاع القوقاز بأي ثمن، وقد وصفه بوشكين وشبَّه رأسه[1] برأس النمر، وجسمه بحجم عملاق ضخم، وكان من عادة هذا العملاق أن يجرب سيوفه قبل محاربة القوقازيين، وذلك بضرب رقاب الثيران، وبضربة واحدة كان يفصل رأس الثور عن جسمه، وحتى أن بوشكين امتدح «يرمولوف» في شعره فقال في قصيدته في الطريق مخاطباً الإنسان القوقازي:

احن رأسك المثقل بالثلوج الأبدية، يا قوقاز خضوعاً،
فلتخضع أيها القوقاز،
لقد انتهى كل شيء،
لقد جاء يرمولوف.

أما ليرمنتوف فقد نُفي إلى القوقاز سنة ١٨٣٧ م لنفس الأسباب التي نفي من

(١) راجع كتاب: «أبطال وأباطرة»، تأليف د. شوكت المفتي، مرجع سابق.

أجلها الشاعر بوشكين، وبسبب قصيدته مقتل الشاعر المكرسة لبوشكين، وعند صدور روايته «بطل من هذا الزمان» نفي للمرة الثانية، وقد ثارت نقمة القيصر نيقولا الأول على ليرمنتوف بسبب استقلاليته واحتقاره للوجهاء، ولأن روايته مفعمة بالحماس للنضال من أجل الحرية، وقد خبر هذا الشاعر القوقاز وتعرف على أهله وأعجب بالقوقازيين وقال في وصفهم:

شرسة القبائل التي تقطن تلك الشعاب،
معبودها الحرية، والكفاح قانونها الوحيد،
قوية في صداقتها لكنها أقوى في الانتقام
لا تُدين لسيد يملي عليها تعاليمه من علٍ،
تجزي الخير بالخير وترد الشر بالشر.
ولا حدود لديها للكراهية ولا للمحبة[1].

أما **تولستوي** فقد جاء إلى القوقاز عام ١٨٥١ م، وهو في الثانية والعشرين من عمره، وقضى في القرية القوقازية «ستارا غلاد كوفسكايا» على الشاطىء الأيسر لنهر «الترك» زهاء ثلاث سنوات، متطوعاً في الجيش وقد جاء ليجرب شجاعته، وليرى بعينه ما هي الحرب في القوقاز. وقد سجل في قصة «سوستبول في أيار» التي استلهم أحداثها من تجربته الشخصية في معايشة سكانها ومقاتليها أروع اللمحات عن طبيعة القوقاز المهيبة والناس الوسيمين، عشاق الحرية، الجسورين، الذين يعيشون في رحابها في توحد تام معها». ورغم أن تولستوي اعتبر حرب القرم وحروب الروس في القوقاز حرباً دفاعية عادلة، إلا أنه وجه انتقادات لاذعة للضباط الأرستقراطيين الذين كانت تحركهم إلى «سوستبول» دوافع غير شريفة مثل اقتناص الصلبان والروبلات، والحصول على النياشين الزائفة. وخلال وجوده في القوقاز تأمل تولستوي شعب الشيشان وأكد أن لهذا الشعب مميزات خاصة. وصحيح أن تولستوي برر غزو الروس «لجروزني» لكنه لم يكن مرتاحاً للوحشية

---

(١) راجع كتاب: «أبطال وأباطرة»، تأليف د. شوكت المفتي، مرجع سابق. ومجلة العربي مقال: شيشان بلاد مسكونة بالحلم والأساطير والمقاومة، بقلم عبد المنعم الأعسم العدد ٤٣٨، أيار/ مايو ١٩٩٥ص ٢٧ وما بعدها.

التي اعتُمدت أثناء العمليات العسكرية وتساءل تولستوي عام ١٨٥٢ م: «هل العدالة تقع إلى جانب الجندي الروسي الذي جاء إلى الشيشان بحثاً عن المجد، أم في جانب المقاوم الشيشاني الذي ينظر إلى بيته الذي تأكله النيران، وإلى عائلته المختبئة تحت الأنقاض، ويمتشق بندقيته ويطلق عدة طلقات في وجه الروس الزاحفين قبل أن تمزق حرابهم جسده». وسجل تولستوي وصفاً للمعارك التي جرت بين الروس والشيشان عام ١٨٥١ م وقال: «لقد تم قتل المدنيين من كل الأعمار، ودمرت بيوتهم، وأحرقت مزارعهم، وفيما كان الشيشانيون يصلون في المساجد، على جثث أطفالهم بدا وكأن الكراهية لا تكفي لترجمة حقيقة مشاعرهم تجاه الروس». ويضيف تولستوي «بالنسبة للشيشانيين فإن ضراوة الهجوم الروسي جعلتهم يتصرفون كالفئران، أو العناكب السامة، أو الثعالب بحيث أن الرغبة في القضاء عليهم بدت لدينا طبيعية، مثل غريزة حب البقاء». وفي قصته الطويلة «الحاج مراد» دخل الكاتب تولستوي في مسامات التكوين النفسي للشركس، وهو يرصد تجليات «المريدية» كفلسفة إسلامية، وتطبيقات دينية، في سلوك الشيشاني، ولا يتوانى عن الغوص بعيداً في مجاهل هذه النفس للكشف عن مكنونها ومصادر قوتها وينابيع الحكمة التي تعيد إنتاجها في مجرى الصراع.

أما الشاعر الروسي «سبو سيشف» الذي خرج من منفاه في سيبريا وجاء إلى القوقاز ليحارب ويحرز الشهرة، وفضل الموت في حرب القوقاز، وقد كانت الحرب هي الهدف الوحيد الذي جاء من أجله إلى القوقاز، وعلى ما يبدو أن عمليات الإبادة والقتل الجماعي التي مارسها الروس في القوقاز لم تترك أي انطباع لدى هذا الشاعر فلم ينتقد هذه العمليات أبداً. وأخيراً كتب «تورناو» الذي رافق إحدى الحملات التأديبية التي قام بها الروس ضد الشيشان: «ويستحق الشيشان كخصوم كل تقدير واحترام ففي وسط غاباتهم وجبالهم لا تستطيع أية قوات أن تحتقرهم، فقد كانوا رماةً مهرة شجعاناً إلى أقصى الحدود، أذكياء في الشؤون العسكرية، كما أنهم سريعون في استغلال الظروف المحلية، وينتهزون فرصة كل خطأ ارتكبناه، ويستثمِرونه بسرعة فائقة من أجل تدميرنا»[١].

وهكذا لم تكن حرب القوقاز الأولى التي خاضها القوقازيون دفاعاً عن

---

(١) راجع مجلة العربي ٤٣٨، أيار/ مايو ١٩٩٥، ص ٣١. مرجع سابق.

أنفسهم فقط، بل كانت في حقيقتها دفاعاً عن العرب والمسلمين، وعن الشرق كله، أما بالنسبة للروس فلم تكن حرباً عادية، بل كانت تحتل في نظرهم مكانة كبرى، وأصبحت الشغل الشاغل لجميع الطبقات الروسية الأرستقراطية حتى صارت تجتذب المغامرين والمنفيين والسجناء، ليهرعوا إلى القوقاز ويحاربوا حباً في الحرب، وهكذا أصبحت بلاد القوقاز حقل تجارب للطبقات الروسية، ومكاناً لممارسة الهوايات العنيفة والشاذة.

الفصل السادس

نسور القوقاز في وجه الزحف الأحمر

في عام ١٩١٤ م بدأت الحرب العالمية الأولى، ووقفت روسيا القيصرية إلى جانب الحلفاء، وقد وجهت ألمانيا لروسيا القيصرية ضربات موجعة أدت إلى هزيمتها في الحرب قبل أن تنتهي رسمياً، وكان الحدث الأهم خلال الحرب هو تمكن الحزب الشيوعي الروسي من الاستيلاء على السلطة في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٧ م، فقد نجح الشيوعيون في استغلال هزيمة روسيا في الحرب، وانتشار قطعاتها العسكرية في جبهات متعددة، واستغلوا كذلك ضعف حكومة «كيرنسكي» وترددها في معالجة الأمور، واستغلوا الفساد الذي كان ينخر كيان الحكم القيصري وكذلك نقمة الشعب الروسي على حكم القياصرة، ونقمة الشعوب، الأخرى التي أُرغمت على الانضمام القسري إلى أمبراطورية القياصرة، فقد كانت روسيا في أواخر أيام القياصرة سجناً كبيراً للشعوب، وأعلن الحكم الشيوعي انسحاب روسيا من الحرب وعقد صلحاً منفرداً مع ألمانيا في ٣ آذار/ مارس ١٩١٨ م، ومنذ الأيام الأولى لقيام الحكم الشيوعي كان عليه أن يواجه حالات خطيرة، فقد أثار الصلح الذي عقده الشيوعيون مع ألمانيا حفيظة الحلفاء، وهُوجمت روسيا من جميع الاتجاهات بقوات مناهضة للشيوعية، تؤازرها قوات الحلفاء. ولما كان الشيوعيون يعلمون مدى ما أجرم القياصرة بحق الروس، وبحق الشعوب غير الروسية، وخاصة سكان القوقاز، وغيرهم من سكان المناطق الإسلامية الأخرى. ولما كانوا، وهذا هو المهم، يريدون توفير ضمانات النجاح لثورتهم، وذلك عن طريق استثارة الشعوب المضطهدة كي يخمدوا أنفاس القيصرية دون رجعة، ولكن مهمتهم لم تكن سهلة في البداية، فمن جهة كان الشعب الروسي متردداً في

دعمهم، بل كان بعضهم من المستفيدين من العهد القيصري البائد يناوىء حكمهم ويجاهر بعدائه لهذا الانقلاب المفاجىء، يضاف إلى ذلك أن الشيوعيين فشلوا في دعوتهم لكسب أفراد الطبقة العاملة في غرب أوروبا فلم يسيروا في ركاب الحكم الجديد، كما كان الشيوعيون يعتقدون. ومن جهة أخرى كان الجنود البيض وهم أنصار القياصرة قد بدأوا يستجمعون قواهم بمعاونة دول الحلفاء، استعداداً للقضاء على الحكم الشيوعي الوليد بقوة السلاح، لذا لم يبق أمام البلاشفة إلا أن يولوا وجوههم شطر مستعمراتهم السابقة في الشرق يلتمسون من شعوبها العون والدعم لحكمهم الضعيف، فلم يكد يمض شهر واحد على استيلائهم على السلطة في روسيا، وبالتحديد في ٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧ م حتى أصدر مجلس قومسيري الشعب البلشفي نداءً إلى شعوب روسيا من المسلمين، يحمل توقيع لينين، قائد الثورة، وقد جاء فيه[١]:

ـ أيها المسلمون في روسيا، أيها التتر على شواطىء الفولجا وفي القرم،
أيها القرغيز والسارتيون في سيبيريا والتركستان،
أيها التتر والأتراك في القوقاز،
أيها التشيشان، أيها الجبليون في أنحاء القوقاز،

أنتم يا من انتهكت حرمات مساجدكم، وقبوركم، واعتُدي على عقائدكم وعاداتكم، وداس القياصرة والطغاة الروس على مقدساتكم:

«ستكون حرية عقائدكم وعاداتكم، وحرية نظمكم القومية ومنظماتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم، لا يطغي عليها طاغ ولا يعتدي عليها معتد!!!

«هبوا إذن فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم، فأنتم أحرار لا يحول بينكم وبين ما تشتهون حائل».

إن ذلك من حقكم إن كنتم فاعلين!!!

واعلموا أن حقوقكم شأنها شأن حقوق سائر أفراد الشعب الروسي تحميها

---

(١) لقراءة النداء بكامله يمكن مراجعة كتاب الشيخ محمد الغزالي «الإسلام في وجه الزحف الأحمر»، ص ١٢٤، وكتاب «أبطال وأباطرة» للدكتور شوكت المفتي، وفي مؤلفات لينين الأعمال الكاملة.

الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة، وبكل ما يتوفر لها من وسائل، جند أشداء ومجالس للعمال ومندوبين عن الفلاحين.

وإذن فشدوا أزر هذه الثورة، وخذوا بساعد حكومتها الشرعية!

أيها المسلمون في الشرق، أيها الفرس والأتراك والعرب والهندوس؛ أنتم جميعاً، يا من وطىء الأوروبيون القراصنة أرضكم، وتاجروا بأرواحكم وأملاككم، وحرياتكم، قرناً بعد قرن، أنتم جميعاً، يا من يحاول اللصوص الذين أشعلوا نار الحرب أن يقتسموا بلادكم بينهم.

اخلعوا عن أعناقكم هؤلاء اللصوص، أولئك الذين يستعبدون أهلكم ويستبيحون دماءكم وأرواحكم. فإن من المستحيل عليكم بعد الآن أن تظلوا قابعين لا تحركون ساكناً، في وقت تهز فيه الحرب عرش النظام القديم، وتشتعل فيه نفوس العالم كلّه حنقاً على الغاصبين المستعمرين، وتمتد فيه شرارة الغضب فتصبح ثورة تأتي على كل شيء «حذار أن تضيِّعوا وقتكم دون أن تلقوا عن كاهلكم نير المستبدين والظالمين الذين استبدوا بكم وبأوطانكم».

إياكم أن تدعوهم يسلبونكم ما أوتيتم من خير بعد اليوم، وعليكم من اليوم أن تشيدوا صرح كيانكم بأنفسكم، وبطريقتكم الخاصة، وفق ما تحبون، وما تختارون، فإن من حقكم أن تفعلوا وإنكم لفاعلون، وها هو مستقبلكم في أيديكم.

أيها الرفاق أيها الأخوة:

«لنتقدم سويّاً في عزم وصلابة نحو سلم عادل ديمقراطي»

إن رايتنا تحمل معها الحرية للشعوب المظلومة في أرجاء العالم

أيها المسلمون في روسيا،

أيها المسلمون في الشرق

«إننا ونحن نسير في الطريق الذي يؤدي بالعالم إلى بعث جديد، نتطلع إليكم لنلتمس عندكم العطف والعون».

وكان «فلاديمير إيليتش لينين» قد أصدر قبل هذا النداء مرسوماً في ١٩١٧/١١/٢٧ م تحت اسم مرسوم التحرير، ويقضي «بأن جميع الأراضي والغابات التي أعلن عنها ملكاً للحكومة القيصرية أثناء غزو القوقاز سترد إلى

الشعوب التي أخذت منها»[1]. وهكذا كثرت الوعود التي أطلقها الشيوعيون. وعندما سمع المسلمون في القوقاز بهذا النداء، وذاك المرسوم، فإنهم لم يضيعوا الفرصة السانحة التي كانوا ينتظرونها، وهبوا من فورهم ينشدون الحياة والحرية لقد أوهت قبضة القياصرة على أعناقهم، وحانت الفرصة الذهبية للنجاة بالعقيدة والنفس والأرض، وسرعان ما عملوا على إعلان دولة مستقلة فانفصل القوقاز بسبب الظروف الدولية إلى شمالي وجنوبي. ففي الجنوب تم إعلان قيام جمهورية ما وراء القوقاز، وسرعان ما تلاشت هذه الدولة ليحل محلها أذربيجان، وأرمينيا، وجورجيا. أما الشركس في شمال القوقاز فقد شكلوا جمهورية ولجنة مركزية لاتحاد شمال القوقاز، وجبال داغستان، وقرروا وحدتهم السياسية، وممثلاً لكل قبيلة ومجلساً للنواب وآخر للأعيان[2] وهيئة عليا. ورئيس منتخب هو الشيخ «أوزون حاجي» عام ١٩١٧ م، وأعلنت هذه الجمهورية استقلالها في ١١ أيار/ مايو ١٩١٨ م باسم دولة القوقاز. وقد اعترفت بهذه الدولة تركيا، وأرسلت جيوشها لدعم هذا الاستقلال الوليد، إلا أن معاهدة «مودرس» التي وقعتها تركيا مع الحلفاء أرغمتها على إخلاء القوقاز، واعترفت بريطانيا بهذه الدولة القوقازية المستقلة شريطة قطع العلاقات القوقازية مع الدولة العثمانية وفتح بلاد القوقاز للجنرال «دينكين»، قائد ما تبقى من الجيوش القيصرية. وحتى حكومة موسكو الحمراء اعترفت على لسان لينين بجمهورية شمال القوقاز، ولكن بعد عام واحد ظهر الجنرال الروسي «دينكين» قائد الروس البيض المعارضين للحكم الشيوعي والمتحالفين مع الحلفاء، وكان هم دينكين الأول ليس محاربة الشيوعيين بل كان قهر القوقاز من جديد، وحارب جمهورية شمال القوقاز حرباً شعواء، وذلك لأنه كان يرى أن الدولة القوقازية الجديدة والمستقلة، والمُعترف باستقلالها أكثر خطورة من الشيوعية ذاتها، وجعل دينكين هدفه الأساسي إجهاض استقلال جمهورية شمال القوقاز. وهكذا دخلت جمهورية القوقاز الوليدة في صراعات عديدة، وأصبحت أرضها مسرحاً للصراع بين «دينكين» قائد جيوش القياصرة،

---

(١) راجع مجلة العربي الكويتية العدد ٤٣٨، أيار/ مايو ١٩٩٥ ص ٣٢ مرجع سابق.

(٢) راجع محاضرة د. عادل عبد السلام في المركز الثقافي، في مدينة حمص، عن قضية الشيشان تموز/ يوليو، ١٩٩٥.

وبين الشيوعيين، والذي لا شك فيه أن البلاشفة قد استفادوا من الحرب بين القوقازيين والروس البيض، وساعدت هذه الحرب على إضعاف الطرفين وتبديد قواهما. ثم خانت القوات الشيوعية المسلمين وتنصلت السلطة الشيوعية من وعودها للمسلمين، بعد أن استتب لها الأمر وأصدر لينين[1] أمراً بالزحف على جمهورية شمال القوقاز، وتم تدمير الدولة القوقازية الناشئة. وبذلك اتضح أن الشيوعيين لم يعترفوا بجمهورية شمال القوقاز إلا كسباً للوقت. وفي ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٠ م قام الشيوعيون بتشكيل جمهورية في شمال القوقاز وتضم ما لا يقل عن سبعة شعوب من: شيشان، وأنغوش، وآستين، وقبارطاي، وشركس، وقراشاي، وبلقار، وأطلق عليها اسم «الجمهورية الجبلية الاشتراكية السوفييتية» وعاصمتها «فلادي قوقاز».

وفي عام ١٩٢٠ م جاء ستالين إلى مدينة «تميرخان» بصفته قومسيراً للقوميات، ووعد الشعب الداغستاني والشعوب الشركسية الأخرى باسم الاتحاد السوفييتي بأنه لن يمس الشريعة الإسلامية بسوء، وسيحترمها، الأمر الذي أقنع ولو مؤقتاً شعوب القوقاز بحسن نوايا السوفييت، وكان من نتائج هذه المحاولة الستالينية إضعاف حركة النضال الإسلامي ضد الشيوعية، ثم قام الشيوعيون بتقسيم القوقاز إلى جمهوريات قومية صغيرة مفككة ذات استقلال ذاتي، حتى تحول دون اتحاد مسلمي القوقاز، وهو الحلم المُفزع الذي تخشاه روسيا الشيوعية، وأصبحت داغستان جمهورية ذات استقلال ذاتي تابعة لروسيا الاتحادية، وأصبح الأنغوش، كذلك، وكذلك صار الشيشان والأوستيين. ثم وحد الشيوعيون كلاً من الشيشان والأنغوش في جمهورية واحدة، ذات استقلال ذاتي، باسم «جمهورية الشيشان والأنغوش الاشتراكية السوفييتية» وذلك في عام ١٩٣٩ م. وهكذا نشأت الجمهوريات السوفييتية المختلفة، وارتبطت بموسكو والحكومة المركزية بموجب المادة «١٤» من الدستور السوفييتي، وهي التي تخول السوفييت المسؤولية عن السياسة الخارجية لجميع الجمهوريات، وعن تعيين حدود كل جمهورية، وعن

---

(١) راجع كتاب: «أبطال وأباطرة»، د. شوكت المفتي مرجع سابق، وكتاب «مأساة إخواننا في الشيشان»، الذي أصدرته لجنة شباب الجمهوريات الإسلامية في روسيا الاتحادية بالندوة العالمية للشباب الإسلامي، أيار/ مايو ١٩٩٦ وهو من إعداد الدكتور «فهد العصيمي» السعودية.

التجارة الخارجية والأمن الداخلي وإدارة البنوك، وسن القوانين. وحاولت الدولة الشيوعية صبغ جميع الشعوب غير الروسية بالصبغة الروسية.

معاناة المسلمين من الحكم الشيوعي:

بادرت السلطة السوفييتية إلى إتباع سياسة «الروسنة»، وذلك عن طريق إسكان الروس بأعداد كبيرة في[1] الجمهوريات التابعة لروسيا، وهي نفس الطريقة التي اتبعها «إيفان الرهيب» مؤسس حكم القياصرة في روسيا، حينما اكتسح إمارات «نوفجورود»، وسيكوف وغيرهما. وقام بنقل سكان المناطق المحيطة بموسكو إلى هاتين الإمارتين، وسكان هاتين الإمارتين إلى منطقة موسكو، كما قام القياصرة الذين تعاقبوا على حكم روسيا باتباع وممارسة نفس السياسة عندما أدخلوا القوزاق بأعداد هائلة إلى القوقاز والأورال وبولونيا وأوكرانيا. وكان هدف القياصرة ومن بعدهم الحكم الشيوعي هو تشكيل خليط من الشعوب في الجمهوريات المختلفة، وفرض الكتابة باللغة الروسية التي أصبحت لغة رسمية لعموم الاتحاد السوفييتي، وبخاصة في مجال المخاطبة الرسمية، الأمر الذي أثار حفيظة سكان القوقاز الذين اضطروا لإعلان الإضراب العام، مطالبين باحترام لغتهم ومنع المواطنين الروس من إجبارهم على التعاطي مع لغة وكتابة غريبتين عنهم. ثم قام الشيوعيون بالقضاء على أكثر من «١٢٠٠» مثقف قوقازي، واعتقلوا الفنانين المرموقين الذين تأثرت أعمالهم بالفلكلور الوطني، والتاريخ البطولي. ثم قام الشيوعيون بسلسلة من الإجراءات الهادفة إلى تذويب الشعوب غير الروسية في البوتقة الروسية، ولعل أهم هذه الإجراءات كما يقول العالم التركستاني «هايت» أن السياسة السوفييتية يمكن تلخيصها بما يلي[2]:

---

(١) كان الروس يتواجدون في الجمهوريات السوفييتية بنسب متفاوتة، ففي ليتوانيا يشكلون ٣٠,٣٪ من مجموع السكان، وفي لاتفيا ٢٣,٨٪ وفي بيلا روسيا ١٣,٢٪ وأوكرانيا ٢٢٪ وليتوانيا ٨,٦٪ وكازاخستان ٣٧٪ وأوزبكستان ٨,٣٪ وتركمانستان ٩,٨٪ وطاجيكستان ٣٠,٥٪ وأرمينيا ٢٪ وجورجيا ٦,٣٪ وأزيرب ٥,٦٪ وقرغيزيا ٢١,٥٪ وهكذا.

(٢) للمزيد من الاطلاع على السياسة الاستعمارية الروسية في المناطق الإسلامية المستعمرة، يمكن مراجعة الشكوى التي تقدم بها الشيخ محمد عبد اللطيف دراز، الوكيل السابق للجامع الأزهر، حيث تقدم بشكوى إلى تريجفلي، الأمين العام للأمم المتحدة شرح فيها =

١ ـ تم اعتقال الزعماء الروحانيين للمسلمين، وأعدم الكثيرون منهم والهدف هو ترك المسلمين بدون شخصيات قيادية، أو دينية مؤهلة.

٢ ـ أغلق الشيوعيون المساجد والمدارس وصودرت أملاك الأوقاف الإسلامية.

٣ ـ نشر الإلحاد في الجامعات والمدارس، ومنع تعليم الشبان على الأسس الإسلامية.

٤ ـ منع المسلمين من ممارسة أركان الإسلام من صلاة وصوم وحج وزكاة بنصوص القانون[1]، وأُلغي القضاء الشرعي.

٥ ـ منع قيام أية علاقات مهما كان نوعها بين المسلمين السوفييت ودول العالم الإسلامي.

٦ ـ منع انتشار الكتب الدينية الإسلامية وإلغاء مدارس المسلمين.

٧ ـ شن حملة إعلامية وبمختلف وسائل الإعلام ضد الدين، وبخاصة الدين الإسلامي.

٨ ـ قام الشيوعيون بمصادرة حرية الشعب الروسي، والشعوب الإسلامية، ومصادرة الحريات العامة «حرية الصحافة وحرية التعبير» والحريات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، وتم مصادرة الملكية الفردية، وتسليط الأجهزة الأمنية على رقاب الروس وغيرهم، وبخاصة المسلمين، وقامت السلطة السوفييتية بانتهاك حقوق الإنسان كافة «حق الحياة ـ حق الحرية ـ حق الإضراب وحق الإنسان في التعبير السلمي عن آرائه» وكافة الحقوق الأخرى. ولم تلتزم بحرف واحد من مواثيق حقوق الإنسان الدولية التي صادقت عليها.

وقصارى القول: إن الإتحاد السوفييتي قد وصل إلى القمر، وقام بغزو ناجح للفضاء، ولكنه حتى عام ١٩٨٥ م لم يكن يسمح بدخول أجهزة الراديو إلى الاتحاد السوفييتي إلا لنوع معين، يقوم على عدم استقبال الإذاعات غير الشيوعية فقط.

= سياسة روسيا من قتل ونفي وتهجير وانتهاك الحقوق، وهي موجودة في كتاب محمد الغزالي «الإسلام في وجه الزحف الأحمر».

(١) راجع الشكوى التي تقدم بها الشيخ محمد عبد اللطيف دراز إلى تريجفلي الأمين العام للأمم المتحدة وهي منشورة بكاملها في كتاب المرحوم الشيخ محمد الغزالي «الإسلام في وجه الزحف الأحمر»، ص ص ١٣٦ ـ ١٤٢.

كان الإنسان داخل الاتحاد السوفييتي لا يراد له إلا الاستماع لما تريده له الدولة فقط. وقد ألف الأستاذ عبد القادر حاتم، وزير الإعلام المصري السابق مجموعة كتب منها كتاب سماه «الرأي العام» وصف فيه النظام الإعلامي في الاتحاد السوفييتي، وسماه: الإعلام من «الباب إلى الباب» فقال: «في المجتمع الشيوعي يجلس الإنسان في بيته وقد علق صورة الزعيم، فإذا خرج إلى الشارع - خرج إلى شارع يحمل اسم الزعيم، فإذا وقف في محطة الباصات، وجد أن المحطة تحمل اسم الزعيم، فإذا وصل إلى المؤسسة، أو الوزارة أو المدرسة، كان أول ما يستقبله تمثال الزعيم، وإذا دخل إلى مكتبه كانت صورة الزعيم فوق رأسه، وأمامه، معلقة، وإذا رجع من نفس الطريق فإنه يرجع مع الزعيم، وبذلك يكون مع الزعيم من الباب إلى الباب وهكذا فرض الشيوعيون عبادة الفرد». ولتكريس هذه العبادة كان لا بدَّ من عملية غسل دماغ الروس، وغير الروس، من المسلمين، وركزوا على هذا التوجه من خلال[1] نشر الكتب الإيديولوجية المختلفة فقد كان الاتحاد السوفييتي يطبع بعدد «٩٧» لغة من اللغات الحية للشعوب، وأكثر ما يُطبع كان من كتب لينين، وماركس، وإنجلز، وخطابات الأمين العام للحزب الشيوعي حيث تبلغ أعدادها بالمليارات، وليس بالملايين. أما الكاتب الروسي «فيكتور كراتشوفسكي» الذي كان عضواً في أول لجنة مركزية للحزب الشيوعي عام ١٩١٧ م، فيرسم لنا صورة حقيقية عن تركيبة الهيئات القيادية العليا في الاتحاد السوفييتي من خلال كتاب أسماه «آثرت الحرية» وقد ألفه بعد أن هرب سنة ١٩٢٤ م إلى الخارج، وآثر الحرية على ما كان يلقاه. وقد اغتيل بسبب هذا الكتاب لأنه كشف بالوقائع والأرقام حجم التغلغل الصهيوني في الهيئات القيادية السوفييتية العليا. أما الكاتب الروسي «نيكلوفسكي» فقد أصدر كتاباً سماه «لا شيء غير الأغلال» وقد ألفه في بداية قيام الثورة الشيوعية، وقد وصف معاناة الشعوب الخاضعة للنير الشيوعي بقوله: «إن في روسيا أربعة عشر مليوناً يقومون بأشق الأعمال، التي لا يطيقها بشر فقد فرضت عليهم السخرة، يحيون كالبهائم في حظائر تحيط بها حواجز مسيجة بالأسلاك الشائكة، ومحروسة حراسة قوية ومحكمة بجنود يرابطون في أبراج عالية لا يفترون ثانية عن المراقبة، وزودت هذه

---

(١) راجع كتاب: «الرأي العام»، تأليف: وزير الإعلام المصري السابق، عبد القادر حاتم.

الأبراج بأنوار كاشفة قوية وتطوف آلاف الكلاب الضارية خارج الأسلاك، فإذا نجا هارب من رصاص الحرس لم ينج من مطاردة الكلاب التي تقطع لحمه»[1].

مأساة الشيشان والأنغوش خلال الحرب العالمية الثانية:

نظراً لأهمية موقع القوقاز من الناحيتين الحربية والاقتصادية فقد تطلعت إليه أنظار الألمان خلال الحرب العالمية الثانية، وعندما تمكن الألمان الذين هاجموا الاتحاد السوفييتي من التوغل في أراضيه واحتلوا أوكرانيا ووصلوا إلى مشارف ستالينغراد، واقتربوا من مدينة «روستوف» أرسلوا جيشاً بقيادة الجنرال «فون كلاسيت» سنة ١٩٤١ م بقصد احتلال القوقاز[2] ووضع يدهم على نفط الشيشان، وبالفعل تمكن الألمان من احتلال بعض مناطق القوقاز بل لقد وصلوا إلى مشارف «غروزني» عاصمة الشيشان، وقد لقي الألمان الكثير من الترحيب من قبل الشركس بصفتهم أعداء الروس. وظن الشراكس أن نهاية الشيوعية قد اقتربت وأن الألمان لا بد منتصرين وأن ساعة الخلاص قد دقت، وأن التحرر من النير الشيوعي قد بات وشيكاً، ولذلك فقد قدموا بعض المساعدات العسكرية والمدنية للألمان، ووجد الألمان في صفوف شعب الشيشان المتذمر والناقم على الشيوعية الكثير من المقاتلين في وحدات الاقتحام ومجموعات العمل خلف الخطوط العسكرية[3] ولكن عاقبة عملهم هذا كانت وخيمة للغاية، وكان هذا العمل مبرراً لأوسع حملة تهجير قسرية طالت الشيشان والأنغوش، وغداة توقف الحرب العالمية الثانية وهزيمة ألمانيا ودول المحور وجه الديكتاتور ستالين إلى الشيشان والأنغوش تهمة الخيانة العظمى، واتخذ القرار التالي[4]:

---

(١) ومن المآسي التي تعرض لها المسلمون في الاتحاد السوفييتي، في الثلاثينيات نشير إلى ما ذكرته مجلة «يو. إس نيوز» عن أوضاع المسلمين حيث أكدت أن واحداً من كل ثلاثة مزارعين مسلمين، في مناطق الكازاك مات في تلك الفترة أثناء تطبيق المزارع الجماعية، وأن أكثر من نصف مليون من المثقفين المسلمين بينهم فقهاء أعدموا أو هاجروا «انظر مجلة العربي مقال عالم المسلمين السوفييت، العدد ٢٤٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٠».

(٢) راجع كتاب: «أبطال وأباطرة»، تأليف: د. شوكت المفتي، مرجع سابق.

(٣) راجع مجلة العربي العدد ٤٣٨، أيار/ مايو ١٩٩٥ ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٤) راجع كتاب: «أبطال وأباطرة» أيضاً للدكتور شوكت المفتي، مرجع سابق.

«إن سكان جمهورية الشيشان والأنغوش سوف يبعدون عن بلادهم، وسوف يجري سوقهم إلى أقاليم بعيدة».

وجرى ذلك فعلاً في يوم الجيش الأحمر عام ١٩٤٤ م، وبالتحديد في ٢٣ شباط/ فبراير حيث قامت السلطات السوفييتية بتجميع السكان بحجة الاحتفال بيوم الجيش الأحمر، وفيما كان سكان الشيشان والأنغوش يرقصون على أنغام الأغنية الشعبية «لقد وهبنا ستالين السرور ونحن أبناؤه» كانت القطعات العسكرية السوفييتية التي أرسلت لتنفيذ قرار التهجير تقوم بتطويق المدن والقرى الشيشانية والأنغوشية، وحاصرت مداخلها ومخارجها، وسلطت فوهات مدافعها الرشاشة على الشعب الذي كان منهمكاً بالاحتفال حاملاً صور الزعماء الشيوعيين، إلا أن الشعب ألقى بصور الزعماء الشيوعيين أرضاً، متحدياً تلك الإجراءات العسكرية، ولكن الجيش أرغمهم قسراً على ركوب السيارات الشاحنة المعدة لهذا الغرض، وأجبرهم على مغادرة بلادهم فوراً، دون إنذار سابق وقد بلغ عدد المهجرين نصف مليون إنسان من أطفال ونساء وشيوخ ورجال، وتم إفراغ «٦٠٦٠» ميلاً مربعاً من الأراضي، وهكذا رحل الشيشان إلى بلاد بعيدة، إلى كازاخستان وسيبيريا، وخلال عملية النقل بالشاحنات قضى عشرات الألوف من الشيشانيين موتاً، ثم قام الروس بفصل الشيشان عن الأنغوش، وحلوا جمهورية الشيشان والأنغوش ذات الحكم الذاتي وقسموا أراضيها بين أوستينا الشمالية، وداغستان، ثم أعاد الروس وحدة هذه الجمهورية «الشيشان والأنغوش» في ٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٧ م.

وبعد موت ستالين سُمح للشيشان بالعودة إلى أراضيهم، ويلاحظ أن بعض الشركس قد نجوا من عملية التهجير والتشريد خلال الحرب الثانية رغم تعاون البعض منهم مع الألمان. والسبب هو أن يهود الشركس شفعوا لهم حين انتهت الحرب الثانية وقام ستالين بتهجير الشيشان والأنغوش. وقد تمكن اليهود من التوسط لدى ستالين لمنع تهجير بعض الشركس، ونجحوا في عملية الوساطة، لأن ستالين وصهره «وبريا»، ومعظم الحكام السوفييت، كانوا خاضعين للنفوذ الصهيوني، وسبب توسط اليهود لهؤلاء الشراكسة أنه خلال الاجتياح النازي للقوقاز قام الشراكسة بإخفاء اليهود، ولذلك قام اليهود بحمايتهم من بطش ستالين بعد انسحاب الألمان.

الثورة الثقافية وحملتها على الإسلام:

في عام ١٩٢٨ م شرعت السلطات السوفييتية بشن حملة شاملة على الإسلام وتعاليمه ورموزه تحت شعار «الثورة الثقافية»، ولعبت رابطة الشبيبة الشيوعية دوراً مهماً في هذا الهجوم الثقافي، وجرى التركيز خلال الثورة على تدمير مفاهيم وتعاليم الإسلام. ومن الافتراءات والأكاذيب الباطلة التي روجها الشيوعيون «أن الإسلام ليس وحياً[١] وأن الرسول محمد ﷺ ليس المؤلف الوحيد للقرآن الكريم، وأن الإسلام أدى إلى تسلط السلاطين والأمراء والأسياد والإقطاعيين». والأخطر من ذلك أن القرآن حسب تلفيقات الثورة الثقافية قد طرأت عليه تغييرات كثيرة بعد وفاة النبي محمد ﷺ، وادعى الشيوعيون في حملتهم الثقافية أن عقائد الإسلام تعكس حالة الملك الخاص، والرأسمال التجاري، وأن هذه العقائد تزرع في الإنسان الخنوع والطاعة والعبودية والتشجيع على عدم المساواة وأن الإسلام يقتل روح المبادرة ويكرس خضوع الفقير للغني، ويمنع الاحتجاج ضد أعمال الاستغلال. ويقتل روح الإبداع، وكذلك التجديد[٢]. ومن سخافات الثورة الثقافية وصف الإله، الذي يعبده المسلمون «بالجبار الرهيب، المتكبر، الذي يطلب الطاعة العمياء له». أما عن الجنة فقال دهاقنة الثورة الثقافية: «وما هذه الجنة في الأرض إلا تتمة لنقمة الطفيليين وميزاتهم الطبقية «بساتين تجري من تحتها الأنهار، وحوريات، وأطعمة شهية، وخمر لا يسكر» وهذا يعني بكلمات أخرى نفس الملذات الحسية التي أوجدتها الطبقات الوسطى على الأرض». وهكذا ينظر

---

(١) قال ماركس: «لا إله والحياة مادة». وقال لينين عام ١٩١٦ م «ليس صحيحاً أن الله هو الذي ينظم الأكوان إنما الصحيح هو أن الله فكرة خرافية اختلقها الإنسان ليبرر عجزه، ولهذا فإن كل من يؤمن بالله إنما هو شخص جاهل وعاجز». وقال لينين: «إن كل فكرة دينية لا بل أن مجرد التفكير بالله دناءة كامنة في النفس». ونشرت صحيفة باكنيكري بابوشي في ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٨ م مقالاً قالت فيه: «لو كان الله موجوداً لما سمح أن ننبذ الدين».

(٢) ومن الأفكار التي نشرها الشيوعيون خلال الثورة الثقافية عام ١٩٥٨ م «إن العقيدة الإسلامية هي القوة المظلمة التي لا تزال تفسد العقول وحياة الشعوب، وتعيق النمو، وتقف في طريق السعادة والنور والمعرفة». وفي خطاب لينين عام ١٩٢٠ م قال: «إن تهذيب الشبان وتعليمهم يجب أن يتوخى تلقيحهم بالأخلاق الشيوعية، ولكن هذه الأخلاق ليست مستمدة من وصايا إلهية لأننا لا نؤمن بالله».

الشيوعيون إلى أن الإسلام هو الرأسمالية المحاربة، وأن سور القرآن الكريم تنم عن روح الرأسمالية المحاربة. وشن الشيوعيون حملات واسعة كذلك لتشويه صورة أبطال الإسلام مثل الإمام شامل، رمز البطولة القومية والدينية، والذي لا تزال ذكراه حية في نفوس المسلمين الشركس وغيرهم. وبداية أضطرت الحكومة السوفييتية إلى تمجيده وتقديره وقد جرب المؤرخون والأدباء السوفييت ولمدة «٣٠» عاماً في محاولات عقيمة لتأويل تعاليم شامل حسب المفاهيم الشيوعية، فذهب بعضهم إلى وصفه بأنه كان مبشراً ورائداً للشيوعية، وتوصلوا في النهاية إلى الاتفاق على أنه كان زعيم حركة ثورية تقدمية وتحررية. ومما يجدر ذكره أن فيلسوف الشيوعية «ماركس» كان معجباً أشد العجب ببطولة شامل. أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد اقتنع زعماء السوفييت بأنهم ارتكبوا خطأً في موقفهم من شامل[1]، وعندما بُحثت قضية الإمام شامل عام ١٩٤٧ م لم يجد السوفييت أية إمكانية لتغيير حكمهم السابق على شخصية شامل التحررية والتقدمية، إلا أنهم في سنة ١٩٥٠ م غيروا رأيهم وأنكروا ما قالوه عن شخصيته الفذة، وأعلنوا أن شاملاً لم يكن بطلاً قومياً، ولا تقدمياً، بل كان عميلاً بريطانياً، أو تركياً، ومُعارضاً لاتحاد شعب داغستان مع روسيا القيصرية. وهكذا احتاروا في أمر هذا الرجل العظيم، ولكن لأسباب سياسية، فقد قرروا أنه عميل ليس إلا، وذلك لاستئصال ذكراه من ضمائر شعوب القوقاز، لأن نضاله وجهاده قد يحفزان شعوب القوقاز للثورة ضدهم مستقبلاً. ومن المؤسف حقاً أن نذكر أن الشاعر الداغستاني الكبير «رسول حمزاتوف» الذي اعتنق الشيوعية كتب قصائد ومقطوعات هجا فيها شامل في مطلع الخمسينيات، وشهد زوراً ضده وألب مواطنيه على سيرة الإمام. وفي عام ١٩٦١ م كتب شعراً يمجد فيه الإمام شامل، وقد برر ذلك «لقد أعماني بريق ذلك الزمان كما تعمي الفتاة الجميلة الشاب الغبي. كنت أنظر إلى كل شيء كما ينظر العريس إلى عروسه لا يرى فيها أدنى[2] عيب. لقد تقرر آنذاك أن شاملاً عميل بريطاني أو تركي كنت أصدق البيت الذي أكد ذلك، وكنت أصدق سيد ذلك

---

(١) راجع كتاب «أبطال وأباطرة» للدكتور شوكت المفتي، مرجع سابق وفيه تفاصيل وافية عن حملة الشيوعيين ضد الإمام شامل.

(٢) راجع كتاب «داغستان بلدي» للشاعر رسول حمزاتوف، مرجع سابق.

البيت.. والآن من جديد يعود الجرح القديم الذي لم يلتئم ليمزق قلبي ويحرقه بناره». إن هذا التناقض في مواقف الشاعر الكبير رسول حمزاتوف لا يليق به، وبدا وبوضوح تام أن حمزاتوف كان ولا يزال عبداً للسلطة وأضعف من أن يتخذ موقفاً جريئاً وصحيحاً، فقد هجا الإمام شامل لأن السلطة السوفييتية طلبت منه ذلك، ولم يكن بإمكانه أن يرفض للشيوعيين طلباً. وبعد سنوات ضعُف تركيز السوفييت على الإمام شامل واعتقدوا أن ذكراه قد اندثرت، ولم يبق لها أي أثر في نفوس الشركس، وأن الشركس عاجزون عن الإتيان بأدنى حركة تقضُّ مضاجع السلطة، لذلك لم يعاقبوا رسول حمزاتوف عندما استعاد وعيه، وأعاد الاعتبار لشامل، واعترف بجريمته في هجاء شامل، وفي تصديق تلفيقات السوفييت وأكاذيبهم.

وختاماً نقول: هكذا كان حال المسلمين في القوقاز، وفي غيرها من المناطق السوفييتية، ولكن والحق يقال أنهم صمدوا صموداً أسطورياً أمام كل هذا الجبروت والطغيان، وأمام القمع الهمجي الوحشي الذي تعرضوا له حتى أن الأجيال القادمة ستستحي وتخجل من مدنيتنا الحديثة المعاصرة عندما تتذكر تلك الأعمال القمعية، وتلك الظروف القاسية التي عاشها المسلمون في ظل الحكم الشيوعي. لقد داس الشيوعيون بأقدامهم الهمجية على كل ما قدسته[1] الإنسانية منذ القدم، وهدموا القيم الإنسانية، وانتهكوا أبسط حقوق الإنسان، وفرضوا ستاراً حديدياً على الروس، وعلى جميع الشعوب التي أخضعوها بقوة الحديد والنار. ولكن الله جلَّت قدرته كان لهم بالمرصاد، بعد أن أعرضوا عن ذكره فترة تزيد عن السبعين عاماً، فقضى بتقويض أركان حكمهم الذي تهاوى وسقط وكأنه مصنوع من كرتون، وذلك جزاءً لهم على ما اقترفوا من آثام ومن جرائم، وأيَّد الله المسلمين بنصره، وأسقط الجبابرة، ويمكن تفسير ذلك الانهيار بآية واحدة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[2].

---

(١) ورد في مجلة العربي عدد ٢٥٤ كانون الثاني/يناير ١٩٨٠ م أن من الأرقام المتداولة في الكتابات غير السوفييتية أن ٢٤ ألف مسجد كانت مقامة في مناطق المسلمين حتى قيام الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ م، وأن أعداد هذه المساجد ظلت تتقلص حتى وصلت إلى «١٢٠٠» مسجد سنة ١٩٦٠ م، ثم ٣٠٠ فقط عام ١٩٨٠ م.

(٢) سورة طه «١٢٤».

الفصل السابع

الانهيار الكبير: أسبابه ونتائجه[1]

في ١١ آذار/ مارس ١٩١٨ م وصل قطار من فنلندا يقلّ فلاديمير إيليتش لينين قائد الثورة الشيوعية في روسيا، إلى محطة «بطرسبورغ». وفي اليوم التالي ١٢ آذار/ مارس أُعلنت موسكو عاصمة لروسيا الاشتراكية، وبدأت عملية بناء الامبراطورية السوفييتية، ومن غريب الصدف أن يكون يوم ١٢ آذار/ مارس ١٩٨٥ م هو اليوم الذي بدأت فيه عملية تقويض أركان هذه الامبراطورية. ففي ذلك اليوم انتخب «ميخائيل غورباتشوف أميناً عاماً للحزب الشيوعي، على أثر وفاة «قسطنطين تشيرنينكو» وكان صوت «أندريه غروميكو» الصوت المُرجح والحاسم في انتخاب غورباتشوف، ويعتقد الباحثون داخل الاتحاد السوفييتي، وخارجه، أن وصول غورباتشوف إلى زعامة الامبراطورية السوفييتية لم يأت مصادفة، وإنما بتدبير محكم، وبموجب خطة محكمة ومبرمجة استغرقت وقتاً طويلاً وضعتها المخابرات الأمريكية والدوائر الصهيونية. بينما يعتبر آخرون أن المخابرات الأمريكية لم تكن لتخترق سوى بناء هش مليء بالثغرات ونقاط الضعف. وكانت «البيريسترويكا» أو إعادة البناء دعوة غورباتشوف الكبرى التي طرحها في نيسان/ إبريل ١٩٨٥ م، بعد شهر واحد من وصوله إلى قمة الدولة، واعتقد البعض أن «البيريسترويكا» وعبارته المشهورة «الفلاستنست» أي الانفتاح، أو العلنية، هي المرحلة التالية في التاريخ الاشتراكي الثوري، فانضووا تحت لوائها، وتحمسوا لها وخلال ثلاث سنوات لجأ غورباتشوف إلى المزاوجة بين نقد التجربة الاشتراكية والتمسك بها، وأكد

---

(١) اعتمدت في كتابة هذا الفصل على مجموعة كبيرة من الصحف العربية، وذلك لعدم توافر أي مرجع موثق في المكتبة العربية بحسب علمي. وقد تطلب ذلك جهداً كبيراً.

غورباتشوف أن انتقاده للتجربة الاشتراكية وكشف أزماتها لا يعني أنه يرغب في تقويضها، بل يرغب في تطويرها نحو الأحسن والأفضل. وأكد المرة تلو المرة أن الإصلاحات التي ينشدها تنطلق أساساً، وفقاً للخيار الاشتراكي. وفي مجال السياسة الخارجية طرح غورباتشوف قضية أساسية في العلاقات الدولية، وهي ضرورة إنهاء الحرب الباردة بين موسكو وواشنطن، تحت شعار أن العالم مهدد بكارثة نووية، وبالتالي لا بد من المصالحة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، لتجنب الكارثة النووية. وشرع غورباتشوف يقدم التنازل تلو التنازل في مجال التسليح وفك عرى حلف وارسو، والقبول بوحدة ألمانيا وسحب القوات السوفييتية من بلدان أوروبا الشرقية، تاركاً لها الحرية في اختيار نظامها السياسي، وأكد في كتابه «العقلية الجديدة» استعداده لتقديم المزيد من التنازلات بلا حدود، وضرب مثالاً بصلح «بريست» الذي عقده لينين مع ألمانيا في آذار/ مارس ١٩١٨، بعد انسحاب الروس من الحرب العالمية الأولى. ومعروف أن لينين قد عقد ذلك الصلح بشروط قاسية ومُهينة، وعلق غورباتشوف على ذلك بقوله: «ونفس الشيء من البيريسترويكا» ولم ينتبه أحد في حينه إلى ما كتبه غورباتشوف بنفسه بخصوص الموقف السوفييتي من الشرق الأوسط وقضية الصراع العربي الإسرائيلي، حيث أكد أنه من الضروري أن نجد قاسماً مشتركاً بين مصالح العرب وإسرائيل. وعلى ذلك فنحن لا نريد بأية حال أن تؤدي عملية وضع تسوية للمشكلة إلى المساس بأي شكل بمصالح الغرب وأمريكا. وكان ذلك انسحاباً واضحاً من الشرق الأوسط، وغيره، من مناطق الصراعات الأخرى. وفي الداخل رفع غورباتشوف شعار الانفتاح، ونادى بالعودة إلى متطلبات السوق الاقتصادية مع التنويه والتذكير الدائم بخطة لينين السياسية والاقتصادية الجديدة التي أعلنها عام ١٩٢١، وشعار الديمقراطية والتعددية. ويبدو واضحاً أن غورباتشوف كان يخفي تحت معطفه المزركش والملون بالعبارات الاشتراكية إحساساً بالهزيمة. واستمر غورباتشوف بتقديم التنازلات على المستويين الداخلي والخارجي حتى أفرغ كل ما في جعبته، وحتى انتهى به الأمر من زعيم أقوى دولة في العالم على الأقل من الناحية العسكرية، إلى مجرد مهرج ترتج وجنتاه مبتسماً وهو يلتهم قطعة «هامبورغر» في إعلان تلفزيوني رخيص!!

والسؤال الآن ما هي العوامل التي ساعدت غورباتشوف على تقويض أركان أمبراطورية الشر؟ لقد تناول الباحثون هذه العوامل بالدراسة والبحث، وحاولوا تعليل هذا الانهيار المفاجيء الذي أذهل حتى أولئك الذين كانوا يعولون على التجربة السوفييتية، ويعدونها مثالاً يحتذى، ويمكن تطبيقه وتعميمه في مجتمعات أخرى من العالم. فمنهم من عزا هذا الانهيار إلى الصراع الفكري والإيديولوجي بين نظريتين. ومنهم من ذكر أسباباً أخرى حاول من خلالها أن يشير إلى فشل التجربة الاشتراكية نتيجة الانحراف عن الطريق السليم لتطبيق هذه التجربة. وبغض النظر عن مدى صحة تلك الدراسات فإن جوانب عديدة لم يتطرق إليها الدارسون مع العلم أن تلك الجوانب لعبت دوراً أساسياً في انهيار الاتحاد السوفييتي، وفي مقدمة تلك الجوانب:

١ ـ إهمال المسألة القومية: لقد بقيت هذه المسألة مهملة ودون علاج. فقد كان الاتحاد السوفييتي يضم أكثر من مائة قومية، وعلى الرغم من تأكيدات لينين في ما أطلق عليه «المجلدات» على ضرورة إيجاد حل عادل للمسألة القومية، إلا أنه وبمرور السنوات وتعاقب القيادات السوفييتية، كانت القضية القومية شبه مُهملة بل إن هناك قوميات صغيرة ومتعددة، عانت من الاضطهاد، كما حدث للشيشان والأنغوش، وغيرهما، حيث تم تهجير هذه الشعوب بكاملها إلى كازاخستان، وسيبيريا من مواطنها الأصلية في القوقاز تحت ذرائع شتى، منها تعاون هذه الأقليات القومية مع النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية. وكذلك فإن القومية الروسية طغت على كل القوميات الأخرى، وأصبح شبه تقليد أن يكون الأمين العام للحزب الشيوعي، وهو أعلى منصب قيادي في روسيا روسياً، أو من أوكرانيا بعد التجربة المريرة التي أوصلت ستالين. وهو من أصل جورجي إلى منصب الأمين العام للحزب الشيوعي، وما أعقب ذلك من تصفيات دموية طالت العديد من قياديي الحزب، حتى أن «نيكيتا خروشوف» أحد قادة الحزب الشيوعي قال مرة: «إنه كان يودع أطفاله وعائلته في كل مرة يدعوه فيها ستالين إلى حضور اجتماع لقيادة الحزب»[1].

---

(١) انظر مقال كاظم نوري في جريدة الشرق الأوسط، عدد ١٠/ ١/ ١٩٩٧، وهو كاتب عراقي مقيم في لندن.

٢ ـ قيام السلطة السوفييتية بانتهاك حقوق الإنسان «حق الحياة، حق التملك، وحق حرية التعبير، وحق حرية الاعتقاد» مما ولّد نقمة عارمة لدى سكان الاتحاد السوفييتي على اختلاف نزعاتهم وقومياتهم ودياناتهم.

٣ ـ الوضع الاقتصادي المتردي والديون الهائلة التي ترتبت على الاتحاد السوفييتي، الذي كان يعد في مقدمة البلدان التي تزخر بالثروات الطبيعية «النفط والغاز، والذهب، والفحم، والحديد» وكذلك تدمير الزراعة السوفييتية، وهبوط إنتاج الحبوب من «٢٤٠» مليون طن عام ١٩٧٨ م، إلى ١٩٥ مليون طن عام ١٩٨٩ م، مما اضطر السوفييت إلى إنفاق ٢٨٨ مليار فرنك فرنسي لشراء المنتوجات[١] الغذائية من الخارج، بين أعوام ١٩٨٦ ـ ١٩٨٩ م.

٤ ـ إصرار الولايات المتحدة الأمريكية، وعن حقد، على ابتكار برامج تسليحية مُكلفة للغاية في إطار محاولاتها للتفوق على الاتحاد السوفييتي، وجرّه إلى لعبة سباق التسلح على حساب الوضع الاقتصادي المتردي أصلاً، مما أوصل البلاد إلى حالة الإفلاس من جراء الهرولة لمواكبة برامج الولايات المتحدة التسليحية، وهكذا وقعت موسكو في المصيدة القاتلة. واضطر السوفييت لتعديل سلم أولوياتهم فوضعوا سباق التسلح في المرتبة الأولى، بدلاً من خطط البناء الاقتصادي والاجتماعي. وما زلنا نذكر برنامج حرب النجوم، أو ما يسمى مبادرة الدفاع الاستراتيجي، التي أطلقها الرئيس الأمريكي «ريغان» عام ١٩٨١ م. فمنذ أن أطلق ريغان هذه المبادرة أخذ السوفييت يعملون على التصدي لهذه المبادرة، ومنافسة أمريكا. وأخذ إنفاقهم العسكري[٢] بالتزايد حتى بلغ ٣٠٪ من إجمالي الناتج القومي السوفييتي. وهكذا انهمك السوفييت في سباق التسلح على أساس التصدي للمشروع الأمريكي. وبسبب هذا التصدي استُنزفت مواردهم المالية، وأدى ذلك إلى القصور والعجز الواضح في عدم قدرة السوفييت على الإنفاق على

---

(١) راجع كتاب: «بلقنة العالم، النظام الجديد وتقسيم الكون»، تأليف إيف ماري لولان، ترجمة أديب هـ. الفاضل، دار الفاضل الطبعة الأولى ١٩٩٣، ص ٢٣ وما بعدها، وص ٨٣ وما بعدها.

(٢) راجع مجلة العربي الكويتية، مقال د. هيثم الكيلاني: حين انتهت الحرب العالمية الثانية، العدد ٤٣٠، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٤، ص ص ٢٨ ـ ٣١.

البحث العلمي والتقني في القطاعات غير العسكرية، وإلى ضعف العناية بالصناعات المتوسطة، وفي مقدمتها الصناعات الغذائية والاستهلاكية وتلبية الحاجات الأساسية للناس. وهكذا وفي مطلع التسعينيات ظهر الاتحاد السوفييتي عاجزاً عن مواصلة توظيف عوامل قوته في تأمين شؤون حياة المجتمع السوفييتي، فتفاقمت الأزمات الاقتصادية، وبرزت مشكلة القوميات، والصراعات السياسية والإيديولوجية حتى برز شبح المجاعة دليلاً على بدء انهيار بنية الاقتصاد السوفييتي.

٥ ـ ساهمت الالتزامات الخارجية المادية التي تعهد الاتحاد السوفييتي بتقديمها للحركات والأحزاب الشيوعية في العالم في خواء الخزينة السوفييتية، وأصبح الاتحاد السوفييتي مديناً ينوء تحت وطأة الديون الهائلة، مما اضطره إلى بيع كميات الذهب الموجودة لديه في محاولة لمعالجة الأوضاع الاقتصادية، إلا أن تلك المحاولة جاءت متأخرة وسبقت انهيار الاتحاد السوفييتي ببضعة شهور فقط.

٦ ـ ساهم الحصار الاقتصادي الغربي في تآكل المشروع الغذائي للدولة السوفييتية، والتي أصبحت دولة مدينة، فالغذاء كما يصفه البعض بأنه أخطر وأقوى حتى من القنابل. ويعتقد بعض الباحثين أن سلاح الغذاء كان العامل الأساسي في انهيار الاتحاد السوفييتي وانبثاق النظام السائد حالياً.

هذه العوامل وغيرها ساعدت غورباتشوف في عملية تقويض الدولة السوفييتية ومهدت الطريق أمام ظهور يلتسين.

البيريسترويكا والتمهيد لظهور يلتسين:

«منذ أن بدأ غورباتشوف سياسة الانفتاح في نيسان/ أبريل ١٩٨٥ م، ارتفعت الأصوات في كل أنحاء الاتحاد السوفييتي تنادي بحرية الكلام، وحرية التعبير عن الرأي، وإلغاء الرقابة، ورفع القيود عنهما. وبدأت الجمهوريات تُطالب بالاستقلال والانفصال عن الاتحاد السوفييتي، وأصبح المواطنون يطالبون بتعدد الأحزاب. وعلى الفور ظهرت في المجتمع السوفييتي أحزاب سياسية يزيد عددها عن «٣١» ألف حزب، وحدث انقسام بين الزعماء السوفييت وظهرت فئات عديدة لكل منها رأيه الخاص في تحديد مواصفات نوع النظام المطلوب إحلاله محل النظام الشيوعي المهترىء والمتآكل وركزت معظم الأحزاب والفئات على أن

الديمقراطية هي النظام الأفضل لأنها الأقدر على حل مشكلات المجتمع السوفييتي. ولكن حتى الأحزاب المُطالبة بالديمقراطية انقسمت إلى جماعات وبرز في الميدان زعماء معارضون لغورباتشوف وظهرت أحزاب قومية متطرفة وحتى أحزاب فاشية وعنصرية؛ وهكذا دخلت روسيا في عصر الفوضى وشهدت ظروفاً لم تشهدها الدولة الروسية منذ قيامها في القرن التاسع الميلادي وحتى مطلع التسعينيات من هذا القرن. وبدأت الدولة الروسية تفقد كل ما بنته خلال مراحل وجودها، وقد قدر لتلك الانهيارات وتلك الفوضى العارمة أن ترتبط باسم بوريس يلتسين:

شخصية بوريس يلتسين ودوره في انهيار الاتحاد السوفييتي:

ولد بوريس يلتسين في الأول من شباط/ فبراير عام ١٩٣١ م بقرية «بوتكا» بمنطقة «تاليتسا»، في مقاطعة «سفير دلوفسك»، في إقليم الأورال، لعائلة من الفلاحين الفقراء. وما تزال آثار نشأة يلتسين بادية للعيان فقد كانت والدته تحيك الملابس للأغنياء، بينما عمل والده في مصنع للبوتاسيوم في مدينة «بيريزنيكي» النائية، مما جعل يلتسين يعاني من شظف الحياة العقلية، والمادية معاً، الأمر الذي حرمه من التطلعات الذهنية. ودفعه بعد أن أنهى تعليمه عام ١٩٤٩ م في مدرسة ثانوية، للانتساب إلى كلية البناء بمعهد متوسط في «الأورال»، وبعد أن حصل على شهادته المتواضعة عام ١٩٥٥ م بدأ حياته العملية رئيساً لإحدى فرق العمال بإحدى وحدات البناء، ثم التحق بالحزب الشيوعي السوفييتي عام ١٩٦١ م، ومضى يرتقي سلم الحزب حتى انتقل إلى العمل في موسكو في نيسان/ إبريل ١٩٨٥ م بمبادرة من ميخائيل غورباتشوف. الذي أعلن برنامجه «البيريسترويكا» في الشهر نفسه. وكان تعيين غورباتشوف ليلتسين سكرتيراً أول للجنة العاصمة موسكو الحزبية مفاجأة للجميع، وظل في منصبه هذا حتى ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٧ م. ومع كل ما أشيع عن خلاف بينه وبين غورباتشوف إلا أن غورباتشوف هو الذي دفعه أثناء الخلافات إلى أعلى المناصب، وعندما وجه يلتسين رسالة لغورباتشوف في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٧ م يطلب فيها عزله من مناصبه كلها احتجاجاً منه على بطء البيريسترويكا في تحقيق الإصلاحات، قام غورباتشوف بانتقاد يلتسين في ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٧ م أمام الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب. ولكن ذلك الانتقاد لم يمنع غورباتشوف من ترفيع يلتسين إلى مرتبة وزير في لجنة الدولة

أضواء على شخصية يلتسين

يشرب خلال حفل . . .

ويلعب مع التتار خلال الانتخابات أيضاً

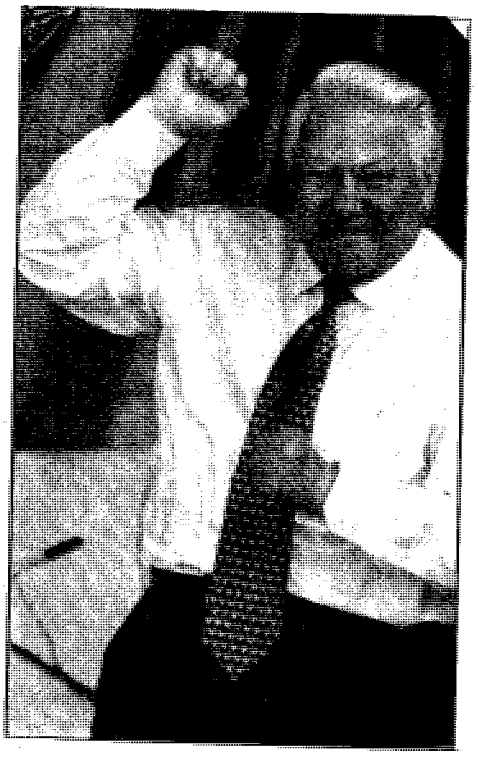

ويرقص خلال الانتخابات

«نقلاً عن جريدة الاتحاد الظبيانية»
والصور مأخوذة من كتاب «الصعود والانحدار من القمة»
تأليف الجنرال الروسي «ألكسندر كورجاكوف»

السوفييتية للبناء، حيث ظل في ذلك الموقع حتى عام ١٩٨٩ م. وهذا التاريخ الشخصي ليلتسين الذي لا يتميز بشيء خاص هو الذي دفع عضو المجلس الرئاسي «أليكسي كازانيك» إلى القول في أيار/ مايو ١٩٩٥ م: «إن الرئيس الروسي لا يمكن أن يرقى إلى أكثر من مستوى رئيس فرع لأحد الأحزاب في إحدى المحافظات الروسية»[١]. وعلى أية حال فقد قدر لأهم الأحداث في روسيا أن ترتبط باسم يلتسين بعد أن رشح نفسه في أيار/ مايو ١٩٩٠ م لمنصب رئيس مجلس السوفييت الأعلى لروسيا، وفاز بالمنصب الهام. وفي ١٢ تموز/ يوليو ١٩٩٠ م أعلن يلتسين انسحابه من الحزب الشيوعي السوفييتي في المؤتمر الثامن عشر للحزب، وفي نيسان/ أبريل ١٩٩١ م أسفر استفتاء عام في روسيا عن موافقة أغلبية المواطنين على استحداث منصب رئيس لجمهورية روسيا. وفي ١٢ حزيران/ يونيو ١٩٩١ م فاز يلتسين في الانتخابات بمنصب رئيس روسيا. وصوت لصالحه ٥٧,٣٪، وأقسم على وثيقتين: الدستور الروسي، وبيان استقلال روسيا. وألقى بعد انتخابه كلمة أكد فيها أن الشعب لم ينتخب رئيساً فحسب بل «انتخب أولاً وقبل كل شيء الطريق الذي ينبغي لروسيا أن تسلكه». وقد تمت تلك القفزة النوعية للدور السياسي ليلتسين في إطار وجود الاتحاد السوفييتي، ووجود روسيا كجزء منه. وفي تلك المرحلة كانت القضية الأساسية المطروحة في الاتحاد السوفييتي هي توقيع معاهدة اتحادية جديدة بين المركز السوفييتي والدول السوفييتية تقضي بمنح تلك الدول المزيد من الحرية والاستقلالية داخل إطار الدولة الاتحادية، ولكن وكما هو معروف فإن التوقيع على تلك المعاهدة كان يؤجَّل باستمرار بحجج وذرائع مختلفة، وكان آخر ميعاد للتوقيع هو «٢٠» آب/ أغسطس ١٩٩١ م، ولكن انقلاب آب/ أغسطس تم قبل يوم واحد من موعد توقيع المعاهدة، وفتح الطريق لانهيار الدولة السوفييتية بكاملها. وقد ظل الانقلاب لغزاً، وكثرت الآراء حوله. ولكن في ٢ حزيران/ يونيو ١٩٩٤ م نشرت صحيفتا «سيفودنيا» و «برافدا» وثائق تثبت الدور الخاص للمخابرات الأمريكية في الانقلاب، نقلاً عن صحيفة «أطلانتيك مانثلي» التي نشر فيها الصحفي الأمريكي «سيمور هيرش» مقالاً جاء فيه: «إن وليام أودوم

---

(١) راجع جريدة الاتحاد الظبيانية، دراسة د. أحمد الخميسي، الاتحاد في أرض القتال، عدد الخميس ١٤ ربيع الأول ١٤١٦ هـ الموافق ١٠ آب/ أغسطس ١٩٩٥ م.

مدير المخابرات السابق صرح بأن كل ما توافر للمخابرات الأمريكية في فترة الانقلاب كان تحت تصرف يلتسين، وأن المخابرات الأمريكية كانت تلتقط مكالمات الانقلابيين وتنقلها على الفور إلى يلتسين، وعلى الرغم من أن الانقلاب يظل لغزاً إلا أنه ساهم وبشكل سافر في تزايد وتعاظم دور يلتسين وانتقاله من مجرد رئيس لروسيا السوفييتية إلى رئيس لروسيا، باعتبارها وريثة الدولة الكبرى التي اختفت. وتضاعفت صلاحيات يلتسين بعد أن استغل الانقلاب الذي قام ما بين ١٩ أب/ أغسطس عام ١٩٩١ م وحتى ٢٤ آب/ أغسطس، وقام بإصدار أربعة وعشرين مرسوماً عزل فيها قيادات الجيش وعيَّن قيادات موالية له، ووضع تحت إشرافه المباشر لجنة أمن الدولة، والداخلية، ووزارة الدفاع، وكل المواقع الحساسة. وكان آخر مرسوم أصدره يلتسين في ٢٤ آب/ أغسطس ١٩٩١ م والذي يمثل مفاجأة حقيقية إذ اعترف يلتسين باستقلال جمهوريات البلطيق الثلاث، مُنهياً من الناحية الفعلية وجود الدولة السوفييتية بحدودها السابقة، وفي ٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ م افتتحت الدورة الطارئة لمؤتمر نواب الشعب السوفييتي للمرة الأخيرة وتقرر فيها حل هيئات السلطة الاتحادية وفي ٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١ م التقى يلتسين بالرئيسين السابقين لأوكرانيا، وبيلاروسيا: «كرافتشوك» و«شوشكوفيتش» في محمية «بيلافوجسكايا» للإعلان عن حلِّ الاتحاد السوفييتي وقيام رابطة ثلاثية سرعان ما اتسعت عضويتها للدول السوفييتية السابقة، وتم ذلك في ٢١/١٢/١٩٩١ م. وهكذا قامت رابطة دول الكومنولث المستقلة، وذلك بموجب بروتوكول «المآآتا» عاصمة كازاخستان. وفي ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١ م استقال غورباتشوف وسلم الحقيبة الخاصة بالسلاح النووي للرئيس الصاعد بوريس يلتسين، وأصبحت السياسة الدولية حكراً على يلتسين، الذي تعملقت قامته بالتدريج، ومع ذلك فإن الغرب، كان ولا يزال يرى جيداً نواقص يلتسين، وقد وصف المؤلفان الأمريكيان «فلاديمير سولوفيوف» و«يلينا كليبكوفا» من أصل روسي موقف الغرب من يلتسين في كتابهما: «يلتسين والتقلبات السياسية» بقولهما: «اعتاد الغرب أن ينظر إلى يلتسين باعتباره زعيماً من الوزن الخفيف عقلياً، وثقافياً، خاصة أنه اشتهر بالفظاظة والحدة، وسرعة الانفعال، والمغامرة، وقد حاولت أجهزة الدعاية المحيطة بالرئيس تعميم صورته وسط

الشعب بصفته رجلاً عائلياً، يهوى رياضة التنس والسباحة، ويعيش في وفاق أسري مع ابنتيه «يلينا» ٤٠ سنة، «وتاتانيا» ٣٨ سنة، وزوجته اليهودية «نائينا يوسوفوفنا». ولكن معاقرة الخمر ظلّت من النقائص التي تطارد يلتسين في كل مكان، وذاع أمرها وانتقلت إلى المحافل الدولية في الخارج حينما كان الرئيس عائداً من زيارة أمريكا فعرج على «إيسلاندا»، ولكنه لم يستطع الخروج من الطائرة لملاقاة رئيس الوزراء الذي ظل واقفاً في البرد يفرك يديه مرتبكاً، ثم كان مشهد الرئيس خلال زيارته إلى ألمانيا أواخر ١٩٩٤ م، ووقوفه على مسرح ألماني يقود الأوركسترا متطوحاً، وقد فقد اتزانه. ثم المشهد الذي كاد فيه الرئيس أن يسقط مترنحاً وهو يهبط من طائرته لحضور اجتماع رابطة الدول[1] المستقلة في ١٠ شباط/ فبراير ١٩٩٥ م في «ألماآتا». وقد أدى الإدمان لمرض الرئيس المتكرر، ورقاده بالمستشفى، مرة أوائل عام ١٩٩٣ م، ومرة أخرى في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ م عشية إعلان الحرب على الشيشان، وقيل إنه أجرى عملية لأنفه. ثم رقد مرة أخرى في تموز/ يوليو ١٩٩٥ م، بسبب لغط في القلب. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٦ م خضع لعملية خطيرة في القلب اضطر بعدها إلى نقاهة طويلة. بقي أن نذكر أن الدول التي استقلت عن روسيا بعد أن انفرد يلتسين بالسلطة يبلغ عددها «١٥» جمهورية، وفيما يلي جدول يبين أسماء الجمهوريات التي استقلت وأسماء عواصمها، وعدد سكان كل منها، وجدول آخر يبين الجمهوريات ذات الحكم الذاتي في القوقاز.

---

(١) راجع كتاب «الصعود والانحدار من القمة» تأليف الجنرال الروسي «ألكسندر كورجاكوف» الذي رافق يلتسين أحد عشر عاماً، وفي هذا الكتاب هتك كورجاكوف أسرار يلتسين، ومن طريف ما أورده الكاتب أنه في ١٨ آب/ أغسطس ١٩٩١ م قام يلتسين بزيارة كازاخستان، وهناك أقيمت له حفلة غنائية فراح يلتسين يرافق الراقصات بدقات من قدميه ثم تناول ملعقة وراح يقرع بها على إيقاع الموسيقى رأس زايجانوف مدير الإدارة الاقتصادية، وضج الجمهور بضحك مستمر وكرر يلتسين رقصة الملاعق مع رأس الرئيس القرغيزي الأصلع «عسكر اكاييف» وبعدها أصبح القادة يتجنبون الجلوس بالقرب من يلتسين في الحفلات الغنائية.

الجمهوريات التي استقلت عن الاتحاد السوفييتي

الرقم	اسم الجمهورية	اسم العاصمة	عدد السكان	ملاحظات
			بالمليون نسمة	
١	روسيا الاتحادية	موسكو	١٥٠ مليون	
٢	أوكرانيا	كييف	٥١,٨٣٩ مليون	
٣	روسيا البيضاء «بيلاروسيا»	مينسك	١٠,٢٥٩ مليون	
٤	كازاخستان	ألماآتا	١٧,٢٤٢ مليون	ذات أغلبية مسلمة ١٠ ـ ١٥٪ روس
٥	أوزبكستان	طشقند	٢١,٨٧١ مليون	ذات أغلبية مسلمة ١٠ ـ ١٥٪ روس
٦	أذربيجان	باكو	٧,٣٨٣ مليون	ذات أغلبية مسلمة ١٠ ـ ١٥٪ روس
٧	طاجكستان	دوشنبي	٥,٧٤٨ مليون	ذات أغلبية مسلمة
٨	جورجيا	تفليس	٥,٤٥٦ مليون	ذات أغلبية مسلمة
٩	قرغزستان	موشبك	٤,٦١٢ مليون	ذات أغلبية مسلمة ١٠ ـ ١٥٪ روس
١٠	مولدافيا	كيشينسيف	٤,٣٦٢ مليون	
١١	تركمانيا	آشقاباد	٣,٩٠٨ مليون	ذات أغلبية مسلمة ١٠ ـ ١٥٪ روس
١٢	ليتوانيا	فيلنيوس	٣,٧٣٢ مليون	
١٣	إرمينيا	يريفان	٣,٢٩٣ مليون	
١٤	لاتفيا	ريغا	٢,٦٨٧ مليون	
١٥	استونيا	تالين	١,٨٥٣ مليون	

«الجمهوريات ذات الحكم الذاتي في القوقاز»

١	داغستان	مخاتشقالا	حوالي ٣ ملايين	ذات أغلبية مسلمة
٢	الشيشان ـ أنغوش	غروزني	١,٥ مليون	ذات أغلبية مسلمة
٣	قبردينو بلقار	نالتشك	حوالي ٨٠٠ ألف	ذات أغلبية مسلمة
٤	قرشاي ـ تشركس	تشركسيا	حوالي ٥٠٠ ألف	ذات أغلبية مسلمة
٥	الأبخاز	سوخومي	حوالي ٤٠٠ ألف	ثلث السكان مسلمين
٦	آديغي	مايكوب	حوالي ٤٠٠ ألف	نصف السكان مسلمين
٧	آسيتيا الشمالية	مزدوك	حوالي ٣٠٠ ألف	ربع السكان مسلمين

وهناك جمهوريات أخرى صغيرة ذات حكم ذاتي في مناطق مختلفة في شرقي روسيا ووسطها، وأهمها تتارستان، وعاصمتها «قازان»، وجمهورية «بتكيريا» وعاصمتها «أوفا»، وجمهورية الشوفاش وعاصمتها «شيكوراس» ويبلغ عدد هذه الجمهوريات ٨٨ جمهورية. وهكذا وبعد أن شقَّ يلتسين طريقه نحو قمة السلطة في روسيا وانفرد بالحكم أعلن عن برنامجه لتحقيق الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وإشاعة روح الديمقراطية في روسيا، التي لم تعرف منذ نشوئها أية صورة من صور الديمقراطية. ولم تكن مهمته عادية أو سهلة، فقد كان عليه العمل على تحويل روسيا من بلد شمولي قمعي إلى بلد ديمقراطي، ومن دولة يسيطر فيها القطاع العام على كل شيء إلى دولة ليبرالية تعتمد على اقتصاد السوق. وكانت المهمة الأصعب هي تحويل القطاع العام إلى القطاع الخاص، وهذه المهمة عسيرة جداً، ويفترض في القائمين بها أن يتحلوا بالإخلاص والنزاهة والكفاءة والخبرة، وتتطلب كذلك كوادر فنية مؤهلة للنهوض بهذه العملية الكبيرة، وكانت أول عقبة كأداء وقفت في وجه يلتسين وعارضت إصلاحاته هي البرلمان الروسي المنتخب في عهد غورباتشوف، وكان يضم ممثلين من مختلف القوى السياسية، وبعض هذه القوى كان يعمل على استعادة الدولة السوفييتية، وبعضها الآخر يؤيد الانفتاح والديمقراطية وكانت هذه القوة الأخيرة تمثل غالبية البرلمان الروسي.

صراع يلتسين مع البرلمان:

وقف «روسلان حسب اللاتوف» الشيشاني الأصل، والذي كان في الماضي القريب صديق يلتسين الحميم ونائبه، وانضم إليه الجنرال «روتسكوي» في وجه إصلاحات يلتسين. وقد اشتد الخلاف بين يلتسين والبرلمان بسبب محاولة يلتسين فرض دستور جديد في البلاد، وتعمق الخلاف بين الطرفين، فلجأ يلتسين إلى القمع للتخلص من المعارضة البرلمانية وهاجم البرلمان الروسي بالدبابات وجنود القوات الخاصة في ٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٣ م، وأسفر هذا الهجوم الذي شنَّه يلتسين الديمقراطي الإصلاحي على البرلمان عن مصرع تسعة وأربعين شخصاً، هذا ما أعلنه يلتسين، ولكن هذا الرقم لم يكن صحيحاً ففي كتابه «الثورة الآثمة» أكد «ستانسلاف جفروخين» أن أكثر من ألف قتيل قد ماتوا من جراء القصف، وقامت القوات الخاصة الروسية وحرس يلتسين برمي الجثث في حفر تحتوي على

الكلور، أو قاموا بدفن القتلى في مقابر جماعية تحت البرلمان[1] وقام يلتسين باعتقال روسلان حسب اللاتوف، والجنرال روتسكوي، وأودعهما في السجن واختتم يلتسين عام ١٩٩٣ م بإجراء انتخابات نيابية جديدة وفي ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣ م ونظم عملية استفتاء على الدستور.

دستور يلتسين:

عرفت روسيا أول دستور عام ١٩٠٥ م بمنحة من القيصر نيقولا الثاني، ولكن القيصر سرعان ما سحب منحته وحل «دوما» الإمبراطورية بعد عامين، واعتقل النواب وأجرى انتخابات جديدة، وكوّن برلماناً على مزاجه ليخدم سياسته فقط. وفي عام ١٩١٨ م قام الشيوعيون بمنح الشعب الروسي دستوراً حرموا فيه رجال الدين والتجار وكبار الملاك من حق التصويت وسرى مفعوله حتى عام ١٩٢٤ م، حيث ظهر الدستور الثاني، ثم الثالث عام ١٩٣٦ م، ثم الدستور الرابع عام ١٩٧٧ م، إبّان قيادة بريجنيف. وهذا الدستور لا يعترف بصلاحيات الرئيس بل أعطى على الورق السلطات الفعلية للهيئة التشريعية التي كانت من الناحية العملية مطواعة للحزب الشيوعي، وبعد أن أصبح يلتسين رئيساً منتخباً لروسيا تصدى أعضاء البرلمان الروسي لسياساته، كما ذكرنا آنفاً، وهذا ما دفع الرئيس يلتسين إلى استدعاء «٢٥٠» مندوباً. اثنين عن كل من الجمهوريات الروسية ومقاطعاتها، والبالغ عددها «٨٨» مقاطعة، والباقي من الأحزاب السياسية، والحركات الاجتماعية، والمؤسسات التجارية إلى موسكو ليبحثوا بدءاً من ٥ حزيران/ يونيو ١٩٩٣ م في وضع مسودة دستور جديد لروسيا ليتناسب مع مرحلة الديمقراطية ومع الإصلاحات التي أعلن عن عزمه تحقيقها[2]. ولكن حسب اللاتوف رئيس البرلمان الروسي في ذلك

---

(١) انظر كتاب «الأمبراطورية الآثمة» تأليف «ستانسلاف جفروخين» ترجمة د. يوسف محمد بشارة، والمؤلف عضو في البرلمان الروسي وعضو الجبهة الوطنية الديمقراطية، وهو مخرج وممثل سينمائي مشهور تجاوز الستين من عمره، ومن أشهر أفلامه «لا يمكن أن نعيش هكذا»، وروسيا التي فقدناها، ولم يسمح بعرضهما في روسيا حتى اليوم.

(٢) انظر مقال د. أحمد الخميسي في جريدة الاتحاد الظبيانية، وعنوانه «تعددت المناسبات والإجازة ليوم الدستور الروسي» عدد ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٦ م والتقرير الإخباري الذي كتبه من موسكو الصحفي «ريتشارد بوردو» مراسل لوس أنجلز تايمز والذي نشرته =

الوقت طالب بأن تمر مسودة الدستورة على مؤتمر نواب الشعب، فرفض يلتسين وقام بضرب البرلمان بالدبابات كما ذكرت. وفي ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣ م أُقر الدستور الروسي في استفتاء عام، وعُد هذا الدستور منحة من يلتسين، وقالت صحيفة «كسمولسكايا» برافدا: إن دستور يلتسين يشبه الدستور الفرنسي في عهد نابوليون بونابرت والذي وضعه عام ١٨٠٤ م، أما صحيفة «أزفستيا» فقالت: إن دستور يلتسين يمنح الرئيس صلاحيات لم يتمتع بها نيقولا الثاني، آخر القياصرة الروس. وإذا نظرنا في مواد الدستور، وخاصة المواد التي تحدد الصلاحيات المعطاة للرئيس، نجد أن الرئيس يمتلك صلاحيات دستورية واسعة سواء في علاقاته مع الحكومة والبرلمان، أو في مجال السياسة الداخلية والخارجية. وهذه نبذة موجزة عن أهم صلاحيات الرئيس يلتسين بموجب الدستور الروسي الجديد[1]:

ينتخب الرئيس الروسي لولاية من أربع سنوات، ولولايتين متتاليتين في أقصى حد، ويحدد بصفته رئيساً للدولة جميع المحاور الرئيسية للسياستين الداخلية والخارجية بما يتطابق مع الدستور والقوانين الاتحادية، ويعين رئيس الوزراء بالاتفاق مع البرلمان «الدوما» بالأغلبية، ويقيل الحكومة عندما يشاء. ولا يستطيع البرلمان سوى رفض المصادقة على تعيين رئيس الوزراء لثلاث مرات متتالية، لكن الرئيس يستطيع حل البرلمان إذا رفض البرلمان المصادقة على تعيين رئيس الوزراء للمرة الثالثة. ويجب عليه بعد حل البرلمان أن يدعو لانتخابات جديدة في مهلة لا تزيد عن أربعة أشهر، ويمكن للرئيس أن يصدر المراسيم التي يريدها خلال الأشهر الأربعة التي تعقب حل البرلمان القديم. وبموجب الدستور فالرئيس الروسي هو القائد الأعلى للقوات المسلحة، ويترأس مجلس الأمن القومي، ويعين كبار القادة، ويسرِّحهم، ويمكنه إعلان حالة الحرب في كامل الأراضي الروسية، أو في جزء منها، ويحق للرئيس تعيين قضاة المحاكم العليا. ويتخلى الرئيس عن مهامه حسب الدستور قبل انتهاء ولايته في حالة الاستقالة، أو الإصابة بعجز دائم يمنعه من أداء وظيفته لسبب صحي أو في حالة إقالته، وعلى الرغم من أن الدستور ينص

= صحيفة الشرق الأوسط مترجماً في عددها ٥٢٩٦ السبت في ٢٩/ ٥/ ١٩٩٣ م.

(١) حصلت على هذه المعلومات من عدة صحف عربية كالشرق الأوسط، والاتحاد، والأهرام، وبعض الصحف اللبنانية، وقمت بغربلتها واختصارها بعد التأكد من صحتها.

على أن الرئيس المريض، أو العاجز، لا يستطيع الاستمرار في الحكم، لكنه لا ينص على تحديد الجهة القادرة على اتخاذ قرار من هذا القبيل. وهكذا فإن الفقرات الدستورية التي تتعلق بإقالة الرئيس مُصاغة بشكل غامض، وقد راعى الدستور الروسي وضع يلتسين الصحي وترك كيفية إقالته غير واضحة على الإطلاق، وهذا ما دفع بعض السياسيين الروس إلى القول بأن يلتسين قد فصّل الدستور على مقاسه تماماً. وكذلك أكدت الأحزاب الرئيسية الروسية أن دستور يلتسين يخل وبشكل واضح بالتوازن بين السلطتين: التنفيذية، والتشريعية. ورغم صلاحيات يلتسين اللامحدودة بموجب الدستور فإن الدستور يُنتهك يومياً، وتقول بعض الأحزاب الروسية إن سبب ذلك هو أن الدستور لم يصدر كثمرة لإجماع شعبي حقيقي، وإنما كثمرة للصراع السياسي البرلماني الرئاسي، بين يلتسين والنواب عام ١٩٩٣ م. بقي أن نذكر أن الشعب الروسي الذي لم يقرأ دستور يلتسين فإنه اليوم معني بقضية أخرى، لا علاقة لها بالعبارات الإنشائية الواردة في الدستور، وهي قضية معاناته من الإفلاس والجوع ومن تسلط المافيا. وإذا كان أكثر من ثلثي سكان روسيا يعيشون تحت خط الفقر، فما جدوى البنود والفقرات الواردة في الدستور والتي تنص على حقوق الإنسان، إذا حُرم الإنسان من حقه الرئيسي في الحياة، وماذا يفعل المواطن في ظل دستور ينص على حمايته إذا كانت العصابات هي الجهة القضائية والتنفيذية الوحيدة القادرة على حفظ النظام وحل مشكلات المواطنين[١]. وهكذا خيب يلتسين آمال الروس في تحقيق الإصلاحات السياسية.

وفي إشاعة الديمقراطية التي حلم بها الروس منذ تأسيس دولتهم في القرن التاسع الميلادي ودخلت التجربة الديمقراطية في طريق مسدود، وذلك لأن يلتسين

---

(١) راجع كتاب «روسيا المخدوعة فشل ديمقراطية يلتسين» تأليف السياسي الألماني «ديرك زاغر» حيث يرى أن التجربة الإصلاحية التي مرت بها روسيا ليس لها مثيل في التاريخ، وأن روسيا اليوم تشبه أمريكا في فترة الهجرة الأوروبية إليها، والوضع الروسي اليوم هو مرآة لآمال الأوروبيين ولمخاوفهم، إنه ضحية نظرية اقتصادية مبسطة مفادها أن اقتصاد السوق يمكن أن يبنى بمجرد إطلاق حرية الأسعار. وكانت محصلة هذا النهج اغتناء قلة قليلة بواسطة النهب والاحتيال، وخداع عامة السكان الذين فقدوا كل ما يملكون وحتى الثروات المنهوبة هربت إلى الخارج، وهكذا دخلت روسيا في أزمة عميقة وعادت روسيا إلى عصر الرأسمالية البدائية. وهكذا تجمع روسيا اليوم كل تناقضات الغرب.

قتلها في مهدها واكتشف الروس بعد فترة من حكم يلتسين أن «إيفان الرهيب» و«ستالين» و«بريجينيف» قد بُعثوا أحياء في شخص يلتسين.

«إصلاحات يلتسين الاقتصادية ونتائجها»

يعد الإصلاح السياسي مقدمة ضرورية لإجراء أي إصلاح اقتصادي، ولا يمكن أن تحلم أي دولة بإصلاح اقتصادي حقيقي إذا لم تنجح في الإصلاح السياسي، وبما أن يلتسين قد فشل في تحقيق الإصلاح السياسي المناسب، وفي توفير المناخ الملائم لقيام إصلاحات اقتصادية، فقد فشل أيضاً، وإلى حد كبير، في الإصلاح الاقتصادي. وإذا استعرضنا مراحل هذا الفشل نجد أن الخطوة الأولى التي خطاها يلتسين لتحقيق الإصلاح الاقتصادي هي تعيين حكومة «يجور جايدار» في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩١ م، وهو صاحب نظرية الإصلاح بالصدمة، وقام جايدار على الفور بإطلاق حرية الأسعار في ظل غياب أي وسط للسوق التنافسية، مما أدى لهبوط معدلات الإنتاج وارتفاع الأسعار على نحو جنوني لا يتناسب مع مستوى الدخل، وقد علّق أستاذ الاقتصاد الروسي «بافل بونيتش» على تلك السياسة قائلاً: «كنا نظن أن الإصلاح سيتم بطريق الصدمة، ولكن ما يجري أمامنا هو مجرد صدمة بدون أية إصلاحات». ولعل السبب في ذلك هو أن جوهر الإصلاح الاقتصادي اعتمد على الانتقال من الاقتصاد المخطط إلى الاقتصاد الحر بواسطة التخصيص الذي وصفه يلتسين في عام ١٩٩٣ م: «بأنه لب الإصلاح الاقتصادي» وعندما استقال «يجور جايدار» وحل محله[1] «تشيرنو ميردين» تمت في عهده أخطر عملية، وهي عملية تخصيص كبريات مؤسسات الدولة بوساطة نائبه الأول اليهودي الصهيوني «أناتولي تشوبايس» وقد اتضح أن سياسة «تشوبايس» لم تكن سوى خداع محض، بدءاً من بطاقات «الفاوتشو» التي كان هدفها الظاهر توزيع الثروة القومية وفقاً لحصة كل فرد منها، وانتهاء بتخصيص المؤسسات التي بيعت بأقل من واحد بالمئة من قيمتها، وأحياناً بالمجان، وهو ما لم يحدث في أيِّ بلد في العالم. وقد وصف عمدة موسكو «يوري لوجكوف» ما قام به «تشوبايس» بأنه أكبر كارثة في

(١) اعتمدت في كتابة هذا البحث على مجموعة من الصحف العربية يضيق المجال عن ذكرها، وذلك لكثرتها، وتعدد تواريخها.

التاريخ[1] العالمي ومما زاد الطين بلّة هو عجز الدولة عن وقف تهريب خمسة وعشرين مليار دولار سنوياً من روسيا. وتقول صحيفة «برافدا» في كشفها لحساب السنوات الخمس الأولى من عمر الإصلاح الاقتصادي: «لقد ارتفعت الأسعار خلال الخمس سنوات بعشرات الآلاف من المرات، وانخفضت القيمة الفعلية للرواتب بخمس مرات، وهوى رجال المعاشات إلى الحضيض، واحترقت مع التضخم قيمة المدخرات التي جمعها المواطنون كثمرة لعملهم على مدى سنوات طويلة، وتكشف رحلة الإصلاح الاقتصادي ما بين ١٩٩٢ ـ ١٩٩٥ م عن انخفاض معدلات الإنتاج في جميع فروع الصناعة التحويلية والاستخراجية بنسبة ٣٩٪، وفي مجالات الصناعات الأخرى بنسبة ٥٠٪، وقس على ذلك في بقية المجالات. أما الاستثمارات الحكومية فقد تقلصت بنسبة ٦٠٪ عامي ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ م، وانخفض حجم الإنتاج الزراعي بنسبة ١٧٪ ما بين ١٩٩١ ـ ١٩٩٤ م، ومع استمرار الأزمة الغذائية الطاحنة اضطرت روسيا للاعتماد على السلع الغذائية المستوردة. وهكذا تحولت روسيا إلى مصاف الدول النامية، أما الروبل فقد انخفضت قيمته إلى أكثر من «١٥» روبلاً مقابل الدولار الواحد، ويذكر أن قيمة الدولار قبل انهيار الاتحاد السوفييتي وإصلاحات يلتسين كانت «٤» روبلات في السوق السوداء، أما السعر الرسمي فكان ٩٪ من الروبل، أما ديون روسيا فقد بلغت عند نهاية عام ١٩٩٤ م «١٤٩» مليار دولار، تتضاعف كل أربع سنوات بسبب الفوائد العالية، وهذا يعني أن روسيا ستدخل القرن القادم مدينة بحوالي ٣٠٠ مليار دولار إذا أوقفت عملية الاقتراض، أما في حال استمرار الاقتراض فإن الرقم سيرتفع إلى حد مخيف. وقد أدى هذا الفشل الاقتصادي إلى نتائج وخيمة في مجال الحياة الاجتماعية، فقد تناقصت نسبة المواليد لتصل إلى أدنى نسبة خلال «٥٠» عاماً مضت، وذلك نتيجة انخفاض مستوى المعيشة وغلاء الأسعار. وقد تناقلت وكالات الأنباء في شهر تموز/ يوليو ١٩٩٤ م أن امرأة روسية عرضت بيع قلبها لمن يتكفل بإطعام أطفالها، وحتى أن «جاليتا»، ابنة بريجنيف، عرضت أوسمة والدها ونياشينه الكثيرة للبيع في

---

(١) يقول الباحثون إن خسائر روسيا من جراء الخصخصة بلغت ثلاثة تريليون دولار، وبلغت نسبة الانخفاض في الإنتاج الصناعي بعد عمليات الخصخصة أكثر من ٧٠٪. راجع ملف جريدة البيان الإماراتية عن الأزمة الروسية الأخيرة، عدد ٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٨.

القادة الروس الذين مهدوا الأجواء لشن الهجمة اليهودية على روسيا

غورباتشوف.. أين هو الآن؟

يلتسين

بافل غراتشوف

المستقبل غامض.. والبديل أيضاً

صورة روسيا الحالية بعد الانهيار الاقتصادي

(نقلاً عن جريدة الاتحاد)

مزاد علني لأن راتبها التقاعدي لا يكفي لشراء «الفودكا» فقط[1]. أما المدارس الروسية فقد تأثرت من جراء الفشل في الإصلاح الاقتصادي، وقد نشرت صحيفة «سيفودينا» الروسية في ١٣ تموز/ يوليو ١٩٩٤ م مقالاً عن تأجير المدارس للشركات التي توفر للراغبين الخدمات العاطفية، أما عصابات المافيا فقد بلغ عددها «٨٠٠٠» عصابة في حالة نشاط مستمر، ويكفي لبيان سطوتها القول إن معدلات الجريمة تتزايد بنسبة ٢٠ إلى ٣٠ بالمئة سنوياً، وإن أكثر من «٥٠» ألف مواطن قتلوا على يد العصابات بين أعوام ١٩٩١ ـ ١٩٩٤ م. وقد بلغت المافيا الروسية درجة من السطوة والقوة إلى درجة أنها تطالب اليوم الحكومة الروسية باقتسام السلطة علناً[2]، وحتى أن ضابطاً بجهاز الأمن الروسي يدعو صراحة لإطلاق يد المافيا في حفظ النظام. ويقول بعض الباحثين إن عصابات المافيا الروسية يمكنها قلب النظام الروسي في أي وقت، وليس مستبعداً أن يجلس على كرسي الرئاسة الروسية مجرم من عصابات المافيا، وإنه بإمكان ألمافيا السيطرة على البرلمان الروسي في الانتخابات القادمة وبأكثرية مطلقة إذا أرادت، لأنها تسيطر فعلياً على كافة القطاعات، وقادرة على شراء ضمائر الناس الجوعى، وحتى ضمائر الفنانين، والكتّاب وبعض الصحف، ومحطات التلفزة. وأصبحت حقيقة دولة ضمن دولة. أما العاملون فقد جرت العادة مؤخراً، أن يتلقوا رواتبهم في المؤسسات الحكومية الروسية في شكل سلع من تلك التي تنتجها المؤسسات مثل بياضات أسرَّة النوم ومستحضرات التجميل، وحمالات للصدور، وعلى هؤلاء الوقوف عند قارعة الطريق لبيعها لأقرب عابر سبيل. أما عمال المناجم فيلجأون إلى الإضراب في أوقات متقاربة بسبب تأخر الدولة عن دفع رواتبهم وفي شهر حزيران/ يونيو ١٩٩٨ م تحولت الإضرابات إلى عصيان مدني شامل، كاد يتحول إلى ثورة عارمة، وكل ذلك من أجل دفع رواتبهم، أما الجيش فقد أصبح الشباب يرفضون الالتحاق

---

(١) أكدت جريدة الأهرام في مقال لها كتبه حازم غراب، من موسكو، في أيار/ مايو ١٩٩٨ «إن هناك عشرة ملايين عاطل عن العمل في روسيا، و٣٨ مليون مواطن تتأخر رواتبهم بالشهور، وهناك ميزانية عامة تعاني عجزاً غير قليل، إذ تقدر الواردات بـ ٣٦٠ بليون روبل، بينما المصروفات تصل إلى ٤٩٩ بليوناً، ولذلك تعتمد روسيا على الاقتراض من البنوك الدولية.

(٢) راجع كتاب «الثورة الآثمة»، تأليف ستانسلاف جفروخين، مرجع سابق.

لأداء الخدمة الإلزامية بنسبة ٧٠٪ من المطلوبين للخدمة. أما العسكريون في الجيش النظامي فإن أطفالهم يواجهونهم صباح كل يوم بسؤال «هل سنأكل اليوم يا بابا»؟ والدولة مدينة للعسكريين بمئات المليارات من الروبلات من جراء تأخيرها في دفع رواتبهم، وأصبح بعض الضباط يعملون كعتالين في شوارع موسكو ليلاً، أو يستجدون لقمة العيش. ويؤكد المارشال «إيجور سيرجييف» نائب وزير الدفاع الروسي حالياً، أن ميزانية الجيش الروسي لا تزيد عن ميزانية دولة «موزمبيق» في حين أن قوات الجيش الروسي بحجم الجيش الأمريكي. وأكد «سيرجيف» أنه باستثناء القوات النووية الاستراتيجية فإنه لا توجد أية وحدات جاهزة للقتال في عام ١٩٩٧ م، وأكد أن الطائرات لا تحلق والدبابات يعلوها الصدأ، والبحارة جائعون، والمعنويات منخفضة إلى أقصى درجة. وأكد أنه تسود بين أفراد الجيش المشاحنات. وقد سجلت حوادث كثيرة هرب فيها المجندون من الخدمة، وتنتشر بين الجنود ظاهرة تعاطي المخدرات». وفي حالة كهذه لا يستبعد المراقبون أن يقوم الجيش الروسي بحل نفسه بنفسه. وقد عبر المجمع العسكري الأمريكي «روكويل انترناشيونال» في ملصق ملوّن أحسن تعبير عن حالة روسيا حين نشر ملصقاً ملوّناً يصور دباً ضخماً وقد كُمم حنكه، وكُتب تحت الملصق: «من الآن فصاعداً لن يعض الدب أحداً». وهكذا لخص الأمريكيون الوضع العسكري الروسي. أما في مجال التعليم والثقافة فالوضع لا يقل سوءاً، ويذكر الاقتصادي الروسي المشهور «جريجوري يافلنسكي» إن روسيا تنفق الآن على العلم خمس المخصصات التي كانت تنفقها لنفس الغرض في الاتحاد السوفييتي، وإن الراتب الشهري للعالم الروسي يقل خمساً وخمسين مرة عن الراتب الشهري لنظيره الأمريكي. وتنفق روسيا الآن على المدارس والتعليم عشر المخصصات لنفس الهدف في العهد السوفييتي». وعندما أضرب المعلمون الذين لا يتلقون رواتبهم[1]. منذ أشهر كتبت صحيفة برافدا في نيسان/ أبريل ١٩٩٤ م، تقول: «يا

---

(١) من الضروري التنويه بأن روسيا قد شهدت في صيف ١٩٩٨ م أزمة مالية خانقة إذ وصل التضخم إلى ١٦٥ بالمئة، وتراجع الاقتصاد الزراعي والصناعي إلى ١١٪ سنوياً، وتزايدت البطالة بشكل مرعب ووصل ضحايا الموت جوعاً وبرداً إلى ما يقارب ١٧ مليون روسي سنوياً، وانخفض معدل الأعمار وصار الجنود الروس يصطادون الطيور والأسماك لتأمين =

له من عار أن يخرج المعلمون إلى الشوارع وأياديهم ممدودة يتسولون حقهم، وكيف يمكن للمعلم أن ينظر في أعين تلاميذه وهو مُهان ونصف جائع». أما الصحف الروسية فهي الوحيدة في هذا العالم التي لا تحدد أسعارها رسمياً على صفحتها الأولى أو الأخيرة، ومنذ سقوط الاتحاد السوفييتي تكتفي الصحف الروسية بالإشارة إلى أن ثمن الصحيفة حسب الاتفاق. بينما تشير بعض الصحف إلى أن الثمن حُر. لماذا؟ ببساطة لأن الأسعار كل الأسعار تتغير في موسكو مع صباح كل يوم جديد: أسعار الورق، أسعار الكهرباء، أسعار التليفزيون، أسعار[1] البنزين، أسعار المواصلات، كل شيء تقريباً، أما احترام القانون فهذا شيء قد تخطاه الزمن وحتى لا يوجد نظام قضائي وإنما توجد محاولات لخلقه من العدم، ولا توجد وسيلة لتسيير الأعمال إلا الرشوة، ويقول بعض الباحثين أن أكثر الصناعات نمواً في روسيا اليوم هي صناعة الأمن الخصوصي، فهناك مئات الألوف من الرجال والنساء يعملون حالياً في خدمة القطاع الخاص كرجال أمن مستأجرين وحراس شخصيين، لأن الشرطة أقل عدداً وأكثر فساداً من أن تقوم بهذه المهمة، وبالتالي فالكلاشينكوف هو الوحيد المسموع في روسيا، ومعظم الناس يحلون مشاكلهم عن طريقه، وهكذا سقط الدب الروسي، وأصبح قطاً مريضاً، وأصبحت روسيا تتسول من البنك الدولي وغيره لتأمين لقمة العيش لعمالها وجيشها ومدرسي أطفالها، بعد أن قام أثرياء الطبقة الجديدة في روسيا بتهريب ٣٠٠ بليون دولار إلى البنوك الخارجية، ولم يبق في روسيا جهة صالحة للعمل إلا الرؤوس النووية، التي ظلت محافظة على وضعها، ولا يُستغرب مع استمرار الأزمة الاقتصادية الحالية أن تُعرض هذه الرؤوس للبيع في المزاد العلني ومن يدفع أكثر سيحصل عليها، ولكن عليه أن يأخذ موافقة الولايات المتحدة الأمريكية أولاً!!!

= غذائهم مما أدى إلى إقالة كيرينكو وتعيين بريماكوف رئيساً للوزارة الروسية.

(١) في صيف ١٩٩٨ م استفحلت الأزمة المالية في روسيا، وعلل الباحثون هذا الانهيار الاقتصادي بأنه نتيجة للانهيار السياسي، وحتى أن عزل كيرينكو من رئاسة الوزارة في صيف ١٩٩٨ وتعيين بريماكوف محله لم يساعد في حل الأزمة المالية في روسيا، ويؤكد الخبراء أن الغرب والصهاينة هم وراء هذه الأزمة، انظر جريدة الاتحاد ١٠/ ١٠/ ١٩٩٨ م.

الفصل الثامن

التغلغل الصهيوني في روسيا

ذكرت في الفصل الرابع أن يهود الخزر فشلوا في تهويد روسيا، وتبخَّرت أحلامهم تماماً، بعد أن قضى على دولتهم الأمير الروسي «سوياتوسلاف» سنة ٩٦٨ م. ولكن اليهود ظلوا يتطلعون إلى تهويد روسيا منذ ذلك الوقت. وقد جاءت الفرصة المواتية لهم في أواخر عهد القياصرة حيث تسللوا إلى الاقتصاد الروسي ثم إلى مواقع اتخاذ القرار السياسي، وتستشهد صحيفة «سوفخود» اليهودية في عدد ٣ تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٠٢ م، نقلاً عن الوزارة القيصرية بأنه من أصل «٧٧٥٠» مشروعاً صناعياً في روسيا يملك اليهود «٣٩٣٣» مشروعاً، تنتج ٢٨٪ من إجمالي إنتاج روسيا. وفي عام ١٩١٤ م كان أربعون بالمئة من مديري البنوك في بطرسبرج، العاصمة حينذاك، من اليهود، وكانت معظم مناجم البلاتين والذهب ملكاً لهم. وحتى عام ١٩١٧ م كان رأس المال اليهودي في روسيا يملك ٣١,٥٪ من مصانع السكر، و٣٠٪ من مصانع النسيج، و٩٣٪ من تجارة الحبوب، و٧٠٪ من تجارة الأخشاب في روسيا. وكذلك فقد أدى اشتغال اليهود التاريخي بالعمليات المصرفية والتجارية والربوية إلى مراكمة حالة من العداء الشعبي لهم في روسيا، وأدى استغلالهم للفلاحين الروس إلى انتفاضات روسية عليهم اتخذت شكل المجازر، كتلك التي وقعت في «أوديسا» عام ١٨٧١ م وما تلاها من مجازر عام ١٨٨١ م، ثم مذبحة مدينة «كيشينوف» الشهيرة عام ١٩٠٣ م، ثم في مدينة «لوجلنسك» ١٩٠٦ م وقد كتب «فيختفانجر» الكاتب اليهودي الأصل في روايته «الدوقة» يقول: «إن سبب ملاحقة اليهود... رأسمالهم وسندات المدينين لهم وهل ثمة وسيلة لعدم الدفع أفضل من التخلص من اليهود[1]؟».

---

(١) انظر جريدة الاتحاد الظبيانية، عدد ٩ نيسان/ إبريل ١٩٩٧ م، حيث نشرت مقالاً عنوانه: «اليهود يسيطرون على غالبية المصارف وأجهزة الإعلام الروسية»، د. أحمد الخميسي، موسكو.

التغلغل الصهيوني في روسيا بعد قيام الحكم الشيوعي ١٩١٧ م:

أكد الباحثون أن اليهود لعبوا دوراً بارزاً في قيام الثورة الشيوعية. وأيدوا آراءهم بالاعتماد على مصادر يهودية موثقة ومن ذلك ما نشرته مجلة «أفريكان هيبرو» في عددها الصادر يوم «١٠» أيلول/سبتمبر عام ١٩٢٠ م، وهي من المجلات اليهودية فقالت: «إن الثورة الشيوعية في روسيا كانت من تصميم اليهود، وأنها قامت نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم، وإن ما تحقق في روسيا كان بفضل العقلية اليهودية، التي خلقت الشيوعية في العالم، ونتيجة لتدبير اليهود لسوف تعم الشيوعية العالم بسواعدهم»[1]. وهناك قرائن دامغة تؤكد صحة ما ذهبت إليه المجلة اليهودية، ومن ذلك ما ذكره «فيكتور كراتشوفسكي» الذي كان عضواً في أول لجنة مركزية للحزب الشيوعي عام ١٩١٧ م، حيث ذكر في كتابه «آثرت الحرية» أن «اللجنة المركزية كان فيها «٢١» شخصاً منهم «١٧» يهودياً، وثلاثة زوجاتهم من اليهود، بينهم لينين زعيم الحزب الشيوعي». وكانت الزوجات اليهوديات تقليداً ثابتاً في تاريخ الحكم الشيوعي، فكانت «بولينا» زوجة «مولوتوف» وزير الخارجية السوفييتية يهودية، وكانت على صداقة مع «غولدا مائير» عندما كانت «مائير» سفيرة لإسرائيل في موسكو، ووضعت الإثنتان خطة لإعلان القرم مقاطعة يهودية. وكذلك كانت «يكاترينا» زوجة المارشال «فو شيلوف» يهودية، وفيكتوريا زوجة بريجنيف يهودية، وأيضاً «رايسا» زوجة غورباتشوف يهودية، وذكرت في مذكراتها أنها كانت تحتقر انتماءها للشيوعية، ولم يخرج يلتسين عن هذا التقليد فزوجته «نائينا يوسوفوفنا» يهودية أيضاً.

يضاف إلى ذلك أن معظم القيادات العسكرية بعد ثورة تشرين الأول/ أكتوبر كانوا من اليهود، وهم المسؤولون عن المجازر التي ارتكبها الشيوعيون بحق الروس، ولا يمكن للروس أن ينسوا المجازر التي نفذها كل من «تروتسكي»، و«سفير دلوف» بعد قيام الثورة الشيوعية بوقت قصير، وفي الثلاثينيات وبالتحديد في عام ١٩٣٧ م ازداد النفوذ اليهودي في أجهزة الحزب والحكم في روسيا، فكانت «١٧» لجنة شعبية من أصل «٢٢» لجنة يهودية، وكان يوجد «١١٥» عضواً يهودياً في اللجنة

---

(١) راجع كتاب: «حقيقة الشيوعية»، لمجموعة من الكتاب المصريين.

الشعبية السوفييتية من أصل «١٣٣»، و«١٧» عضواً يهودياً في رئاسة مجلس السوفييت الأعلى من أصل «٢٠» عضواً، و«٥٣» عضواً يهودياً من أصل «٥٨» في قيادة «و.غ.ب. أو»، و٥٠ عضواً يهودياً[١] في القيادة السياسية في «ر.ك.ك!» من أصل «٥١»، و٤٠ يهودياً من أصل سوفييت الثقافة البروليتارية من أصل «٤٠»، يضاف إلى ذلك سيطرة الصهاينة على الصحف ووسائل الإعلام وتوجيه السياسة الخارجية[٢] السوفييتية. وسنتوقف قليلاً عند موقف السوفييت من القضايا الفلسطينية لنرى تأثير الصهاينة في السياسة الخارجية السوفييتية.

من المعروف أن الاتحاد السوفييتي قد أيّد قرار تقسيم فلسطين الذي أصدرته الأمم المتحدة تحت رقم «١٨١» في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ م رغم أنه يتنافى مع مبادىء الحقوق الدولية المتعارف عليها، واعترف الاتحاد السوفييتي بإسرائيل كدولة بعد قيامها بساعات في ١٩٤٨/٥/١٥ م ووافق على انضمامها للأمم المتحدة في العام التالي على الرغم من أن الشعب الروسي كان يشمئز في أعماقه من خدمة السوفييت للمشروع الصهيوني، بداية من فتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتقديم التغطية الإعلامية والإيديولوجية للمشروع العنصري الصهيوني، وتقديم السلاح لتأسيس الدولة الصهيونية التي كان السوفييت يأملون من قيامها أن تكون مدخلاً للهيمنة على الوطن العربي وتحويله إلى الشيوعية، والتحكم بموقعه وثرواته. ويمكن القول إن الاتحاد السوفييتي نافس الغرب في تأييده ودعمه لإسرائيل، ففي خطابه أمام الأمم المتحدة قال «غروميكو» وزير الخارجية السوفييتي عام ١٩٤٨ م: «إن الدول الغربية أثبتت عجزها في الدفاع عن الحقوق الأولية للشعب اليهودي، وهذا ما يبرر طموح اليهود لإنشاء دولتهم بأنفسهم، ومن غير العدل ألا نوافق على هذا الطموح أو أن نتنكر لحق الشعب

---

(١) انظر مقال: ناديا خوست في صحيفة الأسبوع الأدبي السورية الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب تحت عنوان: مملكة الصهيونية في العدد ٤٥١ تاريخ ١٤/١٢/١٩٩٤ م.

(٢) وهناك مصادر تقول: إن الدولة السوفييتية خضعت منذ قيامها وحتى انهيارها للنفوذ الصهيوني وبلغت نسبة الصهاينة في مجموع القيادات العليا بين ٨٣٪ و٨٣,٥٪ في أعوام ١٩١٩ - ١٩٢١ - ١٩٣٨ - ١٩٦٨ - ١٩٩١، راجع مقال علي عقلة عرسان في مجلة الأسبوع الأدبي السورية، تموز/يوليو ١٩٩٥.

اليهودي في تحقيق ما يصبو إليه»[1]. وحول تسليح السوفييت للعرب أدلى الملحق العسكري السوفييتي في باريس بتاريخ ٢٢ حزيران/ يونيو ١٩٦٤ م لمراسل صحيفة معاريف الإسرائيلية بتصريح طويل نقتطف منه هذا المقطع: «لقد أعربنا عن تأييدنا لإسرائيل بالسلاح والعتاد والرجال في أقسى ظروف الأزمة الفلسطينية.. فما قدمناه ونقدمه للبلاد العربية من سلاح هو لأغراض دفاعية ولمكافحة الرجعية العربية فقط[2]، ولا يمكن أن نسمح باستعماله للعدوان على إسرائيل فنحن نريد سلامة إسرائيل بل نعمل من أجل سلامتها، ثم هل تظنون أننا جاهلون لأهمية إسرائيل بالنسبة إلينا؟ وهل تظنوننا لا نعلم ما هو نوع الحكم الاشتراكي السليم الذي تبنونه في إسرائيل بأيديكم؟ وهل من المعقول أن نكون طرفاً في هدم التجربة الاشتراكية التي حققتها إسرائيل؟ وهل تظنون أننا مهملون أهمية الوجود الإسرائيلي في الشرق الأوسط، تلك المنطقة المهمة؟ اطمئنوا اطمئنوا، إن الاتحاد السوفييتي مع إسرائيل، وسيؤيدها اليوم وغداً كما أيَّدها ورعاها بالأمس»[3]. وفي ١٤ شباط/ فبراير سنة ١٩٦٥ م نشرت صحيفة «هاآرتس» الإسرائيلية تصريحاً للمستشار الأول في السفارة السوفييتية في إسرائيل قال فيه: «لم نقدم السلاح لبعض الدول العربية إلا بما يكفي لحاجات الدفاع لا الهجوم، وعلى الشعب الإسرائيلي أن يتذكر أن الاتحاد السوفييتي كان أول من دعا إلى حظر توريد السلاح إلى الشرق العربي عام ١٩٥٧ م، ونحن لا نزال على استعداد لحظر توريد السلاح إلى المنطقة العربية». وبعد هزيمة العرب في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ م قال كوسيغن رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي آنذاك، وفي ١٥ شباط/ فبراير ١٩٦٨ م وفي خطاب له في مدينة «مدينسك» السوفييتية: «نحن لسنا أنصار حرب جديدة في الشرق الأوسط،

---

(١) راجع كتاب الدكتور محمد الغزالي: «الإسلام في وجه الزحف الأحمر» ص ٢٠١ مرجع سابق.

(٢) ينبغي التنويه أن الدول العربية التي اشترت السلاح السوفييتي لم تسخره كما أراد السوفييت لمحاربة الرجعية، بل سخرته واستخدمته للدفاع عن الأرض العربية، وفي رد العدوان الصهيوني، وليس كما أراد السوفييت.

(٣) انظر كتاب «حركات ومذاهب في ميزان الإسلام»، فتحي يكن، عام ١٩٧٠ م الطبعة الأولى، ص ٢٩ وما بعدها.

بل على العكس تماماً نحن نريد سلاماً مستقراً في المنطقة، وهناك بعض الدول العربية تؤيد هذا الموقف، إننا نرفض تصفية إسرائيل، بل نؤيد استمرارها كدولة».

ومن هنا يتضح أن السوفييت لم يكونوا حلفاء للعرب بل حلفاء وأصدقاء لإسرائيل وكل ما فعله السوفييت أنهم باعوا العرب أسلحة تقليدية، وبأثمان باهظة، لمجرد الدفاع عن أنفسهم. والحقيقة لم يكن بإمكان العرب سوى قبول ذلك السلاح لأن الغرب رفض تسليحهم بكل وضوح، وهكذا تآمر الغرب والشرق على العرب وهذا ما ساعد على تحول إسرائيل إلى دولة قوية عسكرياً واقتصادياً وجعلها قادرة على تحدي الأمة العربية التي خذلها الشرق والغرب على السواء، ونتيجة للتواطؤ بين الغرب والشرق قامت إسرائيل بشن الحرب على العرب وتمكنت من احتلال أجزاء واسعة من أراضيهم، وهكذا استنزف السوفييت ثروات العرب ومقدراتهم. وأعطوهم أسلحة دفاعية لا يمكنها أن تلحق بإسرائيل أية أضرار حقيقية تهدد وجودها.

التغلغل الصهيوني في روسيا في عهد غورباتشوف ويلتسين:

رغم أن الدولة السوفييتية خدمت إسرائيل وساعدتها اقتصادياً، وعسكرياً وإعلامياً إلا أن الصهاينة لم يكتفوا بهذه الخدمات بل تطلعوا منذ عام ١٩٨٥ م إلى تهويد روسيا بالكامل، وذلك وفق خطة محكمة مع الولايات المتحدة الأمريكية والغرب. ويمكن القول إن اليهود قد نجحوا في تهويد أجهزة الحكم الروسية بشكل كامل، وقد ساعدهم في عملية التهويد مجيء غورباتشوف الذي أطلق الحريات السياسية والثقافية والاقتصادية فاستغل الصهاينة مناخ الانفتاح. وبدأوا بتنفيذ مخططهم لتهويد الحكم الروسي، وركزوا في البداية على النشاطات الثقافية ولكنهم سرعان ما حولوا نشاطهم إلى نشاط سياسي. وكان الكاتب الروسي «يفغيني يفسيف» أول من انتقد اعتراف الاتحاد السوفييتي بقيام دولة إسرائيل، وبموافقة السوفييت على قرار التقسيم ١٩٤٧ م، وذلك في نهاية عام ١٩٨٧ م. وتصدى كذلك للنشاطات الصهيونية الهادفة إلى تهويد الحكم الروسي. وقد كلفه ذلك حياته حيث اغتاله الصهاينة في العاشر من شباط/ فبراير ١٩٩٠ م، وكانت آخر كلماته «قتلوني بسيارة سوداء»[1]. وهكذا لقي مصيره كما لقي المستشرق

(١) انظر كتاب: «الصهيونية في الاتحاد السوفييتي»، تأليف هاني مندس، الطبعة الأولى بيروت=

السوفييتي «يوري ايفانوف» مؤلف كتاب «احذروا الصهيونية» الذي اغتاله اليهود شنقاً في أحدىٰ غابات موسكو ١٩٧٨ م. وبلغت بهم الوقاحة إلى حد أنهم أجبروا زوجته «يفغيني يفسيف» على الدوام في عملها منذ اليوم التالي على وفاته، وإلا فقدت أبناءها، وعلى الرغم من وجود تيار واسع معاد للصهيونية ويضم مجموعة كبيرة من الكتّاب والمستشرقين الروس إلا أن الصهاينة تمكنوا وبسرعة مذهلة من تكوين المنظمات الصهيونية، وفتحوا فروعاً كثيرة للوكالة اليهودية ومنظمة الشباب اليهودية، ويقول الدكتور «فايز رشيد» الذي كان يعمل طبيباً في المستشفى المركزي بمدينة «مينسك»: إنه في عام ١٩٨٩ م، وبصورة مفاجأة، قام الكثيرون من الأطباء الكبار في كافة أقسام المستشفى بتغيير أسمائهم: «بودي» أصبح حاييم وإيفان «ديفيد»؛ ليتبين أن هؤلاء الأطباء هم من اليهود، لكنهم استغلوا القوانين السوفييتية التي كانت تسمح وبمنتهى السهولة بتغيير الأسماء ليطلقوا على أنفسهم أسماء روسية، وعشية الانهيار عادوا إلى أصولهم». وذكر أيضاً: إني كنت أدور على مختلف مكتبات موسكو لشراء كتب لمؤلفين روس يكشفون فيها حقيقة الصهيونية، وبعد صدورها مباشرة ورغم طباعتها بأعداد هائلة كنا لا نجدها، وكأن أيدٍ خفية اشترتها فور طباعتها»[١]، وبهذه الأساليب وغيرها ازداد النفوذ الصهيوني، إلا أن العصر الذهبي للنفوذ الصهيوني في روسيا قد بدأ منذ وصول يلتسين إلى قمة السلطة في روسيا وقد كشفت صحيفة «زافترا» الروسية قائمة توضح مدى نفوذ اليهود داخل[٢]، أجهزة الحكم الروسية، فقالت في عام ١٩٩٧ م: «بداية نذكر «ألكسندر باكفليف» أبو «البيروسترويكا»، وهو مستشار غورباتشوف، ويعد منظِّر البيروسترويكا» ثم إيجور جايدار أول رئيس وزراء في عهد يلتسين والذي قاد الإصلاحات الاقتصادية المدمرة، والآن يتربع في القمة «أناتولي تشوبايس» مسؤولاً عن التخصيص، ثم مديراً لرئاسة الجمهورية، ثم نائباً لرئيس الوزراء؛ ثم يفجيني بريماكوف وزيراً للخارجية، و«ألكسندر ليفشتس» وزير

= ١٩٩١ م، إصدار كومبيو نشر «للدراسات والنشر والتوزيع» ص ٧ وما بعدها.

(١) انظر جريدة الاتحاد الظبيانية مقال: «فايز رشيد «الصهيونية ومحاولة الإمساك بالمستقبل الروسي» عدد ٢٠/٦/١٩٩٧ م، كاتب فلسطيني مقيم في عمان/ الأردن.

(٢) راجع جريدة الاتحاد عدد ٩ نيسان/ أبريل ١٩٩٧ م مرجع سابق.

المالية، و«ستاروف» مساعد الرئيس «يلتسين» و«سيرجي باستر جيمسكي»، الناطق الصحفي باسم يلتسين و«ياكوف أورسون» وزير الاقتصاد، «وفلاديمير ريسين» النائب الأول لحكومة العاصمة موسكو و«ألكسندر شوخين» نائب رئيس الدوما و«ألفرد كوخ» وزير الخصخصة الجديد، والجنرال «ليف روخلين» رئيس لجنة الشؤون الدفاعية بالبرلمان، و«يوري باتورين» سكرتير مجلس الدفاع القومي، و«بوريس بيرزوفنسكي» مساعد سكرتير مجلس الأمن القومي. وقد أضاف يلتسين إليهم علاوة على تلك المناصب «نيمتسوف» النائب الأول لرئيس الوزراء، و«فيكتور خليستون» وزير الزراعة والغذاء، و«نيقولاي تساخ» وزيراً للنقل، و«ينيم باسين» رئيساً للجنة الدولة للإسكان والبناء، و«فيتشيسلاف بروخروف» رئيساً للجنة الدولة لدعم الاستثمارات الصغيرة، و«الكسندر بدريتسكي» رئيساً للجهاز الفيدرالي للأرصدة الجوية و«تتيانا ريجنت» رئيسة لدائرة الهجرة الفيدرالية. هذا علاوة على المناصب الأخرى من الدرجة الثانية، وهكذا قطع يلتسين مشواراً كبيراً في تهويد الحكم في روسيا، أو في إيجاز ما قال عنه «بليخانوف» عام ١٩١٨ م: «إنهم يريدون ترسيخ صهيون هنا في روسيا» وبذلك فإنهم يعيدون الكرة ويحرثون الأرض من جديد للمذابح بسيطرتهم على مقادير الشعب الروسي، وقد كانوا دائماً أفضل أداة للقوى الخارجية في صراعها مع روسيا، لأنهم بلا ولاء للأرض والشعب الذي يعيشون معه، ولا شك أن تهويد السلطة في روسيا هو آخر المعارك اليهودية للسيطرة على مراكز اتخاذ القرار في العواصم الأوروبية، ولا شك أن موسكو كانت آخر القلاع التي هوت، وفيما يلي نبذه موجزة عن أهم الشخصيات الصهيونية التي ساهمت في تهويد الحكم في روسيا[1]:

١ ـ **جورج سوروس**: وهو ملياردير أمريكي يهودي صهيوني عمره «٦٨» عاماً ويعد من عمالقة المال اليهودي، قضى طفولته بالمجر، ثم هاجر إلى بريطانيا واستقر أخيراً في أمريكا، ولا يقتصر نشاطه على المجال الاقتصادي، فقد قام بدور

---

(١) اعتمدت في كتابة هذه النبذة عن الشخصيات الصهيونية التي ساهمت ولا تزال تساهم في تهويد الحكم في روسيا على مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات العربية، وقد أوليت عنايتي لهذا الموضوع منذ بداية عهد يلتسين ١٩٩١ م، ولا يتسع المجال لذكر هذه الصحف وتواريخ صدورها.

هام في تقويض الاتحاد السوفييتي بفضل صلته الوثيقة بالمخابرات الأمريكية، وقد قدم المال بسخاء لتحقيق هذا الهدف وأعلن صراحة: «لقد بدأت بمحاولات بسيطة لإحداث الشروخ في الدول الشيوعية لأني على ثقة بأن لكل شرخ صغير أهمية فيما بعد». ولتحقيق هذه الغاية أسس «سوروس» صندوقاً سماه «دعم الديمقراطية» وكان لهذا الصندوق نشاطات في المجر عام ١٩٨٤ م، وفي بلغاريا ١٩٩٠ م، والصين ١٩٨٦ م، والاتحاد السوفييتي بدءاً من عام ١٩٨٥ م، وكان صندوق سوروس يقدم الأموال والأجهزة لكافة الأحزاب المناوئة للشيوعية، وقام سوروس بزيارة الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٧ م حيث التقى بزعيم الصهيونية الروسية «أندريه ساخاروف» وفي العام نفسه أسس الصندوق الأمريكي السوفييتي باسم المبادرة الثقافية، وقد تمكن هذا الصندوق من توحيد صفوف المعارضين للنظام الشيوعي، وفي عام ١٩٩١ م خصص «سوروس» ١٠٠ مليون دولار لدعم العلماء الروس، وهكذا اشترى سوروس العلماء الروس، وشجعهم على الهجرة إلى إسرائيل. وفي عام ١٩٩٥ م زار موسكو، وقدم دعماً لضحايا الحرب الشيشانية من الروس، واشترى حصة ضخمة من أسهم مجمع «ميتالورجيا» الجديد، ودخل سوروس مع بعض الشركاء الروس من اليهود في صفقة «سفيار انفيست». وهذا ما رشح سوروس للسيطرة على الإعلام الروسي، وينوي سوروس شراء إحدى كبريات شركات النفط الروسي «روس نفط»، ودخل سوروس مع شركائه في صفقات ضخمة بحيث تساعده في السيطرة على جزء كبير من صادرات السلاح الروسي، والهدف هو التحكم بتصدير هذا السلاح ومنع وصوله إلى العرب بالدرجة الأولى، ويتحكم سوروس وشركائه بوسائل الاتصالات الروسية الممتدة من غرب روسيا إلى شرقها، وقد صرح «ميلزنيف» رئيس الدوما الروسي بأن سوروس أصبح يتحكم في البث التلفزيوني، وبذلك تفقد روسيا أهم ما لديها، أي استقلالها الإعلامي[1]!

٢ ـ **أناتولي تشوبايس**: يطلق الروس على تشوبايس أسماء كثيرة منها: الحاخام الاقتصادي، والكاوبوي الأمريكي في البراري الروسية، والكاردينال الأشقر. عمل مديراً لمكتب يلتسين، ثم قفز إلى منصب النائب الأول لرئيس

---

(١) انظر جريدة الاتحاد مقال د. أحمد الخميسي عدد ٢/ ٢/ ١٩٩٨ م. يعتقد الخبراء أن انهيار الاقتصاد الروسي مؤخراً كان وراءه سوروس والملياردير الروس ومعظمهم من الصهاينة.

الوزراء في حين كان النائب الثاني هو يهودي أيضاً واسمه «نيمتسوف» «٣٢» عاماً الذي اشترط لقبول المنصب أن يكون على اتصال مباشر بالرئيس أي أنه لا يخضع لرئيس الوزراء، كما هو الحال مع تشوبايس، وقد قدم يلتسين تشوبايس على أنه «منقذ روسيا» أثر تعيينه كنائب أول لرئيس الوزراء في شباط/ فبراير ١٩٩٧ م. وقد رد البرلمان الروسي على تعيين تشوبايس: «بأن يلتسين وجه تحدياً مباشراً للرأي العام الروسي». وجاء في قرار البرلمان الروسي «إن اسم تشوبايس مرتبط بأزمة الاقتصاد الروسي والنظام المالي ونهب الملكية الوطنية تحت غطاء التخصيص الذي أدى إلى بؤس وشقاء الملايين من الروس». وطالب النواب الروس بتسريع عمليات التحقيق في قضيتين تطالان تشوبايس، الأولى: تتعلق بتمويل الحملة الانتخابية ليلتسين عام ١٩٩٦ م، والثانية: تتعلق بالوضع الضريبي لتشوبايس. وتؤكد المعارضة الروسية أن تشوبايس باع روسيا لصندوق النقد الدولي، ويصفه الروس بسمكة القرش، وهو الذي يقود اللوبي الصهيوني في روسيا ولتشوبايس علاقة متينة مع المافيا الروسية والإسرائيلية[١]، وبواسطة المافيا يقوم بإفساد كبار المسؤولين الروس ويسعى لتوريطهم وانغماسهم في العبث واللهو. وقد اتضح أن وزير العدل الروسي «فالنتين كوفاليوف» الذي ظهر عارياً وسط عاريات في أحد النوادي الليلية في موسكو له علاقة وطيدة بتشوبايس، وبيوريس بيريزوفسكي، وقد ضُبط هذا الوزير عارياً في منزل أحد زعماء المافيا المرتبطين بإسرائيل، ونظراً لسلوك تشوبايس وقيامه بتدمير الاقتصاد الروسي فقد طالبت المعارضة الروسية بطرد تشوبايس من جميع مناصبه بعد فضيحة الكتاب التي تورط فيها مع عدد من كبار المسؤولين الذين تلقوا مبالغ طائلة لتأليف كتاب عن الخصخصة في روسيا[٢]، وأكدت المعارضة الروسية أن بدل الأتعاب التي تقاضاها تشوبايس وشلته ليست

---

(١) انظر جريدة الحياة الصادرة في لندن العدد ١٢٥٣١ تاريخ ٢١/ ٧/ ١٩٩٧ م.

(٢) لقد ضاق الروس ذرعاً بالتغلغل الصهيوني في بلادهم، ففي أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٨ م وقف الجنرال الروسي النائب في البرلمان «ألبيرت ماكاشوف» فقال: «إن اليهود قد أقاموا في روسيا إمبراطورية الكذب، وإنهم يحتلون في السلطة مساحة واسعة لا تتناسب مع عددهم كأقلية، وقارن بين اليهود في روسيا واليهود في إسرائيل، وأشار أن اليهود لم يمنحوا منصباً واحداً للعرب فلماذا يبيحون لأنفسهم في روسيا ما لا يبيحونه في دولتهم».

سوى رشوة، لأنها جاءت من دار نشر هي عبارة عن فرع لمصرف يسعى لشراء حصص في مؤسسات حكومية روسية معروضة للبيع، ولكن يلتسين تمسك بتشوبايس وبعد فترة اضطر إلى عزله وعينه مديراً لشركات الطاقة الكهربائية ومندوباً روسياً مهمته مفاوضة البنوك الدولية لتأمين المزيد من القروض لروسيا ومنحه يلتسين درجة نائب رئيس الوزراء[1].

٣ ـ **فلاديمير جوسينسكي**: وهو مخرج مسرحي سابق بدأ نشاطه في نهاية عصر البيروسترويكا في تجارة العقارات، وسرعان ما تحول إلى واحد من أثرى أثرياء العصر الجديد، وهو يمتلك صحيفة «سيفورينا» وشركة تلفزيون «إن تي في» التابعة لمؤسسة «موست بنك»، وهو رئيس المؤتمر اليهودي الروسي. وأكدت صحيفة «زافترا» القومية الروسية أن «جوسينسكي» يبذل محاولات بوساطة مؤسسة «موست» للسيطرة على الجيش، وأجهزة الأمن، بوساطة التأمين على حياة العسكريين بعد حلّ شركة التأمين التابعة لوزارة الدفاع، وجددت صحيفة «برافدا» نفس المخاوف في عدد ١١ نيسان/ إبريل ١٩٩٨ م تحت عنوان: هل نحفظ أسرار روسيا في إسرائيل؟ مؤكدة أن الوكالة الفيدرالية الحكومية للاتصالات والمعلومات وقّعت عقداً مع شركة التأمين «سباسكي فوروتا» التابعة لمؤسسة «موست» للتأمين على حياة العاملين فيها، وذكرت الصحيفة أن[2] جيرنوفسكي زعيم الحزب الليبرالي كتب إلى النائب العام خطاباً أكد فيه أن لديه معلومات مؤكدة بأن مجموعة «موست» المالية ذات علاقة وثيقة بالمخابرات الإسرائيلية، ولهذا فإن كل المعلومات التي ستحصل عليها شركة التأمين ستصل إلى تل أبيب فوراً. وأكدت الصحيفة أن لمجموعة «موست» مكتباً يقع في قلب تل أبيب شارع «تيرش بيشاسن تيجفا» منزل رقم «٤٨» وقد تأسس منذ عام ١٩٩٦ م. ومؤخراً وفي ١٠/٦/١٩٩٨ م اشترى

---

(١) انظر جريدة الاتحاد الظبيانية عدد ٢٢/٤/١٩٩٨ م مقال د. أحمد الخميسي «الروس يتخوفون من التغلغل الصهيوني».

(٢) وانظر جريدة الاتحاد الصادرة في ١٠/١١/١٩٩٨ م حيث دعا تشوبايس وبوريس بيرزوفيسكي المدير التنفيذي لرابطة الدول المستقلة إلى منع نشاط الحزب الشيوعي كخطوة أولى على طريق تجاوز العقلية الشيوعية، وقد رد عليه رئيس مجلس الدوما ورئيس الحزب الشيوعي بأن ذلك تطرف وهستيريا.

جوسينكي ٢٥٪ من صحيفة معاريف الإسرائيلية، ويركز جوسينكي حالياً وبواسطة شبكات البث الإذاعي والتلفزيوني والصحف التي يملكها على تكوين وصياغة الرأي العام الروسي، وذلك للتحكم في نتائج الانتخابات البرلمانية والرئاسية القادمة.

٤ـ **بوريس إبراهام بيريزوفسكي**: من مواليد ١٩٤٦ م، ويعتبر ملكاً غير متوج للحركة اليهودية المالية، التي تحكم قبضتها على الاقتصاد والإعلام الروسي. وقد جمع ثروته خلال سبعة أعوام من ١٩٩١ ـ ١٩٩٧ م، وقدَّرتها المجلة الأمريكية «فوربيس» بأكثر من ثلاثة مليارات دولار، وقد جمع هذه الثروة من السرقات الكبيرة التي مارسها خلال بيع شركات القطاع العام الروسيَّة من مصانع ومؤسسات وغيرها، وأصبح اليوم يملك ٤٩٪ من أسهم القناة التلفزيونية الروسية الأولى، ثم دخل مجال النفط وأصبح أحد مديري الاحتكار النفطي، وبدأ يشق طريقه نحو الكرملين عن طريق توطيد علاقاته بـ «كورجاكوف» رئيس أمن الرئيس يلتسين، ومن ثم توطيد علاقته بـ «تاتانيا» ابنة يلتسين فأهداها سيارة غربية حديثة جداً، وبنفس الوسائل وطَّد علاقته مع تشوبايس، وخاض اللوبي الصهيوني في روسيا معركة انتخاب يلتسين عام ١٩٩٦ م، وأدى تدفق الأموال اليهودية إلى نجاح يلتسين، وعلى الفور طالب بيريزوفسكي بأن ينال نصيبه من كعكة الحكم، واستجاب يلتسين في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٦ م بتعيينه مساعداً لسكرتير مجلس الأمن القومي الروسي[١].

وقد أثار تعيين بيريزوفسكي في هذا المنصب ردة فعل قوية في روسيا وذلك بسبب جنسيته المزدوجة الإسرائيلية الروسية، ورداً على حملة البرلمان الروسي على تعيينه في هذا المنصب قال بيريزوفسكي: «إن كل مواطن[٢] يهودي في روسيا

---

(١) في الواقع بدأ الروس يعبرون عن سخطهم ونقمتهم على التغلغل الصهيوني في روسيا، ومن ذلك تعرض الكنيس التابع لطائفة الحسديم لحريق مدبر عام ١٩٩٣ م، وتبعه هجوم آخر عام ١٩٩٦ م، وفي أوائل تموز/ يونيو ١٩٩٨ قام الروس بتفجير الكنيست نفسه أثناء احتفال الصهاينة فيه بالذكرى الخمسين على اغتصاب فلسطين. كما تعرض مؤخراً ١٤٩ قبراً يهودياً للامتهان في إحدى مقابر «إيركوتسك» وتعرض بعض الحاخامات للاعتداء، وهذا كله أول الغيث.

(٢) انظر جريدة الاتحاد الظبيانية، عدد ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٧ م، تقرير أحمد الخميسي من موسكو، عن التغلغل الصهيوني في أركان القيادة الروسية، وعن عزل بيريزوفسكي من منصبه.

هو بالضرورة إسرائيلي، والذي حصل أني سافرت إلى إسرائيل لعدة أيام، وهناك منحوني الجنسية الإسرائيلية بناء على طلبي، وعلى أيّة حال، فإن كل يهودي بالنشأة هو مواطن إسرائيلي حسب القانون الإسرائيلي، ولو كان يهودياً في نصفه أو ربعه فقط، وكل يهودي أينما ولد، أو عاش، هو إسرائيلي حتماً» وأضاف: «لإزالة أي التباس أقول إن كل يهودي في روسيا يحمل الجنسية المزدوجة». وبسبب خلافه مع سوروس، الملياردير اليهودي، قام يلتسين بعزله من منصبه في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٧ م، لكنه نجح في العودة ثانية إلى منصب أهم، وهو السكرتير التنفيذي لرابطة الدول المستقلة، وذلك في أواخر نيسان/ إبريل ١٩٩٨ م، وقد لقي تعيينه انتقادات واسعة من قبل المعارضة الروسية، ولكن يلتسين زعم أن تعيين بيريزوفسكي جاء بناء على اقتراح الرئيس الأوكراني، ولكن أحداً لم يصدق هذا الزعم[١] حتى يلتسين نفسه وهكذا أصبح بإمكان بيريزوفسكي توسيع مجالات التغلغل الصهيوني إلى أجهزة الحكم في دول الرابطة، وفي مقدمتها الدول الإسلامية. وقد أعلن بيريزوفسكي مؤخراً أنه مع عدد آخر من أصحاب البنوك اليهود يسيطرون على خمسين بالمئة من الاقتصاد الروسي، وصرح: «نحن اليهود الذين استأجرنا تشوبايس، ونحن الذين قدمنا الضمانات لفوز يلتسين ويحقُّ لنا أن نحصد ثمار انتصارنا، وأن نشغل أعلى المناصب الحكومية».

٥ ـ «سيرجي كيرينكو»: إمعاناً من الرئيس يلتسين في تهويد الحكم الروسي بكامله فقد قام بتعيين كيرينكو رئيساً للوزارة الروسية وعمره لا يتجاوز «٣٥» سنة، وبسبب تصاعد المعارضة في البرلمان لتعيين كيرينكو أعلن كيرينكو أن اسم عائلته الحقيقي هو «إسرائيتل» المشتق من إسرائيل، أما كيرينكو فهو اسم عائلة والدته الأوكرانية الذي استقر عليه سيرجي كيرينكو لتفادي المتاعب التي يجرها عليه اسم «إسرائيتل». وقد تمسك به يلتسين رغم أن البرلمان صوَّت مرتين ضد تعيينه، إلا أنه في المرة الثالثة اضطر إلى الموافقة على تعيينه خوفاً من لجوء يلتسين إلى حل البرلمان حسب مواد الدستور. ماذا يعني تعيين كيرينكو؟ ولماذا عارض الروس تعيينه؟ لقد عارض الروس كل الروس هذا التعيين خوفاً من أن يصبح كيرينكو

---

(١) انظر جريدة الاتحاد عدد ٦/ ٥/ ١٩٨٨ م مقال د. أحمد الخميسي ـ المخططات الأمريكية تبتلع رابطة الدول المستقلة.

رئيساً لروسيا بين ليلة وضحاها في حالة عجز، أو موت يلتسين، لأن دستور يلتسين ينص على تولي رئيس الوزراء منصب الرئاسة. وقد شن محافظ «كراسنادا نيقولاي كوندرانتكو» هجوماً علنياً كاسحاً على اليهود في ٣ آذار/مارس ١٩٩٨ م، وفي اجتماع ضخم مع شباب المحافظة أطلق فيه على اليهود كلمة «الجيد» وهي تحقير في اللغة الروسية لليهود الماسونيين الجدد، وقد كرر وصف الصهاينة بالحقراء «٦١» مرة خلال خطابه القصير وأكد[١] أن التاريخ الروسي كله ليس سوى صراع القوى الوطنية ضد المؤامرات اليهودية، وقال: «إن اليهود يعملون بما جاء في بروتوكلات حكماء صهيون للسيطرة على مقاليد الحكم في روسيا، وتنحية العناصر الروسية». وأضاف أنه يتلقى مكالمات من جهات عليا بموسكو تنصحه بتعيين هذا الشخص أو ذاك، «لكني مهما قلبت النظر فيه أجده من غير الروس». وهكذا خضعت روسيا للنفوذ الصهيوني بل للحكم الصهيوني. لقد بنى الروس آمالاً عريضة على انهيار القاهر الأكبر «الاتحاد السوفييتي»، ولكن البديل كان مملكة الصهيونية. ومن سوء حظ الشعب الروسي أن الصهاينة هم الذين قادوا عمليات الإصلاح في عهد يلتسين، وبدلاً من الإصلاح حلَّ الخراب والدمار والجوع والأزمات وفقدان الأمن وتسلط عصابات المافيا، وتحولت روسيا بسبب التخريب الصهيوني إلى دولة فقيرة تتسول من البنوك الدولية لتأمين لقمة العيش لمواطنيها، والأخطر من ذلك كله أن روسيا عادت في ظل الهيمنة الصهيونية إلى سياسة القتل والتنكيل والتدمير، وأول الغيث تدمير جمهورية الشيشان الإسلامية وقتل «١٠٤» آلاف من سكانها، ومعظمهم من الأطفال والنساء والشيوخ، وغداً سيأتي دور شعب مسلم آخر ليذبح وتدمر ممتلكاته. ومن الجدير ذكره في الختام أن وسائل الإعلام الروسية الخاضعة للسيطرة اليهودية شبه الكاملة، تقوم وبشكل واضح بتشويه سمعة المسلمين في روسيا وخاصة في القوقاز، ويؤكد إمام وخطيب مسجد[٢] «ساراشوف» وزعيم

---

(١) انظر جريدة الاتحاد وعدد ٢٢/٤/١٩٩٨ مرجع سابق. ويضاف إلى هؤلاء الملياردرات اليهود الخمسة ألكسندر سمولينسكي صاحب المجموعة المالية الاستثمارية «سوليتشن بنك» ويعمل في شركاته ربع مليون روسي وكتبت عنه الفايننشال البريطانية تقول «إن سمولينسكي أحد ثلاثة رجال أعمال يديرون الأمور في روسيا هو وبيرزوفسكي وجوسينسكي».

(٢) انظر ملف جريدة البيان الصادرة في دبي العدد ٣٩٢ تاريخ الجمعة ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر=

مسلمي الفولجا العلاَّمة الفقيه «مقدس بيبارسوف» أن المنظمات الصهيونية تعاونت مع الكنيسة الروسية للحد من نمو الإسلام في روسيا، وبادرت بالتغلغل داخل الجماعات والاتحادات الإسلامية، وزرعت جواسيس داخل الجماعات والاتحادات الإسلامية، وبعض هؤلاء الجواسيس وصل إلى مناصب قيادية ومن القيادات الإسلامية التي تحوم حولها الشبهات إمام مسجد موسكو «راويل اسماعيلوفتش» وكذلك مفتي المسلمين الروس «طلعت تاج الدين»، ويذكر أنه لم يعترض على الإجراءات القمعية التي نفذها السوفييت، ولا حتى على هدم المساجد ولا نشر سياسة الإلحاد، وكذلك الشاب «عبد الواحد نيازوف» وهو شاب «٢٨» سنة الذي يترأس الآن ما يسمى بالمركز الثقافي الإسلامي، وأصبح عام ١٩٩٥ م أحد القادة البارزين في اتحاد مسلمي روسيا. ويضاف إلى هؤلاء «جيدار جمال» وهو صديق حميم للزعيم القومي المتطرف «فلاديمير جيرنوفسكي». وتقول المصادر الإسلامية الروسية إن المخابرات السوفييتية كانت تستخدم جيدار جمال للتجسس على المسلمين في الاتحاد السوفييتي. وأخيراً «أحمد خاليدوف» مؤسس منظمة «اتحاد مسلمي روسيا» عام ١٩٩٥ م، وهو في نفس الوقت عضو في قيادة الحزب القومي المتطرف الذي يرأسه «فلاديمير جيرنوفسكي» المعروف بعدائه للإسلام، وهناك قيادات إسلامية أخرى في روسيا تحوم حولها الشبهات، وهكذا يتضح أن الصهاينة لم يكتفوا بتخريب روسيا اقتصادياً وسياسياً، بل نراهم يحاربون الإسلام ويسعون للحيلولة دون انتشاره.

= ١٩٩٨ م، ص ١٣، مقال د. مغازي البدراوي «اليهود يشوهون الإسلام في روسيا».

الفصل التاسع

وقائع الثورة الشيشانية

(١٤١٤ ـ ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٣ ـ ١٩٩٦ م)

لمحة عامة عن جمهورية الشيشان الإسلامية:

«اشكيريا» الشيشان: اسم لقرية صغيرة تقع على نهر أرغون، وقد حصلت فيها المعركة الأولى بين سكان القوقاز الشمالي والروس عام ١٧٢٢ م[١].

تبلغ مساحة الشيشان نحو «١١٣٠٠» كم^{٢} وتقع في نقطة الامتدادات الشمالية لجبال القوقاز، ويحدها من الشمال والشرق بلاد داغستان، ومن الغرب جمهورية الأنغوش واسيتيا الشمالية، ومن الجنوب جورجيا. ولهذا الموقع أهمية كبيرة فهي تقع في النقطة المركزية من القوقاز، والسيطرة عليها تعني بالتالي التحكم في شمال القوقاز بأكمله، كما أن أنابيب النفط الأذربيجاني تمر عبر الشيشان.

سكان الشيشان: يبلغ عدد سكان الشيشان طبقاً لآخر إحصاء أجري في الشيشان عام ١٩٩١ م «١,٤٥٠٠٠٠» منهم مليون شيشاني و«٣٠٠» ألف روسي، و١٠٠ ألف أنغوشي، و٢٠ ألف داغستاني، و«١٤» ألف أرمني[٢]. وخمسة آلاف تتاري، و«٤٠٠٠» تركي، أما اليهود الذين لا يتجاوز عددهم الخمسة آلاف فقد استطاعت إسرائيل أن تنقلهم إلى تل أبيب عن طريق روسيا، مستغلة تدهور الأوضاع في الشيشان في أعقاب الغزو الروسي. أما **الانتماء**، فينحدر الشيشان

---

(١) ورد هذا التعريف في محاضرة للدكتور عادل عبد السلام، مدرس في جامعة دمشق قسم الجغرافيا، ويعد من كبار الباحثين في شؤون القوقاز. وقد ألقى المحاضرة في حمص في شهر تموز/ يوليو ١٩٩٥ م.

(٢) راجع كتاب «مأساة إخواننا الشيشان»، تأليف الدكتور فهد العصيمي، السعودية ١٩٩٧ م.

كشعب قوقازي من سلالة الشراكسة، سكان شمال القوقاز، الذين توزعوا بين شعب الوياخ «أصل الشيشان» والأديغة، والأستين، والداغستان. وقد اشتهروا بالفروسية، والقوة، والوسامة وطول القامة، حيث يقول عنهم الروس «خصومهم التاريخيون» إنهم فرنساويو القوقاز، سريعو الخاطر، أذكياء بالفطرة مرحون قدر ما هم مقاتلون!

أهم المدن: غروزني[1] العاصمة ويبلغ عدد سكانها ما يزيد عن «٤٠٠» ألف نسمة وقد بناها الجنرال الروسي «يرمولوف» عام ١٨١٨ م حين عيَّنه القيصر اسكندر الأول قائداً للقوات القيصرية، وقد حدد موقعها على رابية حول نهر «السونجا» لتشرف على مسالك غاية في الدقة نحو أحراش البلاد الصغيرة، التي كانت ثوراتها تدوخ روسيا، وتقلق قياصرتها على الدوام. وقام **يرمولوف** بتحصين غروزني وشيَّد فيها العديد من القلاع الحصينة، أشهرها قلعة «بريجرادني»[2]. ولفظ غروزني يعني المرعب، وتُعدُّ غروزني مركزاً صناعياً وتجارياً وسياسياً وثقافياً. ومن المدن الهامة في جمهورية الشيشان: «غودرميس» وتقع على بعد ٥٠ كم من غروزني، و«ساما شكي» و«زاندك»، و«مالكوبيك»، و«أوروس مارتان» و«خسفيورت» و«الخان يورت» وغيرها.

الاقتصاد الشيشاني: يشكل البترول الدعامة الأساسية للاقتصاد الشيشاني، وأهم مناطق إنتاجه تقع في المنطقة الممتدة بين غروزني وغودرميس وقرب مالكوبيك. وأكبر مصانع تكرير النفط تقع في غروزني، ويصدر الشيشانيون نفطهم ومشتقاته إلى البلاد الأخرى عن طريق أنابيب من الشيشان إلى «محج قلعة» في داغستان على شاطىء بحر قزوين، وإلى «توآبه» على ساحل البحر الأسود، وإلى حوض الفحم في «دونيتس». أما مصانع إنتاج الماكينات والأجهزة الضرورية لصناعات البترول والصناعات البتروكيماوية فتتركز كلها حول العاصمة غروزني.

---

(١) راجع مجلة العربي الكويتية، العدد ٤٣٨ أيار/ مايو ١٩٩٥ م، مقال عبد المنعم الأعسم ص ٣٣ مرجع سابق.

(٢) بعد نهاية حرب الاستقلال أعلن قادة الشيشان أن اسم غروزني قد أصبح من الآن فصاعداً «جوهر» وذلك تيمناً باسم القائد التاريخي الشهير «جوهر دودايف» باني استقلال الشيشان.

وإلى جانب البترول وصناعاته هناك صناعات شيشانية مؤثرة في الاقتصاد الشيشاني، مثل الصناعات الغذائية، وقطع الأخشاب، والأجهزة المتعددة؛ ويشكل الفحم والغاز الطبيعي أهم الثروات الطبيعية بعد البترول. أما الزراعة فهي على الأكثر تنتشر حول نهر «ترك» وتحتل زراعة الفواكه والقمح والذرة، والكرمة، ودوار الشمس، والتفاح، أهمية كبيرة. وتشتهر بتربية الحيوانات، وهي من أغنى مناطق القوقاز بالعسل، وبمختلف أنواعه لكونها غنية بالأشجار والأزهار.

الإسلام والشيشان: يذكر المؤرخون أن الشيشانيين دخلوا في الإسلام ببطء، ولكن بثبات وصلابة، وواصلوا اعتناقهم الإسلام خاصة في عهد خانية «آلتون أوردو» في القرنين الثالث عشر، والرابع عشر. وصحيح أن تيمورلنك قضى على هذه الدولة، لكنه أراد أن يغرس الإسلام هناك، إلا أن سلوكه اتسم بالشدَّة، وأحدث آثاراً سلبية على الشيشان. وبعد انسحاب تيمورلنك أخذ الإسلام يسري مرة أخرى في الشيشان بتأثير مسلمي داغستان وأذربيجان، ووصل إلى نهايته في القرن الثامن عشر، وفي أواسط هذا القرن أخذ الإسلام ينتشر بين الأنغوش، أقارب الشيشان، فأصبح الإسلام هو الدين السائد في بلاد الشيشان والأنغوش، وقد أراد القياصرة استئصال الإسلام في هذه المنطقة بعد عام ١٨٥٩ م، وهو العام الذي استولى فيه الروس على القوقاز، واستمرت هذه السياسة[1] حتى سقوط الاتحاد السوفييتي ١٩٩١ م، والشاشانيون سنيُّون يتبعون المذهب الشافعي، وقد انتشرت الصوفية بطريقيها النقشبندية والقادرية في الشيشان، خاصة بعد الاحتلال الروسي. والشيشان أمة لا تعرف الهدوء، ولا الاستكانة، أمام أي خطر استعماري، وقاوموا كما ذكرنا سابقاً الاستعمار الروسي في العهدين القيصري والشيوعي، وقام الروس في العهدين المذكورين بتشتيت الشعب الشيشاني ست مرات، كان آخرها عام ١٩٤٤ م عندما أجبر ستالين نصف مليون شيشاني للهجرة إلى كازاخستان وسيبيريا، ولم يُسمح لهم بالعودة إلا في عهد خروتشوف ١٩٥٦ م، وعلى الرغم من أن الحكم الشيوعي استمر في اضطهاده المسلمين، وفي نشر سياسة الإلحاد،

---

(١) راجع كتاب: «مأساة إخواننا في الشيشان»، الدكتور فهد العصيمي، مرجع سابق. ومقال «عادل المكنيزي» «الشاشانيون وبداية مرحلة جديدة» المنشور في جريدة الجزيرة السعودية، ملحق آفاق إسلامية عدد ١ شعبان ١٤١٧ هـ ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٦ م.

وغسل أدمغة الشعوب، واستئصال معتقداتها الدينية، إلا أنه والحق يقال: إن شعوب القوقاز، وفي المقدمة شعب الشيشان، ظلت متمسكة بالإسلام، فحتى عندما كان الشيشانيون خاضعون لحكم موسكو الشيوعية، فقد انفردوا عن سائر المناطق القوقازية والإسلامية الأخرى الخاضعة للروس بتعطيل العمل أيام الجمعة عطلة رسمية، بدلاً من السبت والأحد، ولم تنجح السياسة الروسية، ولا الثورة الثقافية في نشر الإلحاد بشكل واسع بين الشيشان، بل تمسك الشيشان بالإسلام وبالمساجد التي تعدُّ من رموز الإسلام الهامة. ففي عام ١٨٣٧ م كان في الشيشان «٣١٠» جوامع مفتوحة للعبادة. وفي العهد الشيوعي الذي قام بتدمير ما أمكنه تدميره من المساجد فقد استطاع الشيشان الاحتفاظ بـ ١٥٥ مسجداً. بقي أن نذكر أن الشيشانيين كانوا يستخدمون اللغة العربية في كتابة اللغة الشيشانية، وبعد ثورة ١٩١٧ قام السوفييت بإلغاء استخدام الحروف العربية، ويفسر هذا الإجراء على أنه كان يستهدف بالدرجة الأولى الحدّ من نفوذ الزعماء الدينيين الذين تزعموا الكفاح والمقاومة ضد الاستعمار الروسي.

وقائع الثورة الشيشانية

رأينا في الفصول السابقة كيف مارس القياصرة، ومن بعدهم الحكم الشيوعي، سياسة القتل والتدمير والإبادة الجماعية بحق سكان القوقاز، وبخاصة الشراكسة، لذلك ظل الشراكسة يختزنون مشاعر الكراهية والحقد إلى أن جاء وقت انهيار القاهر الأكبر، وجاءت بداية الانهيار، مع وصول غورباتشوف إلى قمة السلطة السوفييتية، في ١٢ آذار/مارس ١٩٨٥ م، وعندما أعلن سياسة الانفتاح أخذ المسلمون في القوقاز، وبخاصة في الشيشان، يتحفزون ويتحينون الفرص للخلاص من براثن الدب الروسي، وعندما بدأت الدول التي خضعت قسراً للاتحاد السوفييتي تطالب بحريتها وباستقلالها، تحرك الشيشان وطالبوا بنفس الحق، بدءاً من عام ١٩٩١ م. ويعتقد الباحثون أن الثورة الشيشانية الهادفة إلى الاستقلال عن روسيا كانت أمراً طبيعياً تماماً، وذلك لأن استقلال الشيشان كان هدفاً راسخاً في وجدان وضمير كل شيشاني، وتناقلته الأجيال، وتربت عليه وحفظته النفوس، لذلك كان من الطبيعي أن تنفجر هذه الثورة الشيشانية القومية مع انفجار ثورة

القوميات في الاتحاد السوفييتي. ومن الملاحظ أنه إذا كانت القوميات التي عاشت قسراً ضمن الاتحاد السوفييتي قد نجحت في تحقيق الاستقلال، وهدم الاتحاد السوفييتي دون نضال. فإن القومية الشيشانية كان عليها أن تثور مرتين وأن تطالب بالاستقلال على مستويين: الأول من الاتحاد السوفييتي في أواخر أيامه، والثاني في روسيا الاتحادية التي استقلت هي بدورها عن الاتحاد السوفييتي ولكنها وبعد أن حصلت على حقها في الاستقلال، وعلى الرغم من مشاكلها الكبيرة فقد عملت على أن ترث الاتحاد السوفييتي في القوقاز. وتسهيلاً لدراسة الثورة الشيشانية أرى من المناسب أن أقسمها إلى ثلاث مراحل:

١ ـ الثورة الشيشانية في عهد جوهر دودايف.
٢ ـ الثورة الشيشانية في عهد ياندربايف.
٣ ـ الثورة الشيشانية في عهد أصلان مسخادوف.

مرحلة جوهر دودايف:

لمحة إلى شخصية جوهر دودايف: ولد الرئيس جوهر دودايف في ١٥ نيسان/ إبريل عام ١٩٤٤ م في الشيشان، وتربى في كنف عائلته المؤلفة من سبعة أفراد، وبعد ولادته بشهر واحد هُجِّر مع الشيشانيين الذين نفاهم ستالين إلى كازاخستان وسيبيريا، ليعود بعد «١٣» سنة من المنفى وهو مُصمم على أن يصبح عسكرياً في الجيش السوفييتي، ولم يبق هذا التصميم حلماً، ففي عام ١٩٧٤ م انتسب الشاب جوهر دودايف إلى الأكاديمية العسكرية «غاغارين»، المخصصة للنخبة العسكرية، وانتسب كذلك للحزب الشيوعي في الثالثة والعشرين من عمره، وبعد تخرجه من كلية «غاغارين» أصبح أول جنرال شاشاني في الجيش السوفييتي، وبعد ذلك شارك في الحرب الأفغانية كطيار. وفي عام ١٩٨٩ م أصبح دودايف رئيساً لوحدة القصف الاستراتيجي في «تارون» الواقعة في جمهورية «استونيا» البلطيقية، وهناك تضامن وتعاطف مع الاستقلاليين الأستونيين الذين كلفوه برفع علم استونيا المستقلة على واجهة القاعدة العسكرية التي كان دودايف قائداً لها، ولم ينس الأستونيون هذا الموقف الجريء لدودايف، فعندما ازداد الإصرار الروسي على إسقاط «غروزني» عرض المسؤولون في استونيا على دودايف اللجوء إليها مع زوجته وأولاده الثلاثة، ولكن زوجته الروسية وأولاده فضلوا البقاء في غروزني حيث جرح ابنه «أفلور»

الشهيد جوهر دودايف

دودايف استشهد بالفعل . .
بعدما أخرج شعبه من نطاق روسيا

خلال معارك الاستقلال، كما كرّمه اللاتفيون بعد استشهاده وأطلقوا اسمه على شارع رئيسي في عاصمتهم «ريجا»[1].

استقال دودايف من الخدمة العسكرية في استونيا، وعاد إلى الشيشان في أوائل كانون الثاني/ يناير ١٩٩١ م، في ذلك الوقت لم يكن دودايف معروفاً من قبل مواطنيه الشيشان، ولكنه سرعان ما ظهر في مجلس الشعب الشيشاني مطالباً باستقلال بلاده عن روسيا الاتحادية، وفي آذار/ مارس ١٩٩١ م انتخب دودايف زعيماً للمؤتمر القومي الشيشاني العام، واعتمد على هذا المؤتمر في إقالة حكومة «ذوكوزافجايف» آخر حكومية شيوعية في الشيشان، وذلك في الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ م بدعم وتأييد من الكرملين، ومن بوريس يلتسين شخصياً. وحتى عندما قام الانقلاب العسكري في ١٩ آب/ أغسطس ١٩٩١ م ضد غورباتشوف، وقف دودايف مدافعاً عن الشرعية وتحالف مع الرئيس الروسي بوريس يلتسين ضد غورباتشوف، وضد السكرتير الأول للحزب الشيوعي في الشيشان، الذي كان يُصر على استمرار صيغة الاتحاد السوفييتي. وهكذا كسب جوهر دودايف عطف الديمقراطيين الروس، لكن شهر العسل بينه وبينهم لم يدم طويلاً، فسرعان ما وصل يلتسين إلى السلطة بعد إزاحة غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفييتي، وفي ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١ م جرت انتخابات[2] رئاسية في الشيشان شارك فيها أكثر من ٨٠٪ من الشعب الشيشاني، وكانت النتيجة فوز جوهر دودايف بمنصب الرئاسة، وحصل على تأييد ٨٥٪ من الشيشان، وقد جرت هذه الانتخابات تحت إشراف «٢٧» دولة معترف بها في الأمم المتحدة ووقع المراقبون الدوليون، وليس الشيشان، على صحة نتائج الانتخابات، وأكدوا نزاهتها[3]، وهكذا أصبح

---

(١) في الواقع وجدت صعوبة في كتابة هذه النبذة عن حياة الشهيد جوهر دودايف، لأن الصحف العربية لم تول أي اهتمام لهذه الشخصية النادرة، وكذلك لم أعثر إلا على القليل من الدراسات المترجمة عن سيرة الرجل، لذلك قمت بجمع نتف من هنا ونتف من هناك واستمرت العملية ثلاث سنوات حتى تمكنت من جمع هذه النبذة المتواضعة عن حياة جوهر دودايف والتي لا تفيه حقه.

(٢) راجع مجلة الكفاح العربي العدد ٨٦١ عدد ٣٠/ ١/ ١٩٩٥ م.

(٣) راجع جريدة الاتحاد الظبيانية عدد ٣ شعبان ١٤١٥ هـ ٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥ م واقرأ نص الحوار بين أحمد الخميسي وروسلان شاميف، نائب وزير الخارجية الشيشانية.

دودايف رئيساً شرعياً للشيشان باعتراف دول العالم، وغداة انتخابه أقسم اليمين على القرآن الكريم، ولم يقسم على الدستور الروسي، ويذكر المقربون منه أنه اعتاد على قراءة القرآن الكريم، وكان يضعه دائماً أمامه باستمرار، وكان القرآن رفيق دربه أينما ذهب، ولكن هذا لا يعني أن جوهر دودايف «أصولياً» بل مسلماً عادياً كبقية المسلمين، ولم يكن متشدداً، أو متعصباً، بل كان معتدلاً في كل شيء.

إعلان الاستقلال: في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١ م اجتمع المؤتمر القومي الشيشاني برئاسة الرئيس المنتخب جوهر دودايف، وفي نهاية الاجتماع أعلن دودايف استقلال جمهورية الشيشان. ثم جرت انتخابات برلمانية وتم تعيين وزارة شيشانية، ومحكمة خاصة بالشيشان، وتم وضع أول دستور للبلاد. وقد نص الدستور الشيشاني على أن الأديان منفصلة عن أعمال الدولة، ونص أيضاً على تمتع جميع الفاعليات والأنشطة الدينية بدعم الدولة وتأييدها. وتم الإعلان عن تأسيس معهد الدولة للدراسات الإسلامية بالعاصمة غروزني، ودعمت الحكومة الشيشانية الجديدة المركز الثقافي الإسلامي في العاصمة، كما أرسل دودايف وفوداً شيشانية إلى الأقطار الإسلامية للتعريف بالقضية الشيشانية، ومن الوفود التي وصلت إلى أقطارنا العربية وصل وفد شيشاني إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وللتعريف بالقضية الشيشانية، وكان الوفد يتكون من «١١» شخصاً بينهم أساتذة في الجامعات برئاسة مستشار جوهر دودايف، الأديب والنائب البرلماني ورئيس اتحاد جمهوريات شمال القوقاز الأستاذ «سيد أحمد سيد لاليف»، وقد جاء الوفد من الشيشان إلى مكة المكرمة مشياً على الأقدام، وقد بدأت رحلة الوفد في الأول من شباط/فبراير ١٩٩٤ م، مروراً بأذربيجان، ونحشوان، وتركيا، وسوريا، والأردن حتى الأراضي السعودية، وصرح رئيس الوفد أن جوهر دودايف كان يرغب أن يكون بين أفراد هذه المجموعة ليؤدي فريضة الحج ويكسب الأجر مضاعفاً، ولكن انشغاله باستقلال بلاده منعه من السفر للحج واحتراماً للأقليات الموجودة في جمهورية الشيشان فقد أعلنت الدولة عن إعادة افتتاح كنيسة غروزني والمعبد اليهودي فيها، وذلك بعد أن فتحت الدولة كل الجوامع التي أغلقها الروس وقامت بترميمها[١].

---

(١) انظر جريدة الشرق الأوسط» العدد ٥٩٠٥ عدد السبت ٢٨/١/١٩٩٥ م.

ثم قامت السلطات الشيشانية، وبمبادرة من جوهر دودايف، باتخاذ قرار بإنشاء الجمهورية الإسلامية الشيشانية، وتم وضع العلم الشيشاني الذي يحتوي على عدة ألوان «الأخضر، الأبيض، الأحمر». أما شعار الشيشان فقد حُدد على شكل «صورة الذئب الوحيد» وتم وضع النشيد الوطني الشيشاني ويعد هذا النشيد بمثابة قسم تعهد الشيشانيون بموجبه على تقديم أثمن ما لديهم من أجل تحقيق الاستقلال، وفعلاً كانوا عند قسمهم، وتمسكوا بكل حرف من حروف هذا النشيد. وفيما يلي نص النشيد الوطني الشيشاني وهو من كلمات: «أبو ذر أيد ميرو» وهو كاتب ومؤرخ شيشاني وقد لحنه الموسيقار «ديماييف عليف» وهو أشهر موسيقار في شمال القوقاز، وهو شيشاني الأصل[1]:

في ليلة مولد الذئب خرجنا إلى الدنيا.
وعند زئير الأسد في الصباح سمّونا بأسمائنا.
وفي أعشاش النسور أرضعتنا أمهاتنا.
ومنذ طفولتنا علمنا آباؤنا فنون الفروسية.
والتنقل بخفة الطير في جبال بلادنا الوعرة.
لا إله إلا الله
لهذه الأمة «الإسلامية»، ولهذا الوطن ولدتنا أمهاتنا.
ووقفنا دائماً شجعاناً، نلبي نداء الأمة والوطن.
لا إله إلا الله
جبالنا المكسوة بحجر الصوان.
عندما يدوي في أرجائها رصاص الحرب.
نقف بشرف وكرامة على مر السنين.
نتحدى الأعداء مهما كانت الصعاب.
وبلادنا عندما تتفجر بالبارود.
من المحال أن ندفن فيها إلا بشرف وكرامة.

---

(١) انظر جريدة الشرق الأوسط الصادرة في لندن، العدد ٥٩٠١ تاريخ ٢٤/ ١/ ١٩٩٥ م حيث نشرت نص نشيد الشيشان في العدد المذكور.

لا إله إلا الله

لن نستكين أو نخضع لأحد، إلا لله
فإنها إحدى الحسنيين نفوز بها
الشهادة أو النصر.
لا إله إلا الله.
جراحنا تضمدها أمهاتنا وأخواتنا بذكر الله
ونظرات الفخر في عيونهن تثير فينا مشاعر
القوة والتحدي
لا إله إلا الله

إذا حاولوا تجويعنا سنأكل جذور الأشجار.
وإذا مُنع عنا الماء سنشرب ندى النبات.
فنحن في ليلة مولد الذئب خرجنا للدنيا.
ونحن دائماً سنبقى مطيعين لله والوطن،
وهذه الأمة
لا إله إلا الله

«انتهى نص النشيد»

اعتمد الرئيس الشيشاني جوهر دودايف وراهن منذ أن طرح مبدأ استقلال الشيشان على الحقوق الشرعية والدولية، وعلى حق الشيشان الدستوري في الانفصال عن روسيا، ولم يخلّ دودايف ببند واحد من بنود الدستور السوفييتي الذي صدر عام ١٩٧٧ م وذلك عندما رفع مطلب الاستقلال، ففي الدستور السوفييتي توجد المادة الثالثة التي نصت وبوضوح تام، على أنه: «إذا خرجت إحدى الجمهوريات من قوام الاتحاد السوفييتي فإنه يحق بالتالي للجمهوريات الأخرى التي تدخل في نطاق الجمهورية المنفصلة أن تنفصل هي الأخرى وتستقل». وما دامت روسيا قد خرجت من نطاق الاتحاد السوفييتي فإنه يحق للشيشان الانفصال عن روسيا ومن حقهم الاختيار أن يبقوا ضمن نطاق الاتحاد السوفييتي، وعندما خرجت روسيا، وأوكرانيا، وبيلاروسيا من الاتحاد السوفييتي

نهاية عام ١٩٩١ م وفقاً لاتفاقية «بيلافوجسكايا» فقد أصبح من حق الشيشان الانفصال عن روسيا. وهكذا اعتمد الشيشانيون على حقهم الشرعي الذي اعترف به دستور روسيا السوفييتية؛ وبعد أن أعلن الشيشان استقلالهم لم يشاركوا لا في الانتخابات البرلمانية ولا الرئاسية التي جرت في روسيا، كما لم يشاركوا حتى في الاستفتاء على الدستور الروسي في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣ م، وهكذا اعتمد الشيشان على شرعية حركتهم واتساقها وانسجامها مع الدستور السوفييتي، واعتقدوا أن المجتمع الدولي سيقدر موقفهم ويدعم استقلالهم الشرعي وخاصة أن انتخاب جوهر دودايف عام ١٩٩١ م قد تم تحت الشعار الذي أطلقه الرئيس بوريس يلتسين للجمهوريات كافة حين قال: «خذوا قدر ما تستطيعون من السيادة».

تصفية الوجود السوفييتي في الشيشان: بعد أن أعلن دودايف الاستقلال ازدادت شعبيته في أوساط الشعب الشيشاني باعتباره أول رئيس منتخب من أبناء الشيشان منذ أن قضت السلطات الشيوعية على حكومة شمال القوقاز عام ١٩٢١ م. وبادر إلى تصفية الوجود السوفييتي في الشيشان بجميع أشكاله وصفاته ورموزه، ولتحقيق هذه الغاية أصدر جوهر دودايف في خريف عام ١٩٩١ م قراراً يقضي بالاستيلاء على مستودعات السلاح الضخمة الموجودة في الشيشان، وأمر بمحاصرة الحاميات العسكرية الروسية بالمسلحين الشيشان الذين كانوا يهاجمون بأسلوب مبتكر[١]، وذلك بأن يتقدمهم حشود من النساء والأطفال ليضمنوا امتناع الجنود الروس عن إطلاق النار عليهم، وكانت هذه العمليات تجري بقيادة القائد الميداني الشيشاني «شامل باساييف». وفي ٣١ أيار/ مايو ١٩٩٢ م أصدر جوهر دودايف مرسوماً رئاسياً حظر فيه إخراج السلاح من جمهورية الشيشان، وما بين أيار/ مايو وتموز/ يوليو ١٩٩٢ م تركت القوات الروسية جميع الأسلحة الثقيلة وغالبية الأسلحة الأخرى، وانسحبت من الشيشان. وقد أقدمت السلطات الروسية على هذه الخطوة بسبب الأوضاع السياسية في البلاد عموماً، وظهرت في غروزني سوق سلاح كبيرة لا مثيل لها في العالم، حيث يستطيع الإنسان شراء أي سلاح هناك من الأسلحة المصادرة من مستودعات الجيش الروسي. وفي ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر أصدر يلتسين أمره بفرض حالة الطوارىء في الشيشان، وفي ٩

---

(١) انظر جريدة الشرق الأوسط، عدد ٢٩/ ٧/ ١٩٩٥ م.

تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١ م طارت قوة عسكرية روسية إلى غروزني لفرض حالة الطوارىء، لكن عشرات الآلاف من المواطنين احتشدوا في مطار غروزني، ومنعوا القوات الروسية من الهبوط. وفي إثر هذه المحاولة الروسية قام جوهر دودايف بتعزيز النظام، بعد الاستيلاء على المؤسسات والدوائر الرسمية ومستودعات السلاح، وبدأ بتشكيل وحدات الجيش الشيشاني، وبتشكيل الكتيبة الإسلامية لمن يرغب من مسلمي القوقاز في التطوع لنصرة الشعب الشيشاني، وقام بتدريب «١٥٠٠٠» ألف شيشاني على السلاح وفنون القتال، وذلك استعداداً للدفاع عن استقلال بلاده وحريتها وأمن مواطنيها وسلامة أراضيها.

موقف موسكو من إعلان استقلال الشيشان:

لا شك أن اختيار الرئيس جوهر دودايف الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١ م موعداً لإعلان الاستقلال يدلُّ على حنكة سياسية، ويدل أيضاً على أن الرئيس دودايف يتمتع بذكاء وخبرة فائقة، فعندما أعلن استقلال الشيشان كانت الدولة السوفييتية تحتضر وتعيش آخر أيامها، كما أن الرئيس يلتسين لم يكن قد وطَّد سلطته، ورسخ أقدامه في روسيا الاتحادية بعد، وكان يواجه مشاكل كثيرة لذلك كانت ردة فعل الهيئات السوفييتية مع إعلان استقلال الشيشان ضعيفة ومُترددة وغير حاسمة، واكتفت هذه الهيئات بعدم الاعتراف بانتخاب جوهر دودايف، وواصلت التحضير لإجراء انتخابات في الشيشان في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١ م، وأصبحت الحكومة الشيشانية التي تمثل الاتحاد السوفييتي في الشيشان هي الجهة الوحيدة التي واجهت جوهر دودايف معتمدة على ولاء وزارة الداخلية السوفييتية في الشيشان. كما عكف مجلس السوفييت الأعلى على إعداد وثيقة لإعلان حالة الطوارىء في الشيشان، وتركزت الجهود السوفييتية على إجراء الانتخابات المقررة في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١ م بالاستناد إلى السوفييت الأعلى ووزارة الداخلية في الشيشان لمقابلة نتائجها بانقلاب جوهر دودايف، وأيضاً رفض الاعتراف بالانقلاب كأمر واقع، واتباع تكتيك لتطويق النظام الجديد الذي أسسه جوهر دودايف باستخدام وسائل الضغط الداخلية والخارجية والعمل بسرعة وحزم على عزل أجهزة الانقلاب والقضاء على السلطة الناشئة. أمَّا ردة فعل روسيا الاتحادية، فقد سارع يلتسين وحكومته إلى عقد المؤتمر الاستثنائي الخامس لنواب الشعب في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر

١٩٩١ م، وانتخب «روسلان حسب اللاتوف» وهو شيشاني رئيساً له، وأصدر المؤتمر قراراً يقضي برفض الاعتراف بالانتخابات التي جرت في الشيشان يوم ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩١ م واعتبرها غير شرعية، أما رئيس روسيا الاتحادية بوريس يلتسين فقد أصدر في ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١ م مرسوماً بتشكيل هيئة طوارىء للتعامل مع الوضع الناشىء في الشيشان، وتضمن المرسوم عبارات غامضة مثل استخدام جميع الإمكانات لحل الأزمة سياسياً، ودعم هيئات السلطة الشرعية والحركات الاجتماعية الساعية إلى استعادة الوضع الدستوري والشرعية، ورفض الاعتراف بالرئيس دودايف كرئيس للشيشان. وفي ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١ م أصدر يلتسين مرسوماً بإعلان حالة الطوارىء في الشيشان، لكن مفعول المرسوم استمر حتى يوم ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١ م فقط، ونصَّ البند السادس من المرسوم على إلغاء نتائج الانتخابات التي أجراها المؤتمر الشيشاني العام. ولكن بما أن الاتحاد السوفييتي لا يزال قائماً فإنه من غير الممكن تطبيق حالة الطوارىء إلا بعد الحصول على موافقة مجلس السوفييت الأعلى لروسيا الاتحادية في غضون «٧٢» ساعة من صدوره، وبالإضافة إلى ذلك فقد عارض المرسوم وزيران متنفذان هما «فيكتور بارانيكوف» وزير داخلية الاتحاد السوفييتي آنذاك و«ف. إيفانينكو» رئيس «الكي.جي.بي» لروسيا الاتحادية الذي أنشأه يلتسين مؤخراً، أما «ف. باكتين» رئيس «الكي.جي.بي» السوفييتي فأعلن أن صدور المرسوم كان مفاجأة بالنسبة له، وكذلك أعلن «بارانيكوف» وزير داخلية الاتحاد السوفييتي بصراحة أنه لن يطبق المرسوم. ومن الملاحظ أنه لم يؤيد المرسوم سوى الكسندر روتسكوي نائب الرئيس الروسي وبافل غراتشوف رئيس لجنة الدولة لشؤون الدفاع آنذاك، وروسلان حسب اللاتوف الشيشاني رئيس البرلمان الروسي المناوىء لجوهر دودايف. وبالنسبة لروسلان حسب اللاتوف فإن معارضته لاستقلال الشيشان واتصاله بقوى المعارضة التي حاولت الإطاحة بدودايف فيمكن تفسير موقفه بأنه كان يحاول أن يعطي نفسه دوراً باعتباره رجل المصالحة، ولذا كان يهاجم دودايف ويلتسين، ومن المؤكد أنه كان يتطلع إلى دور مماثل لدور «إدوار شيفرنادزه» في جورجيا؛ وبتعبير أوضح كان يطمح لرئاسة الشيشان. وهكذا تجلَّت في ظروف إعداد مرسوم فرض حالة الطوارىء وتنفيذه حقيقة الأوضاع في هيئات السلطة الاتحادية وانعدام التنسيق بين

الشهيد جوهر دودايف
مع مجموعة من المقاتلين
(نقلاً عن جريدة الاعتدال
كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥ م)

شيشاني دمرت مدافع الروس منزله يطهو
طعامه في قارعة الطريق في غروزني

الوضع في غروزني خلال الحرب (نقلاً عن جريدة الشرق الأوسط)

هذه السلطات الاتحادية التي كانت تنافس بعضها بعضاً. وعلى الرغم من أن يلتسين أرسل قوات عسكرية إلى الشيشان، إلا أن الطريف في الأمر أن المعدات الحربية نقلت إلى «موزدوك» في حين نُقل العسكريون إلى «فلادي قوقاز»، وقد ازداد الوضع تعقيداً بعدما بدأ دودايف بتسليح أنصاره، وعندها أعلنت غالبية النواب في السوفييت الأعلى خشيتها من وقوع مذابح وسفك دماء، ولهذا لم يحصل المرسوم على دعم البرلمان فأُلغي في ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١ م وتقرر إجراء تحقيق في الأحداث ولكن هذا التحقيق لم يتم، واستفاد جوهر دودايف من تخبط السلطات الروسية ومن الخلافات والتناقضات الكبيرة فيما بينها، وعزز موقفه أكثر فأكثر وأمسك بزمام الأمور في الشيشان. وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١ م أصبحت روسيا الاتحادية تتجاهل القضية الشيشانية وحتى أنها تخلت عن المحاولات لإخضاع جوهر دودايف، أو عزله، واكتفت ببدء المفاوضات مع الشيشان، ولكن هذه المفاوضات كانت عقيمة، ولم تؤدِ إلى أية نتيجة، لذا لجأت روسيا الاتحادية إلى أسلوب آخر وهو محاصرة الشيشان، وهي بلاد بريّة ليس لها أي منفذ على البحر، كما أنها محاصرة بجمهوريات وأقاليم سواء داخل الاتحاد الروسي، أو خارجه، وكلها تخضع لأجهزة الأمن الروسية التي فرضت حظراً شاملاً على جمهورية الشيشان. واستطاعت روسيا خلال أعوام ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤ م، أي السنوات الثلاث التي أعقبت استقلال الشيشان أن تمنع تطور الشيشان اقتصادياً واجتماعياً، كما أنها منعت السلاح والتدريب عن الجيش الشيشاني، وذلك في محاولة منها لمنع دودايف من تشكيل جيش قوي. وهكذا وقعت الشيشان في ضائقة اقتصادية إذ توقفت المصانع بنسبة ٨٠٪، واختفت المواد الأساسية من الأسواق، وانسحبت هذه الضائقة ليس على الشيشان فقط، بل على سائر جمهوريات القوقاز خوفاً من ثورة هذه الجمهوريات، وبعد أن فرضت روسيا على الشيشان حصاراً محكماً ركزت اهتمامها على معالجة قضية «تتارستان» ذات الأهمية الكبرى بالنسبة إلى روسيا، وملخص القضية أن «تتارستان» الواقعة داخل روسيا الاتحادية رفضت التوقيع على المعاهدة الاتحادية مع روسيا، وطالبت بوضع خاص ضمن الاتحاد الروسي، وعبَّر التتاريون عن رغبتهم الواضحة في الانفصال عن روسيا بعد أن استعادوا حريتهم السياسية

والدينية، بعد حظر فرضته الشيوعية طوال «٧٠» عاماً، لكن التتار اختاروا الأسلوب السلمي ولم يلجأوا للعنف، لأن بلادهم سهلية خالية من الجبال والمواقع الخصبة. وبعد مفاوضات طويلة مع السلطات الاتحادية الروسية توصل الطرفان إلى توقيع معاهدة حصل فيها التتار على صلاحيات واسعة، واعترفت موسكو بأن «تتاريا» دولة ذات سيادة مرتبطة بروسيا، إلا أن التتار يؤكدون أن المعاهدة مع روسيا لم تدفن حلم التتار بالاستقلال والانفصال التام عن روسيا وأعلنوا صراحة أن الوضع الحالي لا يسمح لهم بذلك، ولكنهم لن ينسوا هدف الاستقلال[١]. أما الشيشان فقد رفضوا رفضاً قاطعاً توقيع المعاهدة الاتحادية مع روسيا ١٩٩٢ م، وأصروا على تمسكهم باستقلالهم. أما الأنغوش وهم أقرب شعب من شعوب القوقاز إلى الشيشان والذين شكلوا معهم دولة واحدة منذ عام ١٩٣٧ م وحتى عام ١٩٩٢ م، فقد وافقوا على الانضمام إلى المعاهدة الاتحادية مع روسيا رغم أنهم يرغبون بالاستقلال، ولكنهم يخشون تبعاته ولذلك فضلوا البقاء ضمن الاتحاد الروسي طمعاً في أن تحميهم روسيا من «أوسيتيا» المسيحية المجاورة لهم، والتي لا تكف عن مهاجمتهم وضم أراضيهم إلى أراضيها. وهكذا انفصل الأنغوش عن الشيشان بحجة أن روسيا سوف تساعدهم في الحصول على أراضيهم، التي ضُمت عنوة إلى أوسيتيا الشمالية التي يشكل المسيحيون نسبة عالية من سكانها. وخلال هذه الفترة استغل دودايف انشغال روسيا بمشاكلها مع الأقاليم والجمهوريات الروسية الأخرى من أجل توطيد استقلال بلاده، ومن اللافت للنظر أن موقف السلطات الروسية من غروزني كان غريباً، ففي الوثائق الرسمية يجري الاعتراف ضمناً[٢] بأن «دودايف» رئيس جمهورية الشيشان، وحتى في كتاب بوريس يلتسين «مذكرات رئيس» الصادر في عام ١٩٩٤ م ورد اسم «دودايف» بصفته رئيساً للجمهورية ورئيساً لحكومة جمهورية الشيشان. وكذلك فإن المرجع

---

(١) راجع مجلة البلاد اللبنانية التي نشرت مقالاً عنوانه «تتارستان: قصة الصراع بين موسكو وقازان، في عدد السبت ٢ آذار/ مارس ١٩٩٦ م.

(٢) انظر جريدة الشرق الأوسط عدد ٢٩/٧/١٩٩٥ م حيث نشرت في عددها المذكور التقرير البرلماني الذي ناقشه مجلس الدوما الروسي في ختام دورته الربيعية عام ١٩٩٥ م والذي يدور بكامله حول الوضع في الشيشان.

الذي أصدرته حكومة روسيا الاتحادية في عام ١٩٩٥ م يذكر اسم دودايف بصفته رئيساً لجمهورية الشيشان، كما أن «شريف يوسفوف» اعتُمد لدى الحكومة الروسية منذ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩١ م بصفته ممثلاً شخصياً لجوهر دودايف في موسكو. وهكذا لجأت روسيا إلى أساليب متناقضة، فمن جهة فرضت حصاراً اقتصادياً على الشيشان، ومن جهة تعترف في وثائقها الرسمية بأن دودايف رئيساً لجمهورية الشيشان. وأخيراً قررت الاعتماد على المعارضة الشيشانية لإسقاط دودايف من دون أن تتدخل بشكل رسمي وعلني لإسقاط جوهر دودايف، ولكن هذا الأسلوب الأخير فشل أيضاً لأن دودايف تمكن أيضاً من التصدي للمعارضة التي خلقتها موسكو وألحق بها هزيمة نكراء.

المجابهة بين دودايف والمعارضة:

أكدت نتائج الانتخابات الرئاسية في الشيشان أن جوهر دودايف يتمتع بشعبية كاسحة، إذ حصل على أكثر من ٨٥٪ من مجموع الأصوات، والسؤال الآن كيف تكوّنت المعارضة؟ وما هو حجمها الحقيقي؟ الواقع أن المعارضة تمثلت بمجموعات صغيرة ضمت بقايا العهد الشيوعي البائد في الشيشان. وبعض المغامرين والطامعين في السلطة، وبالتالي لم يكن للمعارضة أيَّ رصيد شعبي حقيقي، وقد تكونت بدعم من موسكو في مطلع عام ١٩٩٢ م حيث تشكلت لجنة تنظيمية لاستعادة ما أسموه النظام الدستوري في جمهورية الشيشان وقد مارس «أحمد داودف» وزير الداخلية في الحكومة البائدة، وكذلك «عمر افتورخانوف» رئيس ما يسمى بالمجلس المؤقت الموالي لموسكو دوراً بارزاً في تشكيل هذا التنظيم المعارض. وأول عمل قامت به المعارضة بعد تشكيلها هو محاولة الاستيلاء على الإذاعة والتلفزيون، في غروزني في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٢ م، لكن جوهر دودايف هزم المعارضة ومنعها من تحقيق هدفها. ثم خططت موسكو لتوسيع نشاط المعارضة ونجحت في عقد مؤتمر حضره الشيشانيون القاطنون في الشتات لإظهار التأييد للمعارضة داخل الشيشان، وذلك في أذار/مايو ١٩٩٣ م. وفي ٥ حزيران/يونيو ١٩٩٣ م حاولت المعارضة تنظيم استفتاء للحصول على ثقة الناخبين ولإقصاء جوهر دودايف، ولكن هذا الاستفتاء أخفق أيضاً بسبب عدم مشاركة الشعب الشيشاني فيه، وهاجم رجال دودايف مراكز الاقتراع التي افتتحتها المعارضة وحدثت اشتباكات بين

الطرفين أدت إلى مقتل «٥٠» شخصاً؛ وهكذا فشلت المعارضة في إقصاء دودايف بالطرق السلمية. وفي النصف الثاني من عام ١٩٩٣ م لجأت المعارضة وبدعم من موسكو إلى إيجاد جيوب في مناطق مختلفة من الشيشان إذ تخندق «بيسلان جنتميريف» عمدة غروزني السابق مع أنصاره في «أوروس مارتان»، و«روسلان لابازانوف» في أرجون وعمر افتورخانوف وأنصاره، في منطقة «نادتيريتشني». وبمساعدة واضحة من موسكو تشكل في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣ م المجلس المؤقت للجمهورية الشيشانية بالاعتماد على حزبين سياسيين هما «دايموكخ» و«مورشو» ومنظمات صغيرة أخرى معارضة لدودايف، وفي مطلع عام ١٩٩٤ م، لم تكن السلطات الاتحادية الروسية قد اتخذت قراراً واضحاً بشأن خطة العمل في جمهورية الشيشان فشهدت هذه الفترة خطوات متناقضة قام بها مختلف المسؤولين في القيادات العليا، وكان ممثلو دودايف يأتون إلى موسكو ويطرحون فكرة إجراء لقاء بين دودايف ويلتسين، ولكن الجانب الروسي كان يُصر في كل مرة على اعتراف الشيشان أولاً ورسمياً بأن جمهوريتهم جزء من الاتحاد الروسي وحاول الرئيس دودايف تفادي تصعيد الخلافات مع موسكو حتى لا تصل الأمور إلى حالة الحرب، وتقدم دودايف بعدة مشاريع للتوقيع على معاهدة تتضمن تنظيم العلاقات مع موسكو على الصعيد الاقتصادي والسياسة الخارجية التي وافق على ترك تحديدها لروسيا، ولكن نقطة الخلاف الوحيدة التي أغضبت الكرملين هي إصرار الشيشان على اعتراف روسيا بالشيشان كعضو مستقل في المجتمع الدولي، وهكذا عطلت السلطات الروسية المحادثات والمفاوضات وركزت جهودها على إجهاض الحركة الاستقلالية، وجعل الصراع أساساً بين أبناء الشعب الشيشاني لتدمير فكرة الاستقلال برمتها، وذلك بالاعتماد على المعارضة التي خلقتها. وقد ركزت المعارضة في صيف ١٩٩٤ م جهودها للتخلص من جوهر دودايف ففي ٣ حزيران/ يونيو ١٩٩٤ م حاولت اغتيال جوهر دودايف، وذلك بإطلاق النار عليه في ساحة «تياتر النايا» ولكن المحاولة فشلت، وبعد ذلك بشهر واحد حاولت المعارضة إسقاط طائرة دودايف وفشلت المحاولة أيضاً، وبعد فشل المحاولتين الآثمتين عملت المعارضة على تنظيم صفوفها وتشكيل هيئات سلطة في المناطق التابعة لها، وذلك بدعم واضح من قيادة الكرملين التي لم تقبل بتقديم أيّة تنازلات لدودايف، وهكذا تضاعف رصيد القوى الداعية إلى

استخدام القوة في حل القضية الشيشانية وبدأت المعارضة تصعد أعمالها التخريبية في الجمهورية الشيشانية المستقلة، وبإيعاز من موسكو قامت المعارضة بهجوم كبير في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٤ م على العاصمة غروزني لاحتلالها، وقامت قوات المعارضة برئاسة «عمر افتورخانوف» بإرسال بعض الآليات الثقيلة لمفاجأة القوات الحكومية الشرعية، واستخدمت المعارضة في هجومها أسلحة ثقيلة، حصلت عليها من موسكو، التي ألقت بكل ثقلها إلى جانب المعارضة معتبرة إياها الأمل الوحيد في إسقاط دودايف وإلحاق الهزيمة به. وبدأ هجوم المعارضة بست دبابات ت «٧٢» وفرضت حصاراً على غروزني لمنع وصول الإمدادات إليها، وقامت «٤٠» مروحية بتمشيط العاصمة وضرب الأهداف الاستراتيجية فيها. وفي الأيام التالية تلقت المعارضة تعزيزات روسية مكونة من «٢٥» دبابة ثقيلة، ودارت معارك رهيبة بين قوات دودايف وقوات المعارضة، وتمكنت المعارضة من دخول غروزني، وبعد ساعتين اقتربت دبابات المعارضة من قصر الرئاسة، وأصبحت على بعد «٢٠» متراً منه، وهنا تصدى لها نسور الشيشان واشتبكوا مع المعارضة في معارك عنيفة دارت في شوارع غروزني، وسرعان ما تحقق النصر للمجاهدين الشيشان واضطرت قوات المعارضة والقوات الروسية التي آزرتها إلى التراجع تاركة وراءها مائتي فرد ما بين قتيل وجريح وأسير، وعدد كبير من المدرعات المحترقة، وفي لقاء متلفز في العاصمة غروزني أشار أحد المقاتلين الشيشان إلى دبابة روسية ما زالت تحترق قائلاً: «إنها قادمة من روسيا إلى القوقاز، وستظل باقية هنا لتشهد بأن القوقاز ليست أرضاً روسية».

وبعد أن هُزمت المعارضة وفشلت في إقصاء دودايف سقطت آخر ورقة بيد موسكو للتأثير على دودايف من داخل الشيشان، مما دفع يلتسين للدخول في مواجهة سافرة مع قوات جوهر دودايف، وكانت البداية عندما وجه يلتسين إنذاراً لطرفي النزاع بوقف القتال خلال «٤٨» ساعة، ملوحاً بإمكانية فرض حالة الطوارىء في الشيشان. والطريف أن إنذار يلتسين جاء متزامناً مع تجدد هجمات المعارضة على غروزني بالطائرات، وخلال ذلك بدأت الأنظار تتجه نحو بافل غراتشوف، وزير الدفاع الروسي، الذي أجرى اتصالاً هاتفياً مع جوهر دودايف ليطلب منه عدم المساس بالأسرى من الجنود الروس، الذين حاربوا مع قوات المعارضة. وبعد الاتصال أدلى غراتشوف بحديث لوسائل الإعلام الروسية أكد فيه أن التدخل العسكري الروسي

غير وارد، لكن إذا ما تلقى الجيش أوامر من الرئيس الروسي لنزع سلاح التشكيلات العسكرية غير الشرعية، ومن بينها قوات دودايف فإن الجيش سيقوم بالمهمة الموكلة إليه. ورغم تصريحات غراتشوف المطمئنة والمُهدئة فقد استمرت طائرات المعارضة وهي طائرات روسية قصف غروزني وحتى بعد أن اتضح للعالم كله اشتراك روسيا مباشرة في القتال الدائر في الشيشان إلا أن الأجهزة الرسمية الروسية كانت تنفي تورط روسيا في الشيشان، ولكن الحقائق ظهرت عندما أكدت عائلات الجنود الروس الذين تم أسر أولادهم أن أبنائهم قد نُقلوا من مطار «جوكوفسكي» العسكري قرب موسكو، إلى قاعدة عسكرية روسية قرب الحدود مع الشيشان، وقد استثارت ورقة الأسرى الرأي العام الروسي والبرلمان، وبدا واضحاً أن دودايف قد تمكن من جرح الدب الروسي الذي أخذ يؤلب الروس على الشيشانيين. ورغم أن بافل غراتشوف أنكر في البداية اشتراك العسكريين الروس في القتال إلى جانب المعارضة الشيشانية، إلا أنه وبعد تكشف الحقائق اضطر للاعتراف بالمشاركة، ولكنه أعلن أنه سيحقق في المسألة ليعرف من ومتى وكيف تم تجنيد أولئك العسكريين؟ والذي حصل أن «سيرجي ستيباش» مدير المخابرات الروسية كان يجند الجنود الروس من وراء ظهر غراتشوف ويرسلهم للقتال مع المعارضة الشيشانية، وقد تسبب ذلك في فضيحة عندما نشرت إحدى الصحف الروسية رسالة من ضابط روسي كتبها قبل سفره إلى الشيشان مؤكداً فيها أنه وقَّع عقداً مع مسؤول في المخابرات الروسية للقتال في الشيشان مقابل مليون روبل «٣٠٠» دولار، وختم الضابط رسالته برجاء مساعدة زوجته في الحصول على مائة وخمسين مليون روبل في حالة وفاته هناك. وكانت الرسالة موجهة إلى المدعي العام الروسي. وهكذا يبدو عدم التنسيق بين الجيش والمخابرات، بل وبين هذي الجهازين والبرلمان الروسي، وبين الجميع والرئيس الروسي. ولحلِّ قضية الأسرى سارع البرلمانيون الروس واحداً بعد الآخر بالسفر إلى غروزني للمطالبة بإطلاق سراح الأسرى الروس، وأخذ كل عضو برلماني يعود من غروزني بأسير أو اثنين، حتى صرح «فلاديمير جيرنوفسكي» زعيم المتطرفين الروس قائلاً: «لقد أصبحت عاصمة الشيشان مثل السوق، يعود منها كل نائب برلماني بأسير يرفع به أسهمه السياسية في البرلمان». ولحل قضية الأسرى بشكل نهائي أوفد يلتسين وزير دفاعه «بافل غراتشوف» إلى أوسيتيا الشمالية للاجتماع مع

جوهر دودايف، وتمَّ اللقاء فعلاً في السادس من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ م، وأوضح غراتشوف أن مهمته تشمل أيضاً البحث في الإنذار الذي وجهه الرئيس الروسي لطرفي النزاع، والقاضي بتسليم الأسلحة. وكذلك ترتبط بقرار مجلس الأمن الروسي الذي يدعو إلى إعادة الشرعية والنظام والأمن إلى جمهورية الشيشان، وأكد أنه لا يستبعد اللجوء للقوة في حال فشل المباحثات. وخلال الاجتماع بين دودايف وغراتشوف تم الاتفاق فوراً على إطلاق سراح ما تبقى من الأسرى الروس، ولكنهما لم يستطيعا التوصل إلى اتفاق بشأن المسألة السياسية، أي الاتفاق على وضع الجمهورية الشيشانية، وتمسك دودايف بموقفه قائلاً: «إن قضية الاستقلال عن روسيا هي قضية سياسية لا بد أن تحل بلقاء بينه وبين الرئيس بوريس يلتسين». ولكن يلتسين بدلاً من أن يقبل لقاء دودايف أصدر مرسوماً بشن هجوم على الشيشان في ٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ م، وكان هذا المرسوم الخطير مفاجئاً للروس وللعالم كله. والسؤال الآن ما هي الأسباب التي دفعت يلتسين إلى اتخاذ هذا القرار وإعلان الحرب على جمهورية الشيشان المستقلة، منذ عام ١٩٩١ م؟ لقد عزا الباحثون إقدام يلتسين على قراره الخطير إلى أسباب كثيرة منها:

١ ـ حرصه على تماسك الاتحاد الروسي، فاستقلال الشيشان يشكل تهديداً خطيراً لوحدة وتماسك الاتحاد الروسي، ويمثل تشجيعاً للقوميات الأخرى الداخلة في قوام الاتحاد الروسي على المضي في نفس الطريق.

٢ ـ رغبة يلتسين في مغازلة المشاعر الوطنية والقومية الجريحة للقوات المسلحة الروسية، وقطاعات واسعة من الشعب الروسي نتيجة للتراجع الكبير في قوة روسيا المسلحة.

٣ ـ الاتجاه الواضح من جانب روسيا نحو عدم المبالاة بالرأي العام العالمي، ومحاولة إظهار نفسها أنها ما زالت دولة عظمى.

٤ ـ قرب الشيشان من البلاد الإسلامية مثل إيران وتركيا، وعدم رغبة روسيا في أن تكون على حدودها الجنوبية دولة، أو دول، معادية لها وهي الآن جزء منها[١].

---

(١) راجع مقال محمود عبد الرحمن: «قراءة في سجل الاستعمار الروسي للبلدان الإسلامية»، =

٥ ـ طمع روسيا في السيطرة على ثروات الشيشان النفطية، إضافة إلى رغبتها في التحكم بأنبوب النفط الأذربيجاني المار في الشيشان إلى الغرب.

٦ ـ رغبة يلتسين في صرف أنظار الروس عن المجاعة الناجمة عن فشل الإصلاح الاقتصادي، وإلهاء الشعب الروسي بمشاكل خارجية.

٧ ـ كان يلتسين يرى أن الحرب وظروفها سترفع من شأن قيادته وتمكنه من البطش بالمؤسسات الديمقراطية في روسيا.

٨ ـ كان يلتسين يرى في الحرب وسيلة مناسبة تساعده في تغطية فشله في مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا، حيث سادت أجواء التوتر في ذلك المؤتمر بعد الأزمة التي قامت بين روسيا وأمريكا ودول الغرب، وذلك بعدما ثبت ليلتسين أن دول المنظومة الاشتراكية السابقة بدأت تميل نحو الغرب وتبتعد عن موسكو مما يعني أن الغرب أصبح على حدود روسيا، ومن هنا رأى يلتسين أن الحرب ستلعب دوراً في صرف أنظار الرأي العام الروسي عن الورطة الروسية وعزلتها عن الرأي العام العالمي. واعتقد يلتسين أن الحرب يمكن أن تغطي أيضاً فشله في البلقان، وفشله في علاقته بحلف الناتو، حيث أصرَّ الرئيس الأمريكي كلينتون على المضي قدماً في توسيع حلف الناتو شرقاً، مؤكداً أن الحلف وحده هو الذي يقرر من يضم من أعضاء ومتى وكيف!

٩ ـ شعور يلتسين بفشله في أن يصبح حليفاً للغرب، وذلك أن الغرب قبل روسيا كصديق، ولم يقبلها كشريك كامل الأهلية. وهذا ما أكده المؤرخ البريطاني «أرنولد توينبي» الذي شخص حالة روسيا «بأنها جزء من الحضارة الأوروبية ونتاج لها، لكن كُتب عليها أن تظل الابن المنبوذ وغير الشرعي في القافلة الأوروبية. هكذا كان حظها في العهدين القيصري والشيوعي، وسيبقى الوضع على ما هو عليه تحت حكم يلتسين ومن يخلفه». لهذه الأسباب أصدر يلتسين مرسومه وحدد موعد الهجوم على الشيشان في ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ م.

= جريدة الاتحاد الظبيانية عدد الجمعة ١٦ شوال ١٤١٥ هـ ١٧ آذار/ مارس ١٩٩٥ م، وقد كتبته أثناء الحرب بين الشيشان والروس، وقد توقعت فيه النصر للثورة الشيشانية.

الأوضاع في الشيشان وروسيا الاتحادية عشية إعلان الحرب:

أولاً: في الشيشان: كان الرئيس جوهر دودايف يدرك جيداً أن يلتسين سيشن الحرب على بلاده بعد أن فرض يلتسين على الشيشان حصاراً اقتصادياً شاملاً لمدة ثلاث سنوات. وكان يدرك أيضاً أن هجوم المعارضة المدعومة مادياً وعسكرياً من روسيا في ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٤ م ما هو إلا مقدمة للحملة العسكرية الروسية، ولهذا لم يكن مرسوم يلتسين القاضي بشن الحرب على الشيشان مفاجئاً له، بل كان يعتبر أن الحرب أمراً لا مفر منه رغم مبادراته السلمية والتي رفضها يلتسين كلها. ولذلك كان دودايف يستعد للحرب، ولكل الاحتمالات، فقد سلح قواته المؤلفة من «١٥» ألف مقاتل ورحَّل النساء والأطفال والشيوخ بعيداً عن غروزني إلى الجبال التي شهدت حرباً طويلة ومريرة بين روسيا والشيشان، كما أنه أخفى كل الوثائق الهامة والخاصة بالدولة الشيشانية، بل وهرَّب إلى أماكن مجهولة رصيدها من الذهب، وشكل الكتيبة الإسلامية ليتدفق إليها من شاء من المتطوعين المسلمين من جمهوريات القوقاز الأخرى دفاعاً عن حرية وكرامة شعوب القوقاز، وأعلن الأحكام العرفية والتعبئة العامة لكافة الرجال، وتمَّ استنفار التشكيلات المسلحة بما في ذلك صواريخ «إس. إس. ٢٢» التي تستطيع حمل ثلاثة رؤوس نووية للدفاع عن حق الشيشان[١] في الاستقلال، وعلم دودايف بمرسوم يلتسين قبل صدوره بيوم واحد، لذا لم يلجأ دودايف إلى النوم ولمدة خمسة أيام متوالية، قبل بدء الحرب وانهمك بتهيئة البلاد لأجواء الحرب، وذكر الصحفيون أنه ارتدى الكفن استعداداً للموت دفاعاً عن استقلال الشيشان: وعندما سأله الصحفيون لماذا تتأهب للحرب مع روسيا فهل لديك دليل على تدخلها العسكري؟ فأجاب دودايف: «إنه سؤال غريب فالجميع، القريب والبعيد، يعلم أن روسيا هي التي تحاربنا وليست المعارضة، وها هي ترسل جيشها الآن لسحقنا».

ثانياً: في روسيا: ذكرت في فصل سابق أن روسيا كانت تعاني من أزمة اقتصادية خانقة بسبب فشل الإصلاح الاقتصادي، وفي نفس الوقت الذي بدأت فيها

---

(١) راجع كتاب: «نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال»، تأليف مجموعة من الكتاب السوريين، إصدار دار مشرق مغرب في دمشق، صيف ١٩٩٧ م.

حربها الظالمة في الشيشان في ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٤ م. كانت تخوض بأقدامها بالفعل في عدة حروب أخرى في «بريد نستروفيه» بمولدوفا بواسطة الجيش الرابع عشر والجنرال ليبيد، وفي أبخازيا ضد جورجيا، وفي أوسيتيا الشمالية ضد أوسيتيا الجنوبية، وفي طاجكستان، وفي القرم ضد أوكرانيا، وفي وجه مطالبة دول البلطيق بأجزاء من الأراضي الروسية. ولكن تلك الحروب كانت كلها خارج حدود روسيا، أما الحرب في الشيشان فكانت الحرب الوحيدة داخل روسيا بعد آخر حرب أهلية في ١٩١٨ ـ ١٩٢٢ م، ومن اللافت للنظر أن روسيا عشية حرب الشيشان لم تكن مُستنزفة بالنزاعات العسكرية وحسب، بل كان النظام الروسي قد أغرق الشعب الروسي علاوة على الحروب. في مستنقعات الهزائم الأخرى، وقد رسم الأديب الروسي الشهير «سولجينتسين» صورة الوضع العام في روسيا عشية حرب الشيشان بقوله: «. . . لقد أصبح الشعب الروسي مرتبكاً وحائراً ومندهشاً. ومصاباً بالذل والخجل لعجزه. لقد جبت المناطق والأقاليم الروسية طويلاً. وتلقيت آلاف الرسائل من السكان مما يجعلني أقول إن الشعب لا يعتقد بأن الإصلاحات والسياسات التي تقوم بها الحكومة تمت لمصالحه بصلة، فقد انهار الإنتاج الصناعي والزراعي، وطغت العملة الأجنبية في بلادنا وبيعت مؤسسات القطاع العام للخاص بثمن بخس، وتساقطت هيئات البحث العلمي والطب والتعليم إلى الحضيض، بينما تم تهريب المليارات من الدولارات سنوياً إلى الخارج وتتفشى الجريمة على أوسع نطاق في روسيا»[1].

وهكذا سقط يلتسين في وهدة العدوان عندما أصدر مرسومه بدخول الجيش الروسي إلى جمهورية الشيشان، وأثبت أن جميع الدعاوى التي أطلقها على الاتحاد السوفييتي لم تكن تهدف إلى تخليص الشعب الروسي والشعوب الأخرى المنضوية في نطاق روسيا من الظلم والاستعباد، بل كان الهدف هو التربع على قمة السلطة. وبعد تربعه لم يستخدم إلا الرصاص والمدافع والقنابل، وأعلن مراراً أنه لن يهاجم الشيشان ولن يتدخل في الشؤون الشيشانية الداخلية، وحتى أنه كما

---

(١) جاء ذلك في كلمة سولجنتسين أمام البرلمان الروسي في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤ م قبل حرب الشيشان بشهر ونصف فقط، انظر جريدة الاتحاد الظبيانية، الخميس ١٤ ربيع الأول ١٤١٦ هـ الموافق ١٠ آب/أغسطس ١٩٩٥ م.

ذكرت اعترف في كتابه «مذكرات ـ رئيس» أن جوهر دودايف رئيساً للشيشان، ودعا جميع الجمهوريات للاستقلال عن الاتحاد السوفييتي، ورغم كل ذلك فقد أقدم على شن حرب الإبادة ضد الشعب الشيشاني المستقل.

وعلى الرغم من المرسوم الخطير الذي أصدره لغزو جمهورية الشيشان المستقلة فقد توجه بكل الثقة والاطمئنان لإجراء عملية جراحية في أنفه، أُعلن عنها قبل ثلاثة أيام من بدء الحرب في ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ م، ماذا يعني ذلك؟ إن هذا يعني أن يلتسين كان يتصور أن عملية الغزو في بساطة العملية التي سيجريها في أنفه واعتقد أن تقارير إنهاء الغزو العسكري للشيشان ستأتيه إلى المستشفى الذي تقرر أن يمضي فيه بضعة أيام للنقاهة. إن تصور يلتسين هذا يؤكد وقوعه تحت وهم تصريحات جنرال حربه وزير الدفاع بافل غراتشوف «الجنرال مرسيدس» كما يسميه الشعب الروسي، وذلك لكثرة سيارات المرسيدس التي يملكها. لقد أكد الجنرال مرسيدس لرئيسه يلتسين أن فرقتين من قوات المظلات الروسية تستطيع أن تنهي الوضع في الشيشان، وتقضي على جوهر دودايف، وتستولي على العاصمة غروزني في ساعتين فقط. وهكذا أمر يلتسين «٤٠» ألف جندي روسي بالزحف على الشيشان ومعهم أحدث الأسلحة الثقيلة، دون أن يعلم شيئاً عن هذا الشعب وتاريخه وصموده، وعلى ما يبدو أن ثقافة يلتسين الضحلة لم تمكنه من الاستفادة من دروس التدخل السوفييتي في أفغانستان، كما أن يلتسين المخمور دائماً، والمقامر في معظم الأحيان، لم يكلف نفسه الاطلاع ولو على النزر اليسير[1] من تاريخ هذا الشعب الشيشاني المسلم الذي تحدى القياصرة الروس وألحق بهم الهزائم المنكرة، وتحدى قياصرة العهد الشيوعي ستالين وغيره، ولم ينفع معه النفي أو سياسات التشريد والقمع والإبادة ومصادرة حرياته

(١) ذكر الجنرال ألكسندر كورجاكوف في كتابه «الصعود والانحدار من القمة» أن تهور يلتسين جعله يفكر جدياً في استخدام سلاح سري، يرسل أشعة ليزر تصيب النواب، الذين عارضوه في عام ١٩٩٣ م ويؤكد الجنرال أن الشيء الوحيد الذي حال دون استخدام السلاح السري، هو أن وزنه كان أكثر من أربعة أطنان وواجه يلتسين صعوبة في نقله إلى مقر الأحداث في البرلمان، كما أن استخدامه يحتاج إلى سطح مستو لم يكن متوفراً قرب البرلمان، جريدة الاتحاد عدد ١٥/ ٨/ ١٩٩٧ م.

الدينية والسياسية»، ورداً على استهتار الروس بمقدرات الشعب الشيشاني قال الرئيس جوهر دودايف محذراً الروس قائلاً: «إن أفغانستان ليست سوى نزهة مُريحة أمام ما ستلاقونه في الشيشان». وفي اليوم المحدد لشن الحرب في ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ م زحفت القوات الروسية وقوامها «٤٠» ألف مقاتل على ثلاث جبهات تدعمها أسلحة الدمار والقتل والفتك، من دبابات ومدفعية وطائرات متجهة نحو أراضي جمهورية الشيشان بحجة إعادة النظام والأمن والقضاء على المافيا وعصابات الخطف، وهكذا بدأت حملة الإبادة ضد الشعب الشيشاني المسلم والصغير والأعزل وعلى مرأى ومسمع العالم كله.

١ ـ المقاومة الشيشانية في عهد الرئيس جوهر دودايف:

كان الأنغوش، وهم أقرباء الشيشان، أول من تصدى للجيش الروسي الزاحف نحو الشيشان، وخرجت الجماهير الأنغوشية لمقاومة هذا التقدم تضامناً مع أقربائهم الشيشان، وأجبروا القوات الروسية على اتخاذ طرق جانبية أخرى، وعندما اقتحمت القوات الروسية أراضي جمهورية الشيشان استقبلها المجاهدون استقبالاً يليق بالمعتدين، وتصدوا لها بعزم وصلابة وإيمان، رغم أن القوات الروسية كانت تصب آلاف الصواريخ على الشيشانيين، وهم يستقبلونها بكل جرأة وشجاعة دون خوف أو هلع أو ضعف، وكانت القوات الروسية تقصف دون تمييز بين أهداف مدنية أو عسكرية، وفي كل الاتجاهات. لذا أخذت المنازل تتساقط والمرافق العامة تشتعل بها النيران، وأبطال الشيشان يسقط الشهيد منهم فلا يفر زميله بل يبقى ثابتاً في موقعه يصب نيرانه على الروس، يوقف زحفهم وينزل الرعب في نفوسهم، وهو يهتف «الله أكبر ـ الله أكبر». ورغم كثافة القصف الروسي بالدبابات والمدافع والطائرات فإنهم لم يتمكنوا من الاقتراب من غروزني إلا بعد ثلاثة أسابيع من بدء الغزو ولم يكتف الرئيس جوهر دودايف بقيادة المعارك بل زج بأولاده في أتون الحرب وقد أصيب ابنه «أوفلر» إصابات خطيرة وتم نقله إلى «نازران» عاصمة الأنغوش للعلاج وذلك في ٢٦/ ١٢/ ١٩٩٤، ولكن إصابة «أوفلر» لم تثنِ والده عن الحرب لحظة واحدة، فلم يغادر موقعه وظل يقود المقاومة ويصد الزحف الروسي الجارف الذي تمكن من اقتحام غروزني في ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ م، ولكن هذا الاقتحام وفرض الحصار الروسي المحكم على غروزني لا

يعني أن المدينة الباسلة قد سقطت بأيدي الروس، لا بل إن اقتحامها أدى إلى بدء المعارك الحقيقية حيث رفع المجاهدون الشيشان شعاراً بطولياً جهادياً: «دمروها ولكن لن تحتلوها». وبالفعل دارت معارك في شوارع غروزني استمرت من أول كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥، وحتى ٢١ شباط/ فبراير ١٩٩٥ م. وخلال هذه المدة قام نسور الشيشان بخوض معارك امتدت من بيت إلى بيت، ومن شارع إلى شارع وسطروا ملاحم نادرة في تاريخ الحروب، وقد استمرت مقاومتهم رغم مؤازرة الطيران والدبابات والمدفعية للقوات الروسية المحتلة، وصد الثوار هجوم الدبابات الروسية على البرلمان وعلى قصر الرئاسة، وتمكن المجاهدون بأسلحتهم الخفيفة من إسقاط عدد من الطائرات الروسية المُغيرة التي كانت تلقي قذائفها الموجهة بأشعة الليزر، وقد صبت من القذائف بمستوى فاق ما صبه الجيش الأحمر على برلين في نهاية الحرب العالمية الثانية، وشاهد العالم كله الطائرات الروسية على شاشات التلفزة وهي تلقي قذائفها على الحشود الشيشانية التي كانت تسارع لإزالة الأنقاض الناتجة عن الغارات الوحشية، كما حصل في حي «ليتسكي» واستخدم الروس في شوارع غروزني كل أنواع الأسلحة عدا القنبلة النووية، ومن الأسلحة التي استخدمها الجيش الروسي القنابل العنقودية المُحرمة دولياً، والأسلحة الكيماوية؛ وأفادت وكالات الأنباء العالمية أن برنامجاً تلفزيونياً روسياً كشف أن القوات الروسية استخدمت في حرب غروزني، وفي غيرها من مدن وقرى جمهورية الشيشان نوعين من الطلقات: أحدهما يخترق جسم الإنسان ويمزقه من الداخل، والآخر على شكل إبرة ضخمة من يصاب بها لا يشفى أبداً لأنها سامة جداً!!

معاناة غروزني خلال الحرب:

يقول سامي عمارة مراسل صحيفة الشرق الأوسط في موسكو، والذي زار غروزني خلال الحصار الروسي لها، وبالتحديد في ٢٨/ ١/ ١٩٩٥ م: «إن المأساة الحقيقية التي تعيشها غروزني تدفع الدموع إلى المآقي، فالخراب في كل مكان، وخلال وجودي في غروزني لم يكف القصف الروسي ولم يهدأ وحين توقف لحظة شاهدت النساء المسنات والعجزة يسارعن للخروج من أقبية المنازل سعياً وراء الماء، وفي أطراف المدينة كانت النيران تلتهم كل شيء ولا وقت ولا فرصة لإطفائها ورأيت الكلاب الضالة تلتهم جثث الجنود الروس ولا أحد يفكر في نقلها

المجاهدون الشيشان

شاشانية بين متطوعين في طريقهم إلى المنطقة حول القصر الرئاسي في غروزني

(نقلاً عن جريدة الشرق الأوسط الصادرة في لندن) المجاهدون الشيشان

المقاتلون الشيشان (نقلاً عن جريدة الاعتدال)

أو دفنها، أما المجاهدون الشيشان فلا يتركون ضحاياهم بمقتضى الشريعة الإسلامية، بل كانوا يسارعون إلى دفنهم فوراً. وقد رأيت المجاهدين يجوبون شوارع غروزني ويحملون[1] أسلحتهم ويجولون بأنظارهم بحثاً عن هدف ومقصد، ولم يكونوا حريصين على التخفي أو الاحتماء بساتر، أو جدار، وأكدت تحركاتهم وخطواتهم الواثقة زيف ما تقوله الدعاية الرسمية الروسية من أن القوات الروسية أحكمت حلقة الحصار على غروزني، وراودني إحساس بأن الشيشان هم الذين يحاصرون القوات الروسية وليس العكس. . . ». وأكد سامي عمارة أنه التقى ببعض المجاهدين وبادرهم بتحية الإسلام، وجاء الرد بالعربية واضحاً: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. وقال: ثم تحولنا إلى اللغة الروسية لأسأل عن مدى صحة ما يقال بشأن نزع سلاح التشكيلات غير الشرعية، أو تلك التي تسميها موسكو بالإجرامية، وجاء رد المجاهدين: «إننا ندافع عن وطننا الشيشان، وسلاحنا اشتريناه بأموالنا. ولا أحد يستطيع انتزاعه منا، وليس صحيحاً ما يقوله الروس أنهم استولوا على قصر الرئاسة هذا غير صحيح، إنهم لا يستطيعون بعد دخوله، هناك المجموعات الانتحارية تقبع في قبوه، فليجربوا دخوله». ويقول سامي عمارة أنه قد تحدث مع المجاهد «روسلان» رئيس إحدى المجموعات المقاتلة، الذي أكد له أنه ليس صحيحاً أنهم رفعوا العلم الروسي على القصر الرئاسي» ويقول سامي عمارة: «إن حديثي مع المجاهد «روسلان» كان متقطعاً، لأن الطائرات الروسية كانت تغير باستمرار أثناء الحديث بحثاً عن هدف يخلصها من حمولتها المُدمرة». وقال سامي عمارة: «لقد التقيت ببعض كبار السن في غروزني الذين قرروا الرحيل، فقد كانوا يحملون على أكتافهم ما استطاعوا حمله من سقط المتاع، فيما يجر آخرون على متن عجلتين صغيرتين ما تبقى لهم من متاع، وقال عندما سألت أحدهم: إلى أين؟ أجاب: لم يبق من مسكننا سوى الدمار، حتى الأخشاب التهمتها النيران، لسنا ندري إلى أين تحملنا أقدامنا، والأهم هو سرعة الرحيل، فمع كل يوم جديد يتساقط القتلى من سكان بيتنا والبيوت المجاورة، وهناك بين الأنقاض ضحايا لا يستطيع أحد إنقاذهم، بعضهم لا يزال ينازع سكرات الموت، ولا نستطيع

---

(١) انظر مقال سامي عمارة في جريدة الشرق الأوسط، الصادرة في لندن «غروزني بين الشريطين الأخضر والأسود، وهدف الفوز بإحدى الحسنيين». الإثنين ٣٠/ ١/ ١٩٩٥ م، العدد ٥٩٠٧.

الاقتراب، فالطائرات لا تفتأ تشن هجماتها الوحشية». ويقول سامي عمارة: «في طريق عودتي من الشيشان توقفت قريباً من مدينة «جوديرمس»، وهي من كبريات المدن الشيشانية ولم تنج من قصف الطيران الروسي، وشاهدت المجاهدين الشيشان وقد لف بعضهم رأسه بشريط أخضر كتب عليه: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» واقتربت من أحد المجاهدين وسألته عن المعنى؟ قال بالعربية «غزوات» وفي الكلمة الكثير من التداعيات، والإيحاءات، وعاودت السؤال ماذا يعني الشريط الأسود؟ فقال: «إنه إشارة إلى فرق الموت، أو الفرق الانتحارية». وأكد في ختام تقريره النادر أن الشعارات قد انتشرت على حوائط غروزني، وغوديرمس، وغيرها. وكلها تؤكد الوقوف بصلابة خلف قيادة جوهر دودايف التاريخية، الذي يقود المقاومة. ومن هذه الشعارات شعار مكتوب بخط بارز يقول: «أيها الجنرال دودايف أنت معنا، والله العلي القدير فوقنا، وروسيا تحتنا، والنصر وراءنا. . . الله أكبر».

أما الأوضاع الصحية في غروزني والمدن الشيشانية الأخرى خلال الحرب، فقد كانت في حالة يرثى لها، وذكرت التقارير الصحفية الواردة من الشيشان خلال حصار غروزني والمدن الشيشانية الأخرى، إن مستشفى «أتاجيه»، وهو المكلّف بإسعاف حالات الجرحى القادمة من أرض المعركة في غروزني كان يستقبل ما يقارب ٧٠ جريحاً في اليوم، وكان أشبه بمعرض للقطع الآدمية الممزقة، ولا يوجد فيه شيء يدل على أنه مستشفى سوى رداء الطبيب الأبيض، الذي تلطخ بالدماء من كثرة ما يمر به من الجرحى، وكان يعمل على مدار ٢٤ ساعة لإسعاف الجرحى من النساء والأطفال والشيوخ على السواء، ومن يدخل مستشفى «أتاجيه» كان يشاهد الأطراف البشرية المبتورة واللحوم المُكوّمة، ومع ذلك لم يكن بالمستشفى إلا بعض الإمكانات الطبية، فالفرش قد كُسيت بلون الدماء، إذ لا وقت لعمليات التطهير والتغيير، وينام المرضى على أسرّة مكسرة، والفرش مُمزقة أما أدوات الخياطة والعمليات العاجلة فلم يكن يتوافر منها سوى القليل. والأدوات البدائية، حتى الشاش والقطن، لم يكن متوافراً إلا بكميات شحيحة. فلا يجدون ما يلقون به على الجروح، وكذلك سائر الأدوية، وما زال الأطباء في المستشفى يعتمدون على المخزون القديم، وحتى الإغاثات التبشيرية النصرانية لم تكن موجودة على الساحة لتوفير العلاج والدواء. هذا بالنسبة لأحوال المستشفيات المخصصة لمداواة الجرحى والمصابين، أما مستشفيات الأمراض الأخرى فلم يعد يذكرها أحد في

هذه الظروف، وأصبحت خرائب تجمعت فيها بقايا الأجساد البشرية المقطعة[1].

وفي «زانداك» وهي إحدى المدن الشيشانية الكبيرة، يقول الدكتور أحمد الخميسي[2] الذي زار المدينة خلال حرب الشيشان: «لقد دخلت مستشفى المدينة وهو عبارة عن مبنى صغير من طابق واحد، وكان به عدد محدود من الأطباء الشبان، وقد شكوا من قلة الأدوية وخيوط العمليات الجراحية، وأنابيب الأوكسجين». وقال: «لقد رأيت آثار القصف الروسي على هذا المستشفى الصغير، وقد صحبني الدكتور «مافلادي» في جولة في أنحاء المستشفى، وقال لي بغضب: يقول الروس إنهم لا يقصفون المستشفيات، أنظر بنفسك لقد أقمنا هذا المستشفى بجهودنا الخاصة، ورفعنا فوقه علماً كبيراً عليه رسم الصليب الأحمر، ويستطيع أي طيار روسي أن يراه من فوق، لكن الطائرات الروسية هاجمتنا لمدة عشرين دقيقة، وأصيب ثلاثة أطباء، منهم سيدة استشهدت على الفور». ويقول أحمد الخميسي: «قمت بجولة داخل المستشفى فرأيت شاباً لا يتجاوز الخامسة عشرة قطعت ساقه اليمنى، وذراعه الأيمن، فقلت له: لا تحزن وفاجأني رده الحاسم: «الحمد لله فإذا خرجت من هنا سالماً سأعود إلى القتال ثانية وثالثة». وقال أحمد الخميسي: «خلال وجودي في المستشفى تذكرت تصريحاً للجنرال «بيوتر دينكين» قائد القوات الجوية الروسية لصحيفة النجم الأحمر، في أول آذار/ مارس ١٩٩٥ م، قال فيه: «إن وسائل الإعلام الروسية تتهم الطيارين بإلقاء القنابل على المستشفيات ورياض الأطفال، لكن تلك كلها تلفيقات الحاقدين»، وبالرغم من تصريحات «دينكين» فالجميع يعرفون أن سلاح الطيران الروسي بدأ عمليات القصف عشوائياً بكل ما في الكلمة من معنى وذلك نتيجة لإلقاء القنابل من فوق الغيوم وعلى ارتفاعات عالية في ظروف رؤية سيئة»[3]. وكان الوضع الصحي في المدن والقرى الشيشانية الأخرى سيئاً كما هو الحال في غروزني «وزانداك». ونتيجة لكثرة الإصابات بين المدنيين الشيشان، دعا الرئيس الشيشاني جوهر

---

(١) انظر: التقرير المنشور في صحيفة الاعتدال، الصادرة في نيوجرسي بأمريكا، وهي صحيفة عربية أسبوعية، وقد نشرت تقريراً عن الأوضاع الصحية في غروزني في ٧/ ٢/ ١٩٩٥ م.

(٢) انظر جريدة الاتحاد عدد ١٠ آب/ أغسطس ١٩٩٥ م مرجع سابق.

(٣) انظر جريدة الاتحاد الظبيانية، عدد ١٠/ ٨/ ١٩٩٥ م، مقال د. أحمد الخميسي.

دودايف إلى هدنة قصيرة، إلا أن الروس استمروا في قصف غروزني والمدن الشيشانية الأخرى، ففي مدينة «أرجون» وحدها استشهد بسبب القصف الروسي العشوائي في الأيام الأولى من الحرب أكثر من ألف مدني. وذكرت وكالات الأنباء العالمية في النصف الأول من كانون الثاني/يناير ١٩٩٥ م أن غروزني أصبحت مدينة أشباح، حيث انهار نظام إمدادات المياه والطاقة، وانقطعت الكهرباء وأصبحت معظم المنازل من دون غاز، وحتى الخطوط الهاتفية قطعها الروس. وأكد مبعوث بعثة مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي السيد «ديار موتي» أن قرابة «١٥٠» ألف نسمة يعيشون في غروزني في الأقبية بدون ماء، أو كهرباء، أو تدفئة، أو غذاء. وأفادت وكالات الأنباء العالمية في تقاريرها من غروزني أن القوات الروسية تتبع أساليب مختلفة لقهر الشعب الشيشاني، منها أخذ أحذية السكان وتركهم يموتون من البرد في درجة حرارة تصل إلى عدة درجات تحت الصفر، ومن يحاول الهرب يُقتل فوراً. وقامت القوات الروسية بارتكاب مذبحة غرب غروزني استشهد فيها مائة شخص من المدنيين، معظمهم من النساء والأطفال. ونفذ الروس مجزرة أخرى في «ساماشكي» راح ضحيتها العشرات من المدنيين الشيشان. أما اللجنة البرلمانية الروسية برئاسة «جانا لازينسكايا» النائبة في كتلة «نساء روسيا» فقد درست أوضاع اللاجئين الشيشان في أراضي جمهورية الأنغوش المجاورة للشيشان، فقالت: «إن جمهورية الأنغوش استقبلت حتى أواسط آذار/مارس ١٩٩٥ م في أراضيها «١٣٠» ألف لاجيء شيشاني، علاوة على وجود «٥٠» ألف لاجيء في منطقة «بريجو رودنييه» في أوسيتيا الشمالية، نزحوا إلى الجمهورية قبل عامين، وأكدت أنه يصل إلى جمهورية الأنغوش يومياً بضعة آلاف من اللاجئين الشيشان[١][٢]. وليس ببعيد ذلك اليوم حين يساوي عدد اللاجئين

---

(١) راجع جريدة الشرق الأوسط، عدد ٢٥/١/١٩٩٥ م.

(٢) أكد مبعوث مؤتمر الأمن والتعاون «ديار موتي» في غروزني أن «١٥٠» ألف نسمة يعيشون في غروزني في الأقبية بدون ماء، وكهرباء، أو تدفئة، أو ماء، أو غذاء، وأكد أن القوات الروسية تقوم بقصف الأحياء المدنية، وتضرر الألوف من المهاجرين والسكان، وأكد وقوع انتهاكات لحقوق الإنسان في الشيشان. راجع: جريدة الشرق الأوسط عدد ٣١/١/١٩٩٥ م، تقرير أعده سامي عمارة من موسكو.

عدد أبناء جمهورية الأنغوش أنفسهم. وعن أوضاع اللاجئين قالت «جانا لازينسكايا»: «إن المهجرين يعيشون في عربات السكك الحديدية، حيث يغدو من الصعب البقاء داخلها فترة طويلة سواء في الصيف أو الشتاء، ويشكل الأطفال نسبة ٤٠٪ من آلاف اللاجئين القاطنين في عربات السكك الحديدية، أما البقية فهم من النساء والشيوخ والمعاقين، الذين يعانون من الازدحام، والهواء الفاسد، وانعدام الظروف الصحية، مما يؤدي إلى الإصابة بمختلف الأمراض، لكن لا مجال لنقل هؤلاء إلى مكان آخر». وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة التي يعيشها الشعب الشيشاني فإن وكالات الأنباء ذكرت أن المجاهدين الشيشان لا يزالون يقاومون مقاومة عنيفة لا هوادة فيها، واعتادوا على ظروف الحرب والموت، وحتى عندما كانت طوابير الدبابات الروسية تتحرك كان المقاتلون الشيشان يتناقشون فيما بينهم ليس فقط في كيفية تدمير الدبابات، بل في كيفية أسر الضباط والجنود الروس، وأكد مراسلون صحفيون في غروزني أن ساحة قصر الرئاسة الشيشاني تحولت إلى مقبرة للدبابات الروسية، وأنه حتى بداية الأسبوع الثالث من شهر شباط/ فبراير ١٩٩٥ م كان علم الشيشان ما يزال يرفرف عالياً على قصر الرئاسة، وأكدت وكالات الأنباء العالمية أن المجاهدين المتمركزين في المباني المجاورة لقصر الرئاسة يصطادون الدبابات الروسية، ويشعلون بها النيران، وأصبحت هياكل الدبابات تملأ شوارع غروزني، ولم تتمكن الدبابات الروسية التقدم من قصر الرئاسة إلا بعد أن اقتنع «بافل غراتشوف» وزير الدفاع الروسي أنه لا بد من طلب نجدات سريعة، وبالفعل وصلت قوات إضافية جديدة قوامها عشرات الآلاف من الوحدات الخاصة، من القناصين من مشاة أسطول المحيط الهادي. وقبل أن تسقط غروزني وصل عدد الجنود الروس الذين تمركزوا في الشيشان ما بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ ألف جندي على مراحل مختلفة، وفي نهاية الأسبوع الثالث في شباط/ فبراير ١٩٩٥ م قام الروس بشن هجوم واسع النطاق تدعمه الدبابات والمدفعية الثقيلة وعشرات الطائرات، وقام الروس بصب قذائفهم بمعدل قذيفة كل ٣٠ ثانية. وبعد مقاومة ودفاع مستميت من قبل المجاهدين سقط قصر الرئاسة الشيشانية في ٢١/ ٢/ ١٩٩٥ م، لكن الرمز الذي يمثله الرئيس جوهر دودايف بقي، وانسحب المجاهدون إلى الجبال، وعلى الفور أصدروا بيانات عسكرية لا تعد الروس بشهر

عسل في العاصمة الشيشانية التي سقطت في أيديهم، وسقط معها ألوف المدافعين والمهاجمين. ولكن سقوط العاصمة لا يعني أن الروس قد كسبوا الحرب، بل يعني أنهم دخلوا في معركة جديدة أكثر ضراوة من معركة غروزني التي لم يشهد تاريخ الحروب مثيلاً لها، فرئيس الأركان الشيشاني الجنرال المجاهد أصلان مسخادوف، وبعد مضي بضعة ساعات على سقوط القصر الرئاسي في غروزني لم يتورع عن القول في «نارزان»[1] عاصمة جمهورية الأنغوش المجاورة للشيشان: «لقد نقلنا قيادتنا إلى مكان يبعد كيلومتر واحد عن القصر الرئاسي الذي دمره القصف الروسي تماماً، ولم يعد يصلح مكان عمل مناسب». وهكذا دخلت القوات الروسية غروزني بعد أن حاربت من أجلها «٧٣» يوماً، وتكبدت خسائر فادحة في الأرواح، حيث قُتل آلاف الجنود الروس واحترقت عشرات الدبابات ومئات الآليات، وسقطت بضعة طائرات وتمرغت هيبة روسيا وسمعتها بالأوحال، لأن ما قامت به في الشيشان من جرائم إبادة وقتل وتدمير وانتهاك لأبسط حقوق الإنسان يدل دلالة قاطعة على أن روسيا لم تتغير أبداً، وأن إيفان الرهيب، وستالين، لا يزالان يحكمانها بالحديد والنار، وأن يلتسين: ما هو إلا ستالين جديد، أو قيصر جديد، لقد دمَّر يلتسين سبعين بالمئة من المنشآت السكنية في غروزني، ولم يعد الناس يجدون مأوى، أو حتى ينعمون بالتدفئة، ولا تعمل المجاري وانقطعت المياه والكهرباء، وانهارت مرافق الخدمات كافة. ولا تختلف أوضاع المدن والقرى الشيشانية كثيراً عن غروزني، فقد لحق بها نفس الخراب والدمار وعانت من الهمجية الروسية كما عانت غروزني تماماً.

المقاومة الشيشانية بعد سقوط غروزني:

أعلن المجاهد جوهر دودايف أن الحرب بين الشيشان وروسيا ستبدأ الآن، وسوف تستمر «٣٠٠» عاماً. وجاء هذا الإعلان رداً على الدعاية الروسية الرسمية التي أكدت أن الحرب قد انتهت. وقد وقف المجاهدون الشيشان خلف قائدهم المظفر وأكدوا أنهم يأبون المذلة والهوان والعودة إلى مظلة روسيا، وصرحوا أن راية الإسلام لن تنكس ثانية في الشيشان، وأنها ستظل خفاقة إلى الأبد. ولم يكن

---

(١) راجع مجلة الكفاح العربية اللبنانية العدد ٨٦١، تاريخ ٢٣/ ٢/ ١٩٩٥ م.

هذا الكلام هراءً، بل كان يدل على تصميم وعزم الشيشان على الاستمرار في التضحية وتقديم كل غال وثمين وعزيز ليقدموا للعالم كله أدلة قاطعة على تمسكهم باستقلالهم وبإسلامهم. وهكذا وبعد سقوط غروزني لم يفكر المجاهدون لحظة واحدة بالتراجع عن الجهاد، بل سرعان ما حولوا حرب الشيشان إلى حرب عصابات، مما جعل الروس يترحمون على حرب أفغانستان. فخلال النصف الأول من عام ١٩٩٥ م استمر المجاهدون في مقاومة الاحتلال الروسي، وأعلن جوهر دودايف التعبئة العامة في الشيشان في نيسان/ إبريل ١٩٩٥ م، وفي الوقت الذي أعلنت فيه روسيا أن آخر معاقل المقاومة الشيشانية قد سقطت، فإن وكالات الأنباء كذبت المزاعم الروسية، وأكدت أن الروس فشلوا في اقتحام قرية «باموت» الصغيرة وأن المقاتلين الشيشان قد أرغموا الجيش الروسي على الانسحاب منها بعد أن قصفها بالدبابات، والطائرات، لخمسة أيام متوالية. أما غروزني والمدن الشيشانية الأخرى التي خضعت للاحتلال فلم تهدأ لحظة واحدة رغم ما حل بها من خراب وتدمير، وعبَّرت عن رفضها التعامل مع سلطات الاحتلال الروسية، وقامت بمظاهرات غاضبة، واشتبكت الجماهير الشيشانية العزلاء مع الجنود الروس، وألحقوا بهم المذلَّة والهوان، ورفضت الجماهير التعامل مع الحكومة الجديدة التي شكلتها روسيا في الشيشان. وكذلك فشلت القوات الروسية في تعقب المجاهدين الذي اعتصموا بالجبال بواسطة الطائرات، وتمكن المجاهدون بأسلحتهم الخفيفة من إسقاط عدة طائرات روسية، ولكن الروس، وعلى الرغم من استمرار المقاومة الشيشانية، أوهموا أنفسهم أولاً، والرأي العام العالمي ثانياً، أن الشيشان قد خضعت لهم وأن الأمور تسير لصالحهم. وأخذوا يهددون بسحق المقاتلين وأطلقوا إشاعات كاذبة مفادها أن التشكيلات الشيشانية المقاتلة بدأت بتسليم أسلحتها للقوات الروسية. في هذا الوقت بالذات اضطر جوهر دودايف لتهديد الروس بتوسيع نطاق الحرب ونقلها إلى داخل الأراضي الروسية، بل والتلويح باستخدام أسلحة الدمار الشامل ضد أهداف روسية، وفي مقدمتها موسكو، علاوة على القيام بعمليات انتحارية ضد محطات نووية لتوليد الكهرباء، وحتى أن جوهر دودايف شنَّ حرباً نفسية واسعة، وهدد بنقل الحرب إلى أوروبا التي تدعم الروس في حربهم ضد الشيشان، ولإثبات جديَّة هذه التهديدات قام المجاهدون الشيشان

بعملية انتحارية ضد الروس، والهدف منها ليس القتل والإرهاب بل لفت أنظار العالم إلى القضية الشيشانية والتأكيد على أن الجهاد ما زال مستمراً، وكذلك إرغام الروس على الجلاء عن الشيشان وإجبارهم على إجراء مفاوضات مع المجاهدين الشيشان، وقد قاد هذه العملية القائد الميداني المجاهد «شامل باساييف».

لمحة إلى شخصية شامل باساييف: ولد المجاهد شامل باساييف عام ١٩٦٥ م في قضاء «فيدينو» في جنوب شرقي الشيشان، أي إنه خلافاً للرئيس جوهر دودايف لم ترحل عائلته إلى كازاخستان وسيبيريا ضمن حملة التهجير القسري الذي مارسه ستالين ضد الشيشانيين بتهمة التواطؤ مع النازيين الألمان، الذين غزوا القوقاز خلال الحرب العالمية الثانية. وانتسب شامل باساييف إلى معهد مساحة الأراضي في موسكو. ولم يكن معروفاً كقائد طلابي ولم تبرز ميوله القيادية في مرحلة الدراسة، إلا أنه عُرف باتزانه وهدوئه، وهذا ما أهَّله ليكون حكماً يفصل بين زملائه المتخاصمين، ولكنه نأى بنفسه عن الحفلات الصاخبة التي كان الطلاب يحيونها بين الحين والآخر، ولم يقرب الكحول، وعرف عنه ولعه بكرة القدم، وقرض الشعر، ومساجلة الأساتذة الذين يدرسون الماركسية[١] اللينينية؛ وعندما يتطرق النقاش مع الأساتذة حول المسألة القومية كان باساييف يصر على حق الشعوب والقوميات في تقرير مصيرها، وأنه يجب احترام هذا الحق. وعندما دب الخلاف بين غورباتشوف ويلتسين، حول حق القوميات المنضوية في الامبراطورية السوفييتية في الانفصال والاستقلال، فقد وقف دون تردد إلى جانب يلتسين، ولم يعرف أحد كيف استطاع هذا الشاب المتزن والكتوم الحصول على متفجرات وقنابل يدوية وكيف أدخلها إلى البيت الأبيض الروسي، إلا أن هذه الواقعة اعتبرها يلتسين وأنصاره مأثرة من مآثر شامل باساييف، وفعلاً شارك الشاب الشيشاني في الدفاع عن البيت الأبيض الروسي، «مقر البرلمان الروسي» الذي كان يلتسين يتخذه معقلاً لمقاومة المحاولة الانقلابية التي قام بها بعض ضباط الجيش السوفييتي في ١٩ آب/أغسطس ١٩٩١، وهكذا وظَّف يلتسين استقلال الشيشان

---

(١) انظر جريدة الحياة، الصادرة في لندن العدد «١١٨١٩»، ٢ تموز/يوليو ١٩٩٥ م مقال «المهم كيف تموت» للصحفي جلال الماشطة، وكذلك صحيفة الشرق الأوسط في أحد أعدادها في تموز/يوليو ١٩٩٥ م.

كورقة رابحة ضد غورباتشوف، وإثر انهياره غدا الحديث عن سيادة الشيشان واستقلالها جريمة انفصالية.

عاد شامل باساييف إلى الشيشان عام ١٩٩١ م بعد توطد أقدام يلتسين في السلطة ،منتشياً بشعار يلتسين الذي أطلقه إلى الجمهوريات السوفييتية «خذوا من السيادة ما استطعتم أن تهضموا». وشارك باساييف في الانتخابات الرئاسية في الشيشان، ولكن فوز جوهر دودايف فيها لم يؤد إلى قطيعة بين الرجلين، بل أصبح شامل من المقربين من جوهر دودايف الذي توسم في منافسه قدرات تنظيمية وعسكرية هائلة، سرعان ما ظهرت بجلاء في أبخازيا حيث شارك باساييف ضمن مجموعة من القوقازيين في معارك خاضها الأبخازيون من أجل الاستقلال عن جورجيا. والواقع إن الشعوب القوقازية تنظر إلى باساييف باحترام وتقدير كبيرين، لأنه من أبرز الأشخاص النشيطين العاملين من أجل استعادة جمهورية شمال القوقاز التي قامت بعد الثورة الشيوعية، وبالتحديد في عام ١٩١٨ م. ويحلم باساييف بقيام دولة إسلامية مستقلة تمتد من بحر قزوين إلى البحر الأسود. وقد ساهم باساييف في قيام اتحاد الشعوب القوقازية، وفي تحديد أهدافه منذ قيامه عام ١٩٩٣ م، وخلال الحرب الأبخازية برز «باساييف» كقائد معروف، ونائباً لوزير الدفاع في أبخازيا، وخلال نضاله مع الأبخازيين ضد الجيورجيين كان حليفاً للروس الذين وقفوا إلى جانب الأبخازيين ضد الجيورجيين الرافضين للتعامل مع موسكو آنئذ. ويشير عدد من المراقبين أن عمليات الأبخازيين كانت تجري بإشراف ضباط من المخابرات العسكرية الروسية، ويلمحون إلى وجود قنوات سرية بين باساييف والمخابرات الروسية مذاك، وسربت موسكو أنباءً عن تعاون باساييف مع جهات باكستانية، وذكرت أنه تلقى تدريباً خاصاً في معسكرات تمولها مخابرات باكستان، إلا أنه ومهما يكن من أمر فإن شامل باساييف، كغيره من الشيشانيين الآخرين، ولد مقاتلاً، ومثل سائر الجبليين تربى منذ نعومة أظفاره على قيم الشجاعة والرجولة، ولكن أحداً لا يعرف أين تعلم فنون القتال، وحرب العصابات العصرية. وعندما عاد إلى وطنه الشيشان غدت الكتيبة الأبخازية التي ضمت شيشانيين قاتلوا معه في جورجيا أهم التشكيلات العسكرية، واستخدمها جوهر دودايف لأغراض متعددة، ومنها تصفية عصابات السطو على القطارات المارة من روسيا إلى أذربيجان، ولا تذكر موسكو هذه الفضيلة لشامل باساييف رغم أن

المجاهد: شامل باساييف

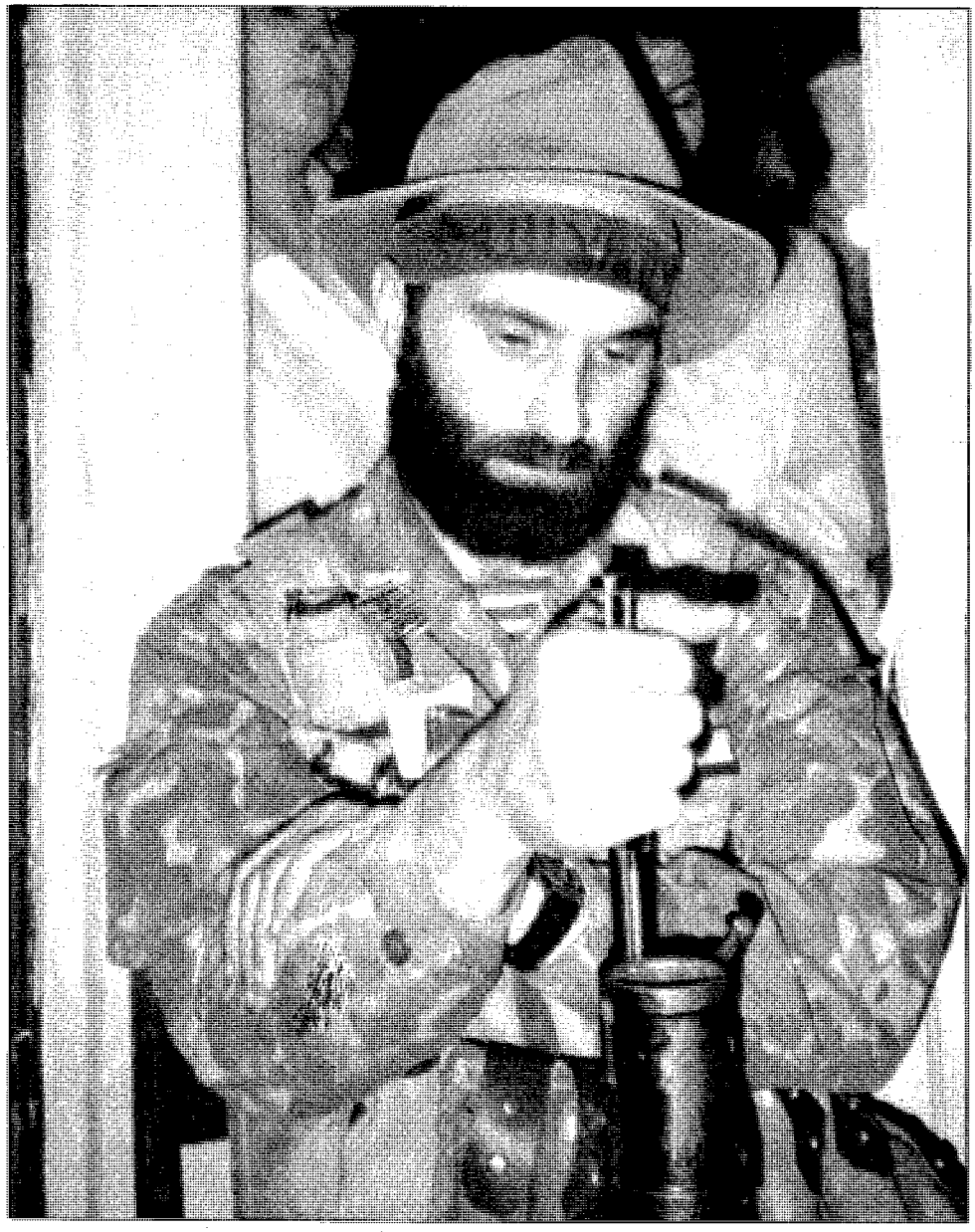

زعيم المجموعة الشيشانية شامل باساييف يجلس داخل المستشفى الذي يحتجز فيه مئات الروس في انتظار استكمال صفقة مع القيادة الروسية توقف المعارك في الشيشان مقابل إطلاق سراح المحتجزين

الكرملين اعتبر السطو على القطارات ذريعة لإعلان الشيشان «جمهورية إجرام» وفرض حالة الطوارىء عليها، كما نوهت سابقاً.

لم يشارك شامل باساييف في الإضراب الداخلي على مناطق النفوذ الاقتصادي، ولكنه تصدى بحزم لعصابات فرضت أتاوات على السكان المحليين وأرعبتهم، وخاض معركة حاسمة ضد «رسلان لابازانوف» الموصوف بأنه «عرَّاب المافيا الشيشانية»، والذي حصل فيما بعد على رتبة عقيد في الجيش الروسي لمشاركته في القتال ضد دودايف. أما شامل باساييف فقد حصل على رتبة مماثلة إثر معركة غروزني التي كانت الكتيبة الأبخازية من أهم التشكيلات التي صمدت في العاصمة الشيشانية، ثم انسحبت إلى المثلث الاستراتيجي» وقاتلت بضراوة قبل صدور قرار التراجع إلى سفوح الجبال في قضاء «فيدينو» موطن باساييف، وأدى القصف الجوي الروسي على المنطقة إلى مصرع زوجة شامل باساييف، الأبخازية الأصل، «اندیرا»، التي لم تكمل عامها الثامن عشر، وولده الرضيع «إدريس»، وشقيقيه، وأختيه، وعدد من أقاربه.

عملية «بوديونوفسك»:

على الرغم من أن الروس يرون في استشهاد زوجة شامل باساييف وولده وأقربائه دافعاً حرك لدى شامل باساييف روح الثأر، وحفزه للقيام بعملية «بوديونوفسك»، إلا أن الحقيقة هي أن شامل باساييف كان قد صرح قبل استشهاد أقاربه بنواياه بنقل المعركة إلى الأراضي الروسية، وصرَّح بأنه لم يعد يقوى على رؤية الطائرات الروسية وهي تنقض على القرى الشيشانية وتقتل الأطفال والنساء والشيوخ العُزل. كما أن المجاهد جوهر دودايف حذر موسكو مراراً وتكراراً من أن الاستمرار والإمعان في سياسة الإبادة، والأرض المحروقة، سيؤديان إلى انفلات، ربما أفقده السيطرة على زمام الأمور. وهكذا يتضح أن هدف شامل باساييف لم يكن مجرد الثأر، أو القتل، وسفك الدماء، وإنما الهدف هو إجبار روسيا على إجراء مفاوضات مع الشيشان دون قيد أو شرط، وذلك تمهيداً للوصول إلى اتفاق ينهي الحرب ويُقر السلام النهائي، ويجبر الروس على سحب قواتهم والاعتراف باستقلال الشيشان[1].

---

(١) صرح شامل باساييف بعد تنفيذ عملية بوديونوفسك: «كان بإمكاننا الوصول إلى موسكو، =

ولتحقيق هذه الأهداف قاد المجاهد شامل باساييف مجموعة من المجاهدين الشيشان وذلك في ١٣ حزيران/ يونيو ١٩٩٥ م مكونة من «١٤٣» مجاهداً، وقامت المجموعة بخطف نحو «١٥٠٠» رهينة روسية بعد هجوم ناجح على أحد المستشفيات الروسية وتم الاستيلاء على المستشفى. وكانت العملية مفاجأة للرأي العام الروسي والعالمي، وذلك لأن روسيا ادعت أن المقاومة الشيشانية قد انتهت تماماً وهكذا خرق المجاهدون ستار الصمت التي حاولت موسكو إسداله على القضية الشيشانية، وعلى الفور قرر يلتسين وحكومته العتيدة اللجوء إلى الحسم العسكري، وأصر الروس على خيار القوة في حلِّ قضية رهائن المستشفى، وأصدر يلتسين أوامره للقوات الروسية، وتحركت على الفور قوات من عناصر الوحدات الخاصة التابعة للمخابرات والدفاع والداخلية، وجهاز حماية الرئيس يلتسين، وأُمرت بالتوجه إلى «بوديونوفسك» لمهاجمة المستشفى. ولدى وصول القوات الروسية إلى «بوديونوفسك» صبت قذائفها ونيران أسلحتها الفتاكة على الرهائن والمقاتلين الشيشان، ولكن هذا العمل الوحشي لم يؤد إلى إطلاق سراح الرهائن، مما أرغم رئيس الحكومة الروسية «تشيرنوميردين» على إجراء اتصال هاتفي مع المجاهد شامل باساييف، ووعد رئيس الحكومة الروسية في مكالمته الهاتفية التي نقلها التلفزيون الروسي على الهواء مباشرة بأن الهجوم على المستشفى لن يتكرر، حفاظاً على أرواح الرهائن، فرد شامل باساييف بتوجيه اللاقطة إلى النوافذ[1] لكي يسمع «تشيرنوميردين» صوت الرصاص في موسكو، وسأل بمرارة عن الشخص الذي يقود العملية، أجاب رئيس الحكومة الروسية أن «فيكتور برين» وزير الداخلية هو المشرف الميداني، فطالب باساييف أن يُكلف الوزير بأن «يحمل عصا ويضرب كل ضابط على رأسه، ويقول له لا تطلق النار حقناً للدماء». وخلال الحديث الهاتفي الذي أجراه رئيس الحكومة الروسية مع المجاهد شامل باساييف من مقر الحكومة الروسية بحضور «بافل غراتشوف»، طلب باساييف إجراء استفتاء في روسيا بشأن الوضع في الشيشان،

= لو كانت بحوزتي الأموال الكافية لرشوة كل مراكز المراقبة التي علينا أن نجتازها في الطريق»، انظر جريدة الشرق الأوسط، ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٩٥ م، زاوية «من أقوال الأسبوع»، الصفحة الأخيرة.

(١) راجع «جريدة الشرق الأوسط» الصادرة في لندن عدد ١٩/ ٦/ ١٩٩٥ م.

لكن تشيرنوميردين أكد استحالة إجراء مثل هذا الاستفتاء لأنه غير ممكن بموجب الدستور الروسي، وأكد باساييف أنه سيفرج عن الرهائن بعد أن يصدر رئيس الوزراء الروسي أمر وقف إطلاق النار، ويبدأ محادثات في الشيشان، فأكد رئيس الحكومة أن أمر وقف إطلاق النار قد صدر، وكذلك وقف الأنشطة العسكرية، وقدم تشيرنوميردين ضمانات للمقاتلين الشيشان بعدم ملاحقتهم ومتابعتهم، أو محاولة منعهم من الفرار والوصول إلى أماكن يأمنون فيها على حياتهم. وقد انتهت هذه العملية بخروج المجاهدين ومعهم «١٩٠» رهينة بينهم «١٦٠» صحفياً و«٨» نواب أعضاء في الدوما، وسار موكب المجاهدين في سبع حافلات وتوقفوا في داغستان ولم تفارقهم الدبابات الروسية وكذلك المروحيات لحظة واحدة. وأفرج الثوار عن «١٤٠» رهينة، وقتل الروس في هجومهم على المستشفى «١٥٠» رهينة. وهكذا تمكن المجاهدون من الوصول بالقافلة إلى بلادهم الشيشان؛ وقبل يومين من الوصول إلى الشيشان أمر الروس قواتهم بوقف إطلاق النار في الشيشان، وتم الإتفاق بين الطرفين على التفاوض على أساس الانسحاب التدريجي الروسي من بلاد الشيشان. واضطر الروس إلى توقيع اتفاقية مع الشيشان في ٣١ تموز/ يوليو ١٩٩٥ م، وهكذا لفتت العملية الناجحة أنظار الروس والعالم الخارجي إلى خطورة أزمة الشيشان، كما أحدثت أزمة سياسية في موسكو دفعت يلتسين إلى عزل كل من وزير الداخلية وشؤون القوميات، ورئيس الأمن القومي. وهكذا أرغمت عملية «بوديونوفسك» الروس على توقيع اتفاق مع الشيشان نص على «وقف الأعمال العسكرية وتبادل الأسرى ووقف كل العمليات الانتحارية ونزع سلاح المقاتلين الشيشان بعد انسحاب القوات الروسية من جمهورية الشيشان، مع السماح للشيشانيين بالاحتفاظ بوحدات للدفاع الذاتي تضم كلاً منها ما يصل إلى «٢٠» رجلاً في كل قرية أو مستوطنة. أما بالنسبة للمجاهد شامل باساييف بطل العملية فقد انحنى أمام الروس المختطفين، وطلب منهم المغفرة وكرر «سامحوني» ثلاث مرات مؤكداً أنه كان «مُكرهاً لا بطل». والسؤال الآن هل صحيح أن شامل باساييف إرهابي كما تزعم روسيا؟ إن شامل لم يكن إرهابياً ولن يكون. وهل سمع العالم كله أن إرهابياً يطلب المغفرة من المختطفين؟! إن الإرهابي يلجأ إلى القتل لمجرد القتل، ودودايف وشامل لم يكونا إرهابيين، وذلك لأنه طوال الحرب التي قادها دودايف، والتي راح ضحيتها

عشرات الآلاف من بني قومه من المدنيين عفت يداه عن أن تلوث بدم أي مدني روسي، ليس هذا فقط بل كان مبدئياً ولم يضغط على الكرملين لوقف مذبحة الشيشان بضرب أهداف مدنية روسية، رغم أنه هدد باللجوء إلى ذلك ولكنه لم يفعل ذلك وإنما تهديده يدخل ضمن حربه النفسية التي شنها ضد الروس ليس إلا.

إذن لم يكن دودايف ورفاقه إرهابيين، بل كانوا جنوداً مؤمنين بعدالة قضيتهم التي ضحوا من أجلها وملتزمين بالأخلاق والمبادىء التي يمليها عليهم دينهم الإسلامي، الذي ينبذ الإرهاب بكل أشكاله وصوره.

عملية الذئب الوحيد:

كان من الممكن أن تكون عملية «بوديونوفسك» آخر العمليات الانتحارية، لولا تخبط السياسة الروسية، وترددها في التعامل بجدية مع قضية الشعب الشيشاني. ويتضح ذلك التخبط في تصريحات يلتسين، فهو يصرح مرة بالاعتراف بالخطأ في التدخل في الشيشان، ثم بعد ذلك يتشدد ويطالب بسحق المجاهدين. كما أن روسيا لم تلتزم بالاتفاقية التي وقعتها مع المجاهدين الشيشان في ٣١ تموز/ يوليو ١٩٩٥ م، وهكذا فإن تخبط السياسة الروسية في أعلى مستوياتها واستمرارها بالتنكر لحق الشعب الشيشاني في الاستقلال، وإمعانها في اتباع حرب الإبادة وسياسة الأرض المحروقة وتعقب المقاتلين الشيشان براً وجواً. كل هذا دفع المجاهدين لاستئناف الجهاد والكفاح ضد الروس، واضطروا ثانية إلى مهاجمة القوات الروسية ومباغتتها، وقتل العديد من أفرادها، حتى أنهم تمكنوا من إصابة قائد القوات الروسية في الشيشان، وبعض معاونيه. ومما أثار حفيظة المجاهدين هو إمعان روسيا في التنكر للاتفاق الذي وقعته معهم بعد عملية «بوديونوفسك»، وقيامها بتعيين «دوكوزا مخاييف» رئيساً لحكومة الشيشان الموالية لموسكو، وقد حاول الثوار اغتياله لكنهم لم يوفقوا. ورغم إصرار روسيا على اشتراك الشيشانيين في الانتخابات البرلمانية الروسية التي جرت في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٥ م إلا أن الشيشان لم يشاركوا فيها. في أواخر عام ١٩٩٥ م استمرت المعارك في «جودمريس»، وهكذا عادت روسيا إلى سياستها دون أن تأخذ درساً مفيداً من عملية شامل باساييف، الأمر الذي اضطر المجاهدين بقيادة المجاهد «سلمان رادويف» ٢٨ سنة للقيام بعملية «الذئب الوحيد»، في التاسع من كانون الثاني/ يناير ١٩٩٦ م.

فقد تمكن «سلمان رادويف» من التسلل مع مجموعة من الفدائيين الشيشان إلى قرية «بيروفوماسكايا»، وهو صهر الجنرال جوهر دودايف وتمكن من احتجاز ١٥٠٠ رهينة من الروس في مستشفى «كزليار» في قرية «بيروفوماسكايا» الواقعة في داغستان، قرب الحدود مع الشيشان، كان توقيت العملية سيئاً جداً بالنسبة للرئيس يلتسين الذي كان لا يزال تحت تأثير ضربة الانتخابات، التي فاز فيها الشيوعيون بنسبة ٢٢٪، وكانت ظروفه الصحية غير مريحة أيضاً، وهكذا أراد جوهر دودايف من العملية وضع يلتسين في امتحان صعب وعصيب، ولكن يلتسين ديكتاتور روسيا الجديد أصر على خيار القوة في حل قضية الرهائن، وأصدر تعليماته وأوامره للجيش والوحدات الخاصة وقوات وزارة الداخلية، وانطلق الجيش الروسي بطائراته المروحية ودباباته وصواريخه من طراز «غراد» للقضاء على مجموعة «سلمان رادويف» المؤلفة من «١٥٠» مسلحاً والمتحصنة في قرية صغيرة «٣٠٠» بيت تقريباً، وعلى الرغم من النداءات المحلية والدولية التي ناشدت يلتسين وحثته على إيجاد خاتمة سلمية لهذه العملية، إلا أن يلتسين أمر قواته بمحاصرة «بيروفوماسكايا» وإقامة آلاف الحواجز وتطويقها بآلاف الجنود وعشرات الدبابات، ومن ثم أمر بقصف القرية. وقد دمرها القصف الروسي حجراً حجراً، وقتل جميع الرهائن البالغ عددهم «١٥٠٠»[١] ولم ينج سوى «٢٨» رهينة كانوا قد تمكنوا من الفرار من الجحيم. وقد شاهد جميع الروس وقائع هذه الملحمة اليلتسينية على شاشات التلفزة، ولكن مما يدعو للدهشة والاستغراب كيف تمكن المجاهد سلمان رادويف ورفاقه التسلل من بين آلاف الحواجز التي طوقت بها القرية، وأن يحققوا نصراً مذهلاً بانسحابهم العجيب الذي اقتادوا فيه أيضاً «٦٠» رهينة روسية مدنية. لقد كان البقاء على قيد الحياة في ظل الظروف التي خيمت والإمكانات التدميرية التي وُظفت من قبيل المستحيل، فكيف تمكن المجاهد سلمان رودايف ومجموعته اختراق الأسوار والتحكيمات والتحصينات التي فرضها الروس، والذي حصل أن الفدائيين شعروا بعزائم الروس على استعمال الوسيلة العسكرية ولاحظوا[٢] كثافة الوجود العسكري الروسي، وإجراءات الإخلاء التي

---

(١) راجع: مجلة الكفاح العربي اللبنانية العدد ٩١٣، تاريخ ٢٩/ ١/ ١٩٩٦ م.

(٢) راجع: جريدة المستقلة الصادرة في لندن، مقال خالد شوكات «من أي طينة صنع هذا =

حدثت في البلدان والقرى القريبة، ثم الأطواق التي بنيت بما يثبت النية القتالية لذلك بادرت مجموعة «رادويف» إلى تقسيم نفسها إلى مجموعات صغيرة بحيث تكون قادرة على تشتيت جهود الهجمة الروسية، والمناورة والمباغتة إذا ما اقتضى الأمر. ولئن كان يلتسين واثقاً من قدرته على سحق المجموعة الفدائية، فإن جوهر دودايف ليس أقل ثقة منه في قدرة رجاله على فعل الكثير في مجال تعكير الأجواء الروسية، وفي قدرة شعبه على الرفض والاستمرار في المقاومة. ومثلما قال ذات مرة، والحرب الشيشانية الروسية تعيش فصولها الدموية الأولى «إن باستطاعته نقل الحرب إلى سائر المناطق القوقازية والروسية، بل وما وراءها». وهكذا لم تكن مجموعة، رادويف مُجرد تقليد حرفي لجماعة شامل باساييف وإلا لما كانت النهاية الناجحة نفسها. لقد حسب المجاهدون الشيشان حسابهم لأسوأ الاحتمالات، ومنها أن يقصف يلتسين القرية بعد أن يضعف أمام غريزته التدميرية، لذلك أعدوا العدة لمجابهة حالة الحصار التي تعرضوا لها فعلاً، وتمكنوا من تطبيق السيناريو المناسب، وحققوا ما عُد معجزةً، وانسحبوا وعادوا إلى الشيشان، وساعة عودتهم إلى الشيشان أعلن زعيمهم «سلمان رادويف» أنه ينوي إطلاق سراح كافة الرهائن الذين اصطحبهم، وفيما سبق كانت الدفعات التي أُفرج عنها تجاوباً مع المساعي السلمية قد نوَّهت بالمعاملة الحسنة التي لقوها على أيدي محتجزيهم، فبرزت بذلك صورة مشرفة لمجاهدي الشيشان، وظهروا كمجاهدين شرفاء شجعان يناضلون فقط لأجل استقلال بلادهم الذي طالت مدة احتلاله، وإذلاله وقهره. وقد علق الرئيس جوهر دودايف على عملية صهره سلمان رادويف بقوله: «ستكون هناك مئات العمليات المشابهة إذا لم ينسحب الروس من الشيشان». وأضاف في حديثه مع صحيفة روسية: «الحرب بدأت لتوها». وصدق المجاهد جوهر دودايف، وفعلاً استمرت الحرب والمعارك الطاحنة بين الشيشان والروس بعد عملية الذئب الوحيد، وظل الثوار يهاجمون المواقع الروسية في كل أنحاء الشيشان، دون هوادة، وألحقوا بالروس خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، وفي الخامس عشر من شباط/فبراير ١٩٩٦ م رشح يلتسين نفسه رسمياً لرئاسة روسيا للمرة الثانية، واستمر في سياسة الأرض المحروقة، وأصر على إبادة الشعب

= الشعب»؟ ومقال: «الشيشان الذئاب الوحشية» ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٦ م.

الشيشاني بكامله والعالم كله يتفرج ولا يحرك ساكناً مما دفع الرئيس جوهر دودايف إلى إطلاق تهديدات بشن هجمات في أوروبا رداً على تأييد الغرب الضمني للحركة القمعية التي تشنها روسيا، وخاصة أن صندوق النقد الدولي قد قدم ما يزيد عن ٦ مليار دولار كقروض لروسيا، وهذا ما ساعدها على الاستمرار في الحرب. وقال الرئيس دودايف في حديثه لصحيفة «صباح التركية» نشرته في عددها الصادر في ١٢ شباط/ فبراير ١٩٩٦ م: «إن أوروبا تقف تتفرج على روسيا وهي تبيد شعبنا، لكننا في نهاية المطاف سنشعل الحرب في أوروبا». ولم يكتف دودايف بإطلاق التهديدات، بل استمر في حربه الضروس مع القوات الروسية. ولتغطية خسائرها وهزائمها المتلاحقة قامت القوات الروسية بتنفيذ مذبحة مروعة وبشعة في «نوفو غروزني»، في ٢٤ شباط/ فبراير ١٩٩٦ م، ورداً على هذه المذبحة قام المجاهدون بمهاجمة القوات الروسية في العاصمة غروزني نفسها، وألحقوا بالروس هزائم كبيرة جعلت حياتهم جحيماً لا يطاق. وفي الوقت ذاته شدد الثوار من هجماتهم على المدن الشيشانية الأخرى الخاضعة للاحتلال الروسي مما اضطر الروس للاعتراف بفشلهم في السيطرة على بلدة «ساما شكي»، رغم المذبحة التي نُفذت فيها. وصعَّد الثوار عملياتهم وأشعلوا نار الحرب في كل شبر من أراضي الشيشان، ونجحوا حتى في إسقاط عدد جديد من الطائرات المغيرة التي ما انفكت تهاجم المدن والقرى ليل نهار. ومع استمرار الجهاد وتصاعد عمليات المقاومة انخفضت معنويات الروس إلى الحضيض، لذلك قرر يلتسين القضاء على رمز صمود الشيشان وباعث قوميتها وقائد كفاحها المجاهد الرئيس جوهر دودايف بأي ثمن، وبأية وسيلة. وذلك اعتقاداً منه بأن التخلص من دودايف سيساعده على التخلص من المقاومة الشيشانية ويمهد له الفرصة للقضاء على المجاهدين. ومن المعروف أن الروس وعملائهم في الشيشان قد قاموا بمحاولات عديدة لاغتيال جوهر دودايف، ولكن محاولاتهم كانت تبوء بالفشل، ولعل السبب المباشر الذي دفع يلتسين لاغتيال الرئيس جوهر دودايف هو الانتقام لضحايا عملية «يرش - ماردي» التي نفذتها قوات المقاومة الشيشانية في السادس عشر من نيسان/ إبريل ١٩٩٦ م وراح ضحيتها ما يقارب الستين جندياً وضابطاً روسياً.

اغتيال القائد التاريخي جوهر دودايف:

بعد تدمير غروزني من قبل الجيش الروسي واحتلالها في ٢١/ ٢/ ١٩٩٥ م، قام جهاز العمليات الخاصة الفيدرالية، ووزارتا الدفاع[١] والداخلية الروسية بزرع أكبر شبكة جمع معلومات في التاريخ الحديث في جمهورية الشيشان، وكانت المهمة المنوطة بهذه الشبكة رصد أدق التفاصيل لما يدور، ومراقبة تحركات القيادات الشيشانية، وتسجيل مكالماتها ليجري إرسال هذه المعلومات والتفاصيل لغرفة عمليات خاصة تقوم بتحليل هذه المعلومات جنباً إلى جنب مع سيل المعلومات المتدفق من حكومة «زافجاييف» العميلة والموالية لموسكو في الشيشان. وقد ساعد تشابك العلاقات الأسرية الشيشانية على سهولة اختراقها واستخدامها كمصدر معلوماتي لا يرقى إليه الشك، وتم توظيفه ليقضي في النهاية على جوهر دودايف، وقد تمكن المجاهد جوهر دودايف من الإفلات من هذه الشبكة الروسية بفضل حنكته وذكائه، ولم يقع في أفخاخها الكثيرة والمبثوثة في كل أنحاء الشيشان طوال سنة ونصف السنة، ونجح في تضليل الروس ومخابراتهم وعملائهم، إذن ما الجديد في هذه القضية؟ وكيف تمكنت الأجهزة والمخابرات الروسية من اصطياد جوهر دودايف؟ والإيقاع به؟ في الحقيقة إن اغتيال دودايف تم عبر مؤامرة[٢] مشتركة دبرها الرئيس يلتسين بالتواطؤ والتعاون والتنسيق مع الرئيس الأمريكي كلينتون، وكانت عملية الاغتيال إحدى الممارسات الإرهابية الكلاسيكية واسمها الحركي «عملية الانتقام»، وقد حدثت في الساعة العاشرة والنصف من مساء يوم ٢١ نيسان/ أبريل ١٩٩٦ م، وقد استشهد دودايف في غارة جوية روسية استهدفت المكان الذي كان يتواجد فيه، حين كان يستخدم هاتفاً نقالاً يعمل بالأقمار الصناعية، وكان دودايف موجوداً في قرية «جاخي ـ تشو» جنوب الشيشان، وعلى

---

(١) انظر جريدة الاتحاد الظبيانية، عدد الثلاثاء ٢٠ ذي الحجة ١٤١٦ هـ الموافق ٧ أيار/ مايو ١٩٩٦ م مقال «رسلان حسب اللاتوف» «ماذا بعد اغتيال دودايف؟».

(٢) انظر كتاب «نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال»، تأليف: مجموعة من الكتاب السوريين «د. زهدي سطاس ـ وراتب سطاس، وملك أرسلان مرزة، وأميرة قبرطاي، والصادر عن دار مشرق مغرب بدمشق، في عام ١٩٩٧ م» الباب الثاني ـ الفصل الرابع ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب غروزني. وعند وصوله القرية توجه إلى منزل صديقه القاضي العسكري «مجيمدوف جانييف»، حيث صحبته زوجته «ألفتينا» وممثله بموسكو «خاميد كوربانوف»، علاوة على مرافقه وحراسه. وفي الساعة العاشرة والنصف توجه دودايف بصحبة «خاميد كوربانوف»، وحارسه إلى الخلاء ليتمكن من ضبط موجة جهازه الهاتفي الفضائي، وأجرى اتصالاً هاتفياً مع «كونستاتين وروف» البرلماني الروسي حول المباحثات المقترحة مع قوات المقاومة الشيشانية، والقوات الفيدرالية الروسية. وما أن بدأ الحديث حتى تم رصده وتحديد موقعه بوساطة الجهاز المتقدم لرصد المكالمات، الذي أهداه الرئيس كلينتون للرئيس يلتسين، والذي يستطيع كشف الخط المراقب خلال دقائق بدلاً من الجهاز الروسي القديم الذي يتطلب ساعتين لاكتشاف مكان المكالمة. وهكذا استطاع جهاز كلينتون[1] للرصد أن يحدد مكان دودايف بسرعة، وسرعان ما انطلقت طائرتان هجوميتان من إحدى القواعد في إقليم «روستوف» المجاور والقيتا قذائفهما على الصيد الثمين، الذي وقع في الشراك، وأصابت القذائف دودايف ومرافقيه إصابات شديدة لم يلبثوا معها إلا أن أسلموا أرواحهم». وبعد جريمة الاغتيال المروعة أنكرت روسيا علمها، أو علاقتها بالعملية، ولكن صحيفة «نيزا فيسيمايا ـ جازيا» المستقلة ذكرت استناداً لمصدر موثوق بوزارة الدفاع الروسية، أنه سوف يتم منح أوسمة، ونياشين، وعلاوات، ومكافئات، للمخططين والمنفذين لعملية الاغتيال، أما قائدا العملية فسوف يمنحان أرفع وسام روسي[2] «بطل روسيا» حيث يجري تكريمهما في حفل خاص لن تشهده وسائل الإعلام. وهكذا بفقد دودايف فقد شعب الشيشان المسلم ليس فقط أول رئيس لجمهوريته، وإنما قائد كفاحه ونضاله، وبطل الاستقلال الأول الذي نجح في شق طريق الشيشان نحو استعادة أرضهم، وكرامتهم، ودينهم واستشهد في سبيل ذلك.

---

(١) راجع مقال: روسلان حسب اللاتوف في جريدة الاتحاد، عدد الثلاثاء ٧ أيار/ مايو ١٩٩٦ م.

(٢) إن إمداد كلينتون للروس بهذه التكنولوجيا الأمريكية المتطورة يدل على ضلوع أمريكا في عمليات الإرهاب. والسؤال من يحاسب أمريكا على اغتيال جوهر دودايف؟ لا أحد يقدر على ذلك رغم أن هذه الواقعة الإرهابية الموثقة موضع بحث الآن من قبل البرلمان الأوروبي في إطار دراسة الاختراقات الأمنية الأمريكية لأوروبا.

٢ ـ وقائع الثورة الشيشانية في عهد «ياندربابيف»

في الرابع والعشرين من نيسان/ إبريل ١٩٩٦ م، وبعد ثلاثة أيام من الحزن والأسى على استشهاد القائد التاريخي[١] الشهيد جوهر دودايف، اجتمع قادة الشيشان وأعلنوا مبايعة سليم خان ياندربابيف رئيساً مؤقتاً للشيشان وقائداً للجهاد لمتابعة النضال من أجل الاستقلال والحرية. وقد أكدت زوجة الشهيد جوهر دودايف أن الزعيم الراحل كان يفكر في كتابة وصية للشعب الشيشاني لينتخب «ياندربابيف» خلفاً له، لكن الوقت لم يسعفه». يُعد ياندربابيف المفكر القومي للحركة الشيشانية، ولكنه اختفى عن أنظار الشعب الشيشاني منذ بدء الحرب مع الروس، كما لم يشارك فعلياً في العمليات القتالية، وقيل إن السبب في ذلك هو انهماكه في تمويل الثورة الشيشانية، ولكن ابتعاده عن وقائع الحرب لا يعني أنه يفتقر إلى الكفاءة والمقدرة لقيادة شعبه في هذه المرحلة الدقيقة والصعبة من مراحل جهاده ضد الروس المحتلين، فبعد تسلمه قيادة الكفاح برهن ياندربابيف أنه الأشد عداء لموسكو والأكثر راديكالية فيما يتعلق بعلاقة حركة المقاومة الشيشانية بموسكو. يعرف ياندربابيف في الأوساط الأدبية بصفته شاعراً وكاتباً أكثر من شهرته كسياسي وقد بادر إلى تعلم اللغة العربية على يد أحد الطلاب العرب، وأعرب عن أسفه لأنه لم يتعلم اللغة العربية في صباه، وطالب الحكومات العربية والإسلامية بإرسال أساتذة لتعليم شعب الشيشان وشعوب القوقاز العلوم الإسلامية، واللغة العربية، وأن يؤسسوا معاهد لهذه الغاية.

---

(١) على أثر إعلان استشهاد دودايف أعلن صهره سلمان رادويف أن جوهر دودايف لا يزال حياً، ويتلقى العلاج في الخارج، وقد تعززت هذه الدعاية نتيجة الغموض الذي غلف تصريحات خلفه ياندربابيف، وامتناع القيادة الشيشانية عن كشف الموقع الذي دفن فيه، واستمرت هذه الشائعات التي تزعم أن دودايف لا يزال حياً، ومن ذلك ما ذكرته وكالة أنباء «ريانوفوستي» في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨، بأن دودايف يتأهب للعودة إلى الشيشان من تركيا، بعد أن انتهى علاجه، وبعد تكرار هذه الشائعات اضطرت القيادة الشيشانية إلى وضع حد لهذه الأساطير وقامت في ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٨ م بوضع حجر الأساس لنصب تذكاري في الموقع الذي استشهد فيه وأعلنت أنها ستكشف عن موقع القبر.

نسور الشيشان

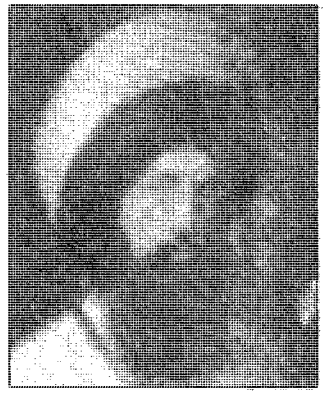

الإمام شامل محرر القوقاز

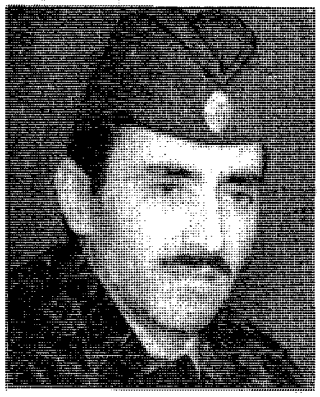

دودايف . . الشهيد الحي

ياندربايف

فاخا ارسانوف نائب الرئيس الشيشاني

أصلان مسخادوف رئيس جمهورية الشيشان المستقلة

منذ أن أوكلت إليه مهمة قيادة النضال أعلن ياندربابيف أنه سيتابع مسيرة الجهاد التي بدأها الشهيد جوهر دودايف، وتعهد باستمرار القتال حتى تحقيق النصر والاستقلال التام للشيشان. وهكذا استؤنفت المعارك الطاحنة، التي لم تتوقف أصلاً، وبعد ثمانية أيام من اختياره خليفةً لدودايف تناقلت وكالات الأنباء العالمية أنباءً متضاربة عن مصرع ياندربابيف، واتضح بعد ساعات أن هذه الأنباء هي من تلفيقات السلطة الروسية. ومن العمليات العسكرية الهامة في عهده قام المجاهدون الشيشان بشن هجوم واسع على مقر وزارة الداخلية الروسية في الشيشان. وتم قتل عدد كبير من الجنود الروس، وفي أيار/مايو اقترب موعد الانتخابات الرئاسية في روسيا وتصاعدت حملة يلتسين الانتخابية، التي كان ينافسه فيها «زيوجانوف» زعيم الحزب الشيوعي، والجنرال ليبيد، منافسة حامية، وخلال الحملة وبعد اغتيال الشهيد دودايف أعلن يلتسين: «بأنه يطرح باستمرار ضرورة وقف الحرب وبدء التفاوض، ولعلم الجميع فإن دودايف لم يكن يرغب في أيَّة مفاوضات، وكان هو المتسبب في الحرب». وهكذا افترى يلتسين على الشهيد جوهر دودايف، الذي أعلن عن رغبته في التفاوض مرات عديدة وطلب من تركيا، ومن مصر، أن تتوسطا للبدء في مفاوضات بين الشيشان والروس. ولكن يلتسين كان يرفض أية مفاوضات وراهن على الحسم العسكري وحده. ومع تصاعد الحملة الانتخابية الرئاسية في روسيا واشتداد المنافسة فاجأ يلتسين الجميع في روسيا وخارجها بإعلانه من مدينة «استراخان» بأنه مستعد للالتقاء بالزعيم الشيشاني الجديد «ياندربابيف» في موسكو، وأنه سيقوم بزيارته المرتقبة إلى الشيشان منذ فترة. وهذه هي المرة الأولى التي يعلن فيها يلتسين منذ بدء الحرب استعداده للالتقاء بزعيم شيشاني. وبعد إعلان يلتسين نشطت الوساطات الدولية لتأمين عقد هذا اللقاء وكانت منظمة الأمن والتعاون الأوروبي قد أعلنت عن إمكانية عقد ذلك اللقاء في بيان لها وزعته في «ڤيينا» بعد أن قامت المنظمة بدور الوساطة الرئيسي بين الجانبين، ونحَّت المنظمة بذلك كل إمكانيات الوساطة الأخرى التي دار الحديث عنها كوساطة منظمة المؤتمر الإسلامي، أو وساطة الملك الحسن الثاني ملك المغرب، أو الرئيس التتارستاني «شامييف»، ووساطة الرئيس التركي «سليمان ديميريل»، وظلت المبادرة بيد أوروبا أو هكذا أرادت روسيا للمبادرة أن تكون، وقد

استجاب ياندربابيف للوساطة ولمبادرة يلتسين، وأكد أن جمهورية الشيشان مُستعدة للتوصل إلى حل وسط مع القيادة الروسية، وتقدم بعض قادة الشيشان إلى «محمد محمدوف علي» رئيس مجلس الدولة الداغستانية باقتراح بعقد لقاء «ياندربابيف ويلتسين» في «محج قلعة»، عاصمة داغستان على أن يشارك اتحاد المسلمين الروس في اللقاء كوسيط، وصرح «نادر خاتشيلاف» رئيس اتحاد المسلمين الروس بأنه قد خاطب الزعيم الشيشاني ياندربابيف بهذا الخصوص، وكذلك أعلن الرئيس التتارستاني «شامييف» أن «قازان» عاصمة بلاده لا بد أن تكون محطة ذلك اللقاء. وتتويجاً لهذه الوساطات وهذه الجهود الدولية عقد اللقاء المرتقب في موسكو في **٢٧ أيار/ مايو ١٩٩٦** م بين ياندربابيف ويلتسين. وكان إلى جانب ياندربابيف وزير الثقافة الشيشاني أحمد «زيكايف» وقد عصب رأسه بشارة خضراء، كُتب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وجلس قُبالة يلتسين خلال المباحثات في الكرملين، وبعد المباحثات توصل الطرفان إلى توقيع اتفاق في ٤ حزيران/ يونيو ١٩٩٦ م في «نارزان» عاصمة الأنغوش، وقد تضمن الاتفاق «**وقف الأنشطة العسكرية** في الشيشان تمهيداً لإجراء مفاوضات سياسية، ووقف **جميع الأعمال العسكرية** بدءاً من أول تموز/ يوليو، وتم الاتفاق على **تبادل الأسرى** خلال أسبوعين». ثم زار يلتسين الشيشان للمرة الأولى في أواخر أيار/ مايو ١٩٩٦ م زيارة خاطفة تعرض فيها لمحاولة اغتيال، وأكد خلال الزيارة أنه سيسحب عدداً من الوحدات العسكرية الروسية من الشيشان قبل أيلول/ سبتمبر المقبل مؤكداً في الوقت نفسه أن الشيشان جزء لا يتجزأ من روسيا ولن يسمح بانفصالها على حد تعبيره واعترف صراحة بخطأ إعلان الحرب في الشيشان وتعهد بتصحيحه. كما أعلن أنه سيصدر مرسوماً في وقت قريب يحدد فيه وضع الشيشان. وهكذا صرح يلتسين تصريحات كثيرة أثناء حملته الانتخابية، وذلك لكسب تأييد الناخبين وفي كل مكان كان يتوجه إليه يلتسين كان يُوجه إليه نفس السؤال: «متى ستضع حداً للحرب؟»، ولهذا أصدر يلتسين في ٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٩٦ م ما بين الجولتين الانتخابيتين مرسوماً بسحب القوات الروسية من الشيشان على مراحل، وقال خلال تفقده بعض الوحدات الروسية أثناء النزاع: «لم يتسن لي تجنب الأخطاء والهفوات». وأضاف أنه لا يمكن أن يرفع عن نفسه الذنب، وجدد التأكيد أن من شأن الاتفاق الذي توصل إليه في الكرملين مع

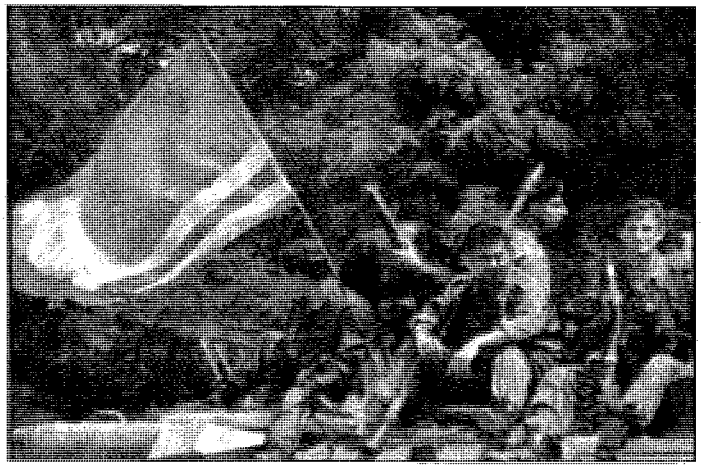

مقاتلون شيشان
ارتسمت على وجوههم
سعادة الانتصار

سياسة الأرض المحروقة
لم تجد نفعاً

متطوع شيشاني عجوز
يحمل السلاح

(نقلاً عن جريدة الشرق الأوسط ـ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥)

ياندربابيف أن يمنع استخدام القوة من جانب الطرفين. وهكذا استغل يلتسين ورقة الشيشان في حملته الانتخابية على أفضل وجه، وقد ساهمت تصريحاته ومراسيمه المتعلقة بالشيشان في صُنع نجاحه بالانتخابات الروسية، بالإضافة إلى عوامل أخرى. وبعد فوزه في الجولة الثانية من الانتخابات تراجع يلتسين عن اتفاقاته مع الشيشان، واكتفى بعزل قائد القوات الروسية في الشيشان «فيتشيلاف تخوميروف» الذي اشتهر بتصريحاته النارية المتشددة، وعين الجنرال «قسطنطين كوليوفسكي» بدلاً منه. وقام يلتسين بتعيين الجنرال «ليبيد» الذي حصل على ١٤٪ من الأصوات في الجولة الانتخابية الرئاسية الأولى سكرتيراً لمجلس الأمن القومي، وذلك لأن ليبيد أيد يلتسين في الجولة الثانية، وفاز يلتسين بفضل أصوات «ليبيد» وأعلن ليبيد أن برنامجه كسكرتير للأمن القومي الروسي يتضمن وقف الحرب في الشيشان، ومكافحة الفساد، وحاول يلتسين الاستفادة من ورقة ليبيد فاتخذ عدداً من القرارات كان أهمها أنه تخلص من وزير الدفاع بافل غراتشوف، الذي ساءت سمعته نتيجة للكيفية التي حاول بها إنهاء الحرب في الشيشان وأحلَّ محله وزيراً جديداً من أتباع «ليبيد»، وهو الجنرال «إيجور روديونوف». كما قام يلتسين بإقصاء بعض العناصر من المتشددين داخل الكرملين، ومن بينهم سبعة جزالات من المؤيدين لوزير الدفاع السابق، وقد عقدت بعض الأوساط أملها على تعيين وزير الدفاع الجديد في «١٧ تموز/ يوليو ١٩٩٦ م»، الذي شهد له الجميع بأنه رجل عسكري نزيه لم ينغمس في قضايا الفساد والاتجار بالسلاح التي انغمس بها عدد كبير من الجنرالات الروس، وكان قد أصدر عدة تصريحات ضد الحرب، وكان «راديونوف» هو الجنرال الوحيد الذي رفع تقريراً في حينه لوزير الدفاع السابق «غراتشوف» بحقيقة أوضاع الجيش في الشيشان، ولكن «غراتشوف» ألقى بالتقرير في سلة المهملات، ولكن ما تأثير تصريحات يلتسين ومراسمه والتغييرات التي أحدثها على الحرب في الشيشان؟ إذا نظرنا إلى أرض الواقع نجد أن شيئاً لم يحدث وأن الحرب ظلت ملتهبة تأكل الأخضر واليابس، وأن الجيش الروسي ظل يستخدم الأساليب القمعية الوحشية، وظل يسير على سياسة الإبادة، وظل يقصف المدن والقرى الشيشانية. وقد ردَّ المجاهدون على استمرار سياسة الإبادة والأرض المحروقة رداً مناسباً ففي ١٤ تموز/ يوليو ١٩٩٦ م تمكنوا من قتل ٣٥٦ عسكرياً روسياً. وفي العشرين من

تموز/يوليو أغلقت السلطات الروسية مطار غروزني بعد مصرع وإصابة «٤٥٠» جندياً روسياً في هجمات للمقاومة الشيشانية، وتوافدت التوابيت التي تحمل جثث الجنود الروس إلى موسكو والمدن الروسية الأخرى، مما أدى إلى تزايد المعارضة الروسية للحرب. واتخذ مجلس الدوما الروسي قراراً بضرورة إنهاء الحرب في الشيشان، ونتيجة لتردي أوضاع الجنود الروس حيث أصبح الموت جوعاً يهددهم في الشيشان بسبب نقص الإمدادات. لهذه الاعتبارات كلها اضطر يلتسين مرغماً إلى تكليف الجنرال ليبيد سكرتير مجلس الأمن القومي الروسي باستلام الملف الشيشاني، وترك الحرية التامة له في التصرف، ولكن وفقاً للمصالح الروسية. وقام ليبيد بجولات عديدة إلى الشيشان واجتمع بأصلان مسخادوف، رئيس الأركان الشيشاني، وأعلن في ٢٥ تموز/يوليو ١٩٩٦ م عن وقف العمليات العسكرية في الشيشان، ولكن وزير الدفاع الروسي «إيجور روديونوف» أعلن في ٢٩ تموز/يوليو ١٩٩٦ م رفضه وقف الحرب في الشيشان، فكان ردّ المجاهدين على هذه الغطرسة تصعيد المقاومة الشيشانية وشن هجمات جريئة ومباغتة قُتل فيها المزيد والمزيد من الجنود الروس، فاضطر الجنرال ليبيد إلى الإعلان صراحة أن روسيا تقبل التفاوض مع أي وفد للمقاومة الشيشانية، وهكذا أصبحت المفاوضات وسيلة لكسب الوقت لأن روسيا كانت لا تزال مُصرة على الحل العسكري وبعد أن أدرك المجاهدون هذه الحقيقة اتخذوا قرارهم التاريخي بتحرير غروزني.

تحرير «غروزني»:

أيقن المجاهدون الشيشانيون أن المفاوضات وحدها لن تنهي مأساة الشعب الشيشاني، لأن الروس يلجؤون إلى المفاوضات لكسب الوقت ولخداع الرأي العام الروسي والعالمي، وأن وعود يلتسين بإنهاء الحرب لم تكن صادقة بل كانت دعاية انتخابية بدليل أنه عندما أصدر أوامره بوقف الحرب لم يضغط على المؤسسة العسكرية لإيقاف الحرب بل على العكس تماماً، فما يُعلن في وسائل الإعلام شيء وما يتم مباركته من خطط حربية شيء آخر تماماً. لذلك وضع قادة المجاهدين خطة مُحكمة لاقتحام غروزني والمدن الشيشانية الكبرى وانتزاعها وتحريرها من القوات الروسية وإرغامها على الدخول في مفاوضات حقيقية لإنهاء الحرب، وتم تحديد السادس من آب/أغسطس ١٩٩٦ م موعداً لبدء الهجوم الكاسح الشامل على

غروزني، وغيرها من المدن الشيشانية. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم المذكور شنَّ المجاهدون هجومهم الشامل على غروزني بقيادة المجاهد «شامل باساييف»، في حين قامت قوات أخرى بالهجوم على راجون، وجودرميس، وغيرهما، وأثبت هذا الهجوم أن الشيشان يعتبرون ظاهرة فريدة من نوعها في حروب القرن العشرين، فهذه قوة لا تطعم وتكسو نفسها فقط بل لكن على كل فرد وكشرف له أن يؤمن ثمن سلاحه قدر المستطاع أو أن يجرِّد الجنود الروس منه. وأثبت هذا الهجوم الكبير على غروزني وغيرها أن المقاتلين الشيشان ليسوا عصابات أو مجرمين مسلحين، كما أفادت الدعاية الرسمية الروسية، بل إنهم يشكلون جيشاً صغيراً قادراً على التخطيط لعملية لوجستية كبيرة ومُعقدة تشمل المئات، بل الآلاف، من الرجال، ومن ثم تنفيذها بشجاعة استثنائية نادرة. وأكدت وكالات الأنباء العالمية أن سياسة الأرض المحروقة وتدمير كل شيء في الشيشان من قبل الروس لم تحل دون تمكُّن الشيشان من الانتصار ورؤية الجنود الروس وهم يستسلمون، وبعد ثلاثة أيام من بدء الهجوم على غروزني تم إحراز تقدم مذهل، إلى أن تمكن المجاهدون من بسط سيطرتهم الفعلية على غروزني عدا بعض الجيوب الصغيرة، وقد تزامن دخولهم إليها وتحرير معظمها في التاسع من آب/ أغسطس ١٩٩٦ م مع الاحتفال الكبير الذي أقيم في موسكو لمناسبة تنصيب يلتسين لفترة رئاسية ثانية، فبينما كانت مدافع الكرملين تحيي يلتسين بطلقاتها المدوية، كان المقاتلون الشيشان يحيون الرئيس بطريقتهم الخاصة، وطلقات مدافعهم أيضاً. ولم يكن صدفة أن يتصاعد هجوم المجاهدين في يوم تنصيب يلتسين بالذات، فلقد أعد المجاهدون لذلك اليوم احتفالهم الخاص واتسع حجم المعارك، وتمكن المجاهدون من تطويق سبعة آلاف جندي روسي في غروزني وحدها، وتم قتل أكثر من «٢٠٠» عسكري روسي وتم أسر آلاف الجنود الروس وإصابة «٤٠٠» جندي آخر، واستولى المجاهدون على مقر الحكومة الشيشانية العميلة والموالية لموسكو، وتم إلقاء القبض على أعضاء هذه الحكومة، الذين كانوا مختبئين ومن بينهم رئيس البرلمان الشيشاني الموالي لروسيا «أمين عثمانييف»، ونجحوا في تطويق مطار «سيفرني» تمهيداً لاقتحامه في أية لحظة، وتم أيضاً إلقاء القبض على مدير الأمن الفيدرالي في الشيشان «رسلان تساكايف».

ورغم كثافة القصف المدفعي الروسي وقصف الطيران، فقد تمكن الثوار من السيطرة على غروزني، وقد أظهر التلفزيون الروسي الجنود الروس وهم يفرون عبر شوارع غروزني خشية تعرضهم لرصاص القناصة، وبدأت القوات الروسية تغادر المدينة المجاهدة وتتراجع بحثاً عن مكان آمن خارجها. لقد أصبحت المدينة جحيماً لا يطاق بالنسبة إليهم، وذكرت وكالات الأنباء العالمية أن القوات الروسية المندحرة والمتراجعة، والتي أصبحت خارج غروزني، لجأت إلى الانتقام من المدنيين وأخذت تطلق النار على اللاجئين وتطالبهم بالرشاوى، وعندما امتنعوا عن تلبية مطالب الروس قام الروس بارتكاب مجزرة بشعة خارج غروزني، إذ أوقف الروس السيارات المارة، وقتلوا بالسلاح الأبيض «١٨» راكباً شيشانياً، وذلك بالقرب من قرية «كوسومولسكوي» في إقليم «شولكوفسكايا». وأكدت وكالة رويتر في التاسع من آب/ أغسطس ١٩٩٦ م أن المجزرة وقعت عندما هبطت ثلاث مروحيات روسية على الطريق وترجل منها جنود روس أوقفوا جميع السيارات المارة، وأرغموا جميع الركاب على النزول وقتلوهم. وفي نفس الوقت الذي تم فيه تحرير غروزني كان المجاهدون في **أرجون**، الواقعة على بعد ١٥ كيلومتر من غروزني قد تمكنوا من تحريرها، وفي جودرميس تمكن المجاهدون بقيادة «سلمان رودايف» مُنفذ عملية **الذئب الوحيد** من تحرير المدينة رغم كثافة القصف المدفعي العشوائي على المدينة، وهكذا وبعد أن أحكم الثوار سيطرتهم على المدن الشيشانية وتحقق لهم النصر المؤزر أكد شامل باساييف أنه مستعد لبدء التفاوض مع الروس، واستقبال الوفد الروسي في غروزني المحررة، وأنه قادر على تأمين الحماية الكاملة لهم، ولم يبق أمام يلتسين بعد هذه الانتصارات الساحقة سوى القبول بالمفاوضات مع الشيشان المنتصرين، وجاء ليبيد إلى الشيشان، واجتمع مع أصلان مسخادوف رئيس الأركان الشيشاني. وتم توقيع اتفاقية عسكرية لوقف إطلاق النار في ١١ آب/ أغسطس ١٩٩٦ م، ولكن الروس كعادتهم لم يلتزموا بها، فاستأنف المجاهدون حرب التحرير وألحقوا بالقوات الروسية هزيمة نكراء وقطعوا عنها الإمدادات والمؤن، وعزلوها تماماً، ولم يعد بإمكان الروس إيصال حتى الطعام للجنود، أو تأمين الاتصال بهم بأية وسيلة، فاضطر الروس لاستئناف المفاوضات، واجتمع أصلان مسخادوف مع الجنرال ليبيد وبدأت المفاوضات،

وخلال المفاوضات لم يتوقف المجاهدون عن شن هجماتهم على الروس، مما ساعد أصلان مسخادوف على تصليب موقفه أثناء المفاوضات لأنه كان يفاوض من موقع القوة. وبعد أن خرج الوضع عن السيطرة، وخرجت المبادرة من أيدي الروس تماماً تم التوصل إلى توقيع اتفاقية «خاسيا فورت» بين الشيشان والروس في ٣١/٨/١٩٩٦ م. وقد صور الجنرال ليبيد وضع الجنود الروس في الشيشان قبل توقيع الاتفاقية مع أصلان مسخادوف بقوله: «لا بد من اتخاذ إجراءات لسحب القوات الروسية من الشيشان، لأنه ما من معنى، على حد قوله، لترك الجنود الروس هناك ليصبحوا طعاماً للمدافع، كنت أعرف أن أوضاع جيشنا سيئة في الشيشان، ولكن لم أكن أعرف، ولم أكن أتخيل، أن تكون متردية إلى هذه الدرجة. إذ لا يمكن أن نطلق كلمة جنود على أولئك البشر العُراة الذين يعانون من الجوع والعطش، ولا يمكن لهؤلاء أن يمثلوا قوات الداخلية الروسية أو وزارة الدفاع الروسية». أما اتفاقية «خاسيا فورت» فقد تضمنت البنود التالية:

١ ـ **وقف إطلاق النار** على كامل الأراضي الشيشانية مع بدء الانسحاب الجزئي للقوات الروسية والشيشانية من العاصمة غروزني، وتشكيل دوريات مشتركة من قوات الشرطة لإعادة النظام ومنع الاستفزازات وأعمال السلب والنهب وكل الممارسات المنافية للقانون.

٢ ـ تضمن الاتفاق تحديد الوضع القانوني المستقبلي للجمهورية الشيشانية التي استقلت عن روسيا منذ عام ١٩٩١ م، وذلك في ٣١ كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠١ م وأن يتم ذلك وفقاً لمبادىء حقوق الإنسان وحق تقرير المصير وحق الشعب الشيشاني في أن يعبر عن رأيه، وهذا يتطلب إجراء استفتاء لحسم الوضع النهائي للجمهورية. وحتى ذلك الحين فإن على موسكو أن تتخذ بعض الخطوات الإيجابية، منها بذل الجهود من أجل إعادة بناء الجمهورية التي دمرتها الحرب تماماً». وقد استلهم الجنرال ليبيد هذا الاتفاق من مضمون اتفاق كانت فرنسا قد وقعته في عام ١٩٨٨ م مع كالدونيا الجديدة، وقد نصَّ على تأجيل البت في تحديد الوضع القانوني لكالدونيا الجديدة لمدة عشر سنوات، أي لعام ١٩٩٨ م، وعندئذ يجري استفتاء شعبي لتقرير مصير البلاد.

وإذا نظرنا في اتفاقية «خاسيا فورت» بين ليبيد ومسخادوف نلاحظ أن الاتفاقية تضمنت وللمرة الأولى الإشارة إلى بناء العلاقات بين الشيشان والروس

على أساس مبادىء القانون الدولي، وتضمنت عبارات تُستخدم في حالة الصراع بين دول مُختلفة مثل النزاع العسكري، وحق تقرير المصير من دون أية إشارة لوحدة الأراضي الروسية.

وبعد توقيع الاتفاق في «خاسيا فورت» على الحدود الداغستانية الشيشانية، كانت أولى عبارات مسخادوف: «أقول للأمهات الروس لن يقتل جندي روسي واحد في الشيشان بعد الآن». أما الجنرال ليبيد فأعلن: «أن الحرب قد انتهت، لقد وضعنا أساساً لعلاقة متحضرة تستمر بين روسيا والشيشان حتى ٣١ كانون الأول/ديسمبر عام «٢٠٠١ م» عندما يجري الاستفتاء العام بشأن العلاقة بين الشيشان وروسيا، كفانا قتالاً». وأشار ليبيد في مؤتمره الصحفي الذي عقده بعد توقيع الاتفاقية إشارات[١] تعمق من دلالات استقلال الشيشان فقال: «ستنسحب القوات الروسية وسنسترشد في علاقتنا بالقواعد الدولية المعمول بها». أما الرئيس الروسي بوريس يلتسين فلم يقل كلمة واحدة عن الاتفاقية، وحتى أنه لم يظهر مباشرة خلال التسوية وفضل الحديث عنها من وراء ستار المكالمات الهاتفية، أو ستار الناطق الصحفي باسمه، أو ستار رئيس الوزراء. ويمكن تعليل موقف يلتسين أنه ربما يحتفظ لنفسه بخطوط التراجع، والأصح أنه غير قادر على الظهور لإعلان هزيمته والاعتراف بخطأه في غزو الشيشان. وفور توقيع الاتفاقية ذاعت شهرة ليبيد، وتحدثت وسائل الإعلام العالمية عن شخصية ليبيد وقدراته الخاصة، وأثر ذلك في توقيع الاتفاق المعجزة بين الشيشان والروس، ولكن وعلى الرغم من شخصية ليبيد وقدرته، إلا أنه لا يمكن أن نعزو ذلك النجاح للدور الذي لعبه ليبيد، بل هناك أسباب موضوعية، وعوامل كثيرة متراكمة، وفي مقدمتها الهزيمة العسكرية التي مُني بها الروس في الشيشان. لقد هزم الشيشانيون الروس رغم أن عدد قواتهم كان يتراوح بين «٣٠٠» و«٤٠٠» ألف جندي في مراحل مختلفة واستخدموا كافة الأسلحة الحديثة عدا القنبلة النووية، وأنفقت روسيا ما لا يقل عن «٥» مليارات دولار رغم أنها كانت تعاني من ظروف اقتصادية صعبة وحرجة، وفقد الروس في المعارك «٧٢٩» سيارة عسكرية ومصفحة و«١٠٨» دبابات وأكثر

---

(١) انظر جريدة الاتحاد الظبيانية في تحليلها الإخباري الذي كتبه أحمد الخميسي من موسكو في عدد ٢ أيلول/سبتمبر ١٩٩٦ م، وكذلك جريدة الشرق الأوسط، عدد ٢/٩/١٩٩٦ م.

من «٢٠» طائرة هيلكوبتر وعدد من الطائرات المقاتلة وعدة آلاف من القتلى وآلافاً من الجرحى والمعوقين والمصابين بعُقد وأمراض نفسية، وقد مُني الروس بهذه الخسائر الجسيمة مع العلم أن الشيشانيين لم يتلقوا أيّة مساعدة خارجية. وقد صرح «سيد أحمد» نائب وزير خارجية الشيشان[١] «إنه لم يساعدنا أحد في حرب الاستقلال غير الله، ولم تقدم لنا أي دولة عربية، أو إسلامية، أية مساعدات، ويعود ذلك إلى الحصار التام الذي كان يفرضه الروس على جمهورية الشيشان، أما المقاتلون العرب فلم يزد عددهم عن عشرة أشخاص وهؤلاء لا يمثلون مساعدة عسكرية لنا، وهؤلاء جاءوا إلى الشيشان قبل اندلاع المعارك من أجل الدعوة الإسلامية، وأثناء الحرب شاركوا فيها». وأضاف «إن هناك بعض الأخوة الشركس من جمهوريات شمال القوقاز، التي تسيطر عليها روسيا حالياً، تطوعوا إلى جانبنا، وعبَّر ذلك عن وحدة مصيرنا المشترك، أما المساعدات الخارجية التي وصلتنا من الدول الإسلامية فقد كانت على شكل ألبسة وأغذية وأدوية، ولم تصلنا مساعدات مالية أو عسكرية، وهذه المساعدات قدمتها لجان أهلية، لكن المساعدات المشابهة التي وصلتنا من الدول الغربية فاقت مساعدات الدول العربية والإسلامية». وأكد هذه الحقيقة كذلك نائب الرئيس الشيشاني «واخا أرسانوف»، فقال: «في أواخر عام ١٩٩٤ م اجتاحت القوات الروسية بلادنا واضطررنا للدفاع عن أنفسنا، ولكن الله كان أكبر من الحشود العسكرية الروسية وانتصرنا باعتمادنا على الله، والتمسك بدينه، والجهاد في سبيله ولم يساعدنا أحد وظهرت دلائل الإعجاز بتثبيت المجاهدين وانتصارنا على الجيش الروسي الذي هُزم، وأرغمناه على توقيع اتفاقية لإيقاف الحرب التي استمرت «٤٠٠» عام وكيفية قيام علاقة بين الشيشان وروسيا، مثلها مثل أي دولتين في العالم، وإعادة إعمار البنية التحتية في الشيشان وفتح مطار غروزني وقد استطعنا خلال عام ١٩٩٧ م إصلاح ٤٠٪ مما دمرته الحرب»[٢]. وعلى أثر توقيع اتفاق «خاسيا فورت»، والانسحاب الجزئي

---

(١) انظر جريدة الرأي العام الكويتية، العدد «١١٢١٠»، تاريخ ١/٣/١٩٩٨ م في مقابلة مع سيد أحمد، وكان مستشار الشهيد جوهر دودايف وأدى فريضة الحج مع بعض الشيشانيين عام ١٩٩٤ م.

(٢) انظر جريدة البيان الإماراتية، العدد «٦٤٩١» ٢٧ آذار/ مارس ١٩٩٨ م.

للقوات الروسية عمد المقاتلون الشيشان إلى إعادة إعمار البلاد، وتنظيم شؤونها المختلفة، وإصلاح ما دمرته الحرب وتم الاتفاق بين قادة الشيشان على تشكيل حكومة ائتلافية مؤقتة لحين إجراء الانتخابات البرلمانية والرئاسية، وتسلم أصلان مسخادوف رئيس الأركان الشيشاني رئاسة هذه الحكومة. وخلال هذه الفترة التي تلت توقيع الاتفاقية شهدت روسيا تغييرات كثيرة أهمها أن يلتسين أعلن إقالة الجنرال ليبيد في ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٧ م بعد أن اتهمه وزير الداخلية الروسي بتدبير انقلاب عسكري، وعين بدلاً منه «إيفان ريبكين» سكرتيراً لمجلس الأمن القومي ومبعوثاً في الشيشان، وعلى أثر تسلمه لمنصبه أعلن «ريبكين» تعهده بمواصلة الجهود السلمية في الشيشان، وأبلغ قادة الشيشان التزام روسيا باتفاقية «خاسيا فورت»، ولكن الشيشانيين اقتنعوا بأن عزل ليبيد يعني تراجع الروس عن الاتفاقية فاجتمع قادة الشيشان في «نارزان» عاصمة الأنغوش يوم ٢٧/ ١٠/ ١٩٩٦ م تحت زعامة «ياندربابيف»، الذي أعلن بكل حزم تمسك المجاهدين بإعلان الاستقلال الذي أطلقه الشهيد جوهر دودايف، منذ عام ١٩٩١ م. ولكن موسكو تجاهلت ذلك، وبعد تأكيدات ياندربابيف الحازمة وتمسكه بالاستقلال اضطرت روسيا إلى إرسال رئيس مجلس الأمن القومي الروسي الجديد «إيفان ريبكين» للقاء مسخادوف وإبلاغه بأن موسكو ستحترم اتفاقية السلام مع الشيشان التي أبرمها سلفه الجنرال ليبيد، وعندما سُئل الرئيس الشيشاني المؤقت عن هذا التناقض والتخبط في المواقف الروسية قال: «يبقى احتمال تراجع روسيا عن موقفها من التسوية السلمية احتمالاً متوقعاً في كل الظروف، ولا سيما أن القوى التي شنت الحرب ما زالت في القيادة الروسية، ونأمل أن يكون توقيع اتفاقية «خاسيا فورت» ومن قبلها اتفاقية وقف إطلاق النار في «١١» آب/ أغسطس ١٩٩٦ م مع موسكو هي بمثابة نهاية للحرب، ولكن لا أستطيع التأكيد أن الحرب قد انتهت ومن ثم فإن عملية التسوية ستبقى مُستمرة، وسيظهر في المستقبل ما إذا كانت هذه الاتفاقيات ستضع نهاية للحرب. نحن من جانبنا نطمح إلى ذلك بالتأكيد، وأياً كان مسار المفاوضات فإن ذلك لن يغير وضعنا الطبيعي، وهو وضع الدولة المستقلة، لقد دافعنا عن استقلالنا عبر حرب قاسية، ومن السذاجة الاعتقاد بأننا سنتخلى عنه»[١].

---

(١) راجع: مجلة الفيصل العدد ٢٥٩، المحرم ١٤١٩ هـ أيار/ مايو ١٩٩٨ م مقال بسام العسلي عن الحرب الشيشانية.

وأكّدت الأيام القادمة صحة مخاوف الشيشان من لجوء روسيا إلى التراجع عن الاتفاق، حيث حاول الروس اغتيال رئيس الوزراء الشيشاني أصلان مسخادوف في ١٤/ ١١/ ١٩٩٦ م وذلك بتفجير لغمين قرب منزله، وعلى الفور صرح الرئيس الشيشاني ياندربابيف أن هذه العملية «محاولة لإجهاض اتفاقية السلام». وبعد فشل هذه المحاولة وتردي وضع القوات الروسية في الشيشان وتصاعد المظاهرات في روسيا للمطالبة بإنهاء الحرب في الشيشان، وسحب القوات الروسية اضطرت روسيا إلى إجراء مفاوضات مع قادة الشيشان. ففي ٢٣/ ١١/ ١٩٩٦ م اجتمع مسخادوف مع تشيرنوميردين وتم توقيع اتفاقية جديدة تضمنت سحب لواءين روسيين وتحديد أطر الاستقلال الشيشاني، وتوقيع **اتفاق عسكري** يقضي بعدم **اللجوء إلى القوة** وإيجاد **حلول لمشكلة حماية** حدود الشيشان مع جورجيا بمفاوضات سياسية مع الموافقة على مناقشة **قضية اشتراك وحدات رمزية من كازاخستان** في حراسة الحدود مع الشيشان وإلغاء **مرسوم يلتسين**، الذي كان قد أصدره عشية بدء القتال في الشيشان في ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ م، والقاضي بإعلان الحرب على الشيشان، بحجة إعادة النظام الدستوري للشيشان، والقضاء على عصابات المافيا والمخدرات.

وأول ما يمكن ملاحظته على هذا الاتفاق الجديد أنه يشكل في الواقع تمهيداً لاعتراف روسيا باستقلال الشيشان، على الرغم من إصرار موسكو على عدم استخدام كلمة استقلال، ورغم أنه لم يكن سوى اتفاق مرحلي لتنظيم الفترة الانتقالية ويتوقف مفعوله بمجرد إعلان نتائج الانتخابات الرئاسية والبرلمانية القادمة في ٢٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧ م، وتتويجاً لكل تلك الاتفاقات السابقة انسحب آخر جندي روسي من الشيشان في ٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧ م. ولم يكن المرسوم الذي أصدره بوريس يلتسين وهو يفيق من آثار العملية الجراحية بانسحاب القوات الروسية من أرض الشيشان مفاجأة لمن يتمتعون بذاكرة تاريخية جيدة، فهو صورة أخرى من قرار الرئيس الأمريكي نيكسون بانسحاب القوات الأمريكية من فييتنام، أو قرار الجنرال ديغول بانسحاب القوات الفرنسية من الجزائر، أو قرار غورباتشوف بالانسحاب من أفغانستان. نعم لقد انتصر الشعب الشيشاني بعد أن ضحى بالكثير الكثير، وقد بلغت تضحياته كما صرح وزير الإعلام الشيشاني ونائب رئيس الحكومة «مولادي أورغوف» يوم ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر

١٩٩٦ م بأن الخسائر التي نزلت ببلاد الشيشان قد وصلت إلى ما يعادل «١٥٠» ملياراً من الدولارات، وأن شعب الشيشان قد خسر من أبنائه «١٠٤» آلاف شهيد، معظمهم من المدنيين، إذ قُدِّر عدد الشهداء من المجاهدين بـ «٤٠٠٠» شهيد فقط. وهكذا فإن العدد الكبير من الشهداء من غير المقاتلين، وبالتحديد من النساء والشيوخ والأطفال يعدُّ دليلاً على أن روسيا مارست حرب الإبادة الجماعية ضد الشعب الشيشاني الأعزل، كما أن قلة عدد المجاهدين الذين استشهدوا يؤكد الكفاءة القتالية العالية للمجاهدين، بحيث كانت ضربات القوات الروسية تقع في الفراغ، هذا على الرغم من قلة عدد المجاهدين واستعمالهم أسلحة خفيفة، فقد تمكنوا من تنفيذ عمليات قتالية رائعة أذهلت العالم كله واستقطبت اهتمام الشعوب المقهورة والمضطهدة في أنحاء العالم كافة. وبعد توقيع اتفاقية ٢٣/ ١١/ ١٩٩٦ م تفرغ المجاهدون خلال الفترة الانتقالية الممتدة بين ٢٣/ ١١/ ١٩٩٦ م و٢٧/ ١/ ١٩٩٧ م للاهتمام بقضايا متعددة ومُلحَّة، في مقدمتها لَملَمة الجراح، وإعادة إعمار ما خربته الحرب، وتنمية الشيشان، وكذلك تهيئة الأجواء الملائمة لإجراء الانتخابات الرئاسية والبرلمانية. وفي هذه المرحلة الانتقالية أصدر الرئيس المؤقت سليم خان ياندربييف، في نهاية عام ١٩٩٦ م مرسوماً بتحويل المحاكم إلى محاكم شرعية تطبق نصوص الشريعة الإسلامية وأحكامها، وذلك تنفيذاً للوعود السابقة التي تعهد بها جميع قادة الشيشان بأسلمة المجتمع الشيشاني. كما أصدر ياندربييف مرسوماً آخر يقضي بأن تصبح اللغة العربية مادة إجبارية في المدارس الشيشانية في مراحلها جميعاً، وعلق ياندربييف على هذين المرسومين بقوله: «أنا أرفض تسمية علمانية أو دينية ثيوقراطية، والمهم هو القيم المعتمدة وكيف تنعكس على حياة المواطنين، وعلى علاقات الدولة وسياساتها الداخلية والخارجية، نريد إقامة دولة تؤمن حقوق رعاياها بصرف النظر عن انتمائها القومي أو الديني، ولكن على أساس القيم والشرائع الإسلامية، ويمكن تسميتها كما تشاؤون، علمانية أو ثيوقراطية».

«الانتخابات الرئاسية والبرلمانية في الشيشان»:

بعد إحلال السلام وانسحاب جنود الاحتلال الروسي بدأت الحملة الانتخابية لانتخاب رئيس للدولة و«٦٣» نائباً للبرلمان الشيشاني وتُعد هذه الانتخابات هي

الثانية في تاريخ الشيشان بحيث كانت المرة الأولى في ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١ م عندما انتخب مؤتمر الشعب العام الزعيم التاريخي الشهيد جوهر دودايف رئيساً للشيشان، وظل بمنصبه حتى استشهاده في ٢١ نيسان/ أبريل ١٩٩٦ م، وتعتبر هذه الانتخابات نجاحاً للمقاومة الوطنية التي وضعت الشيشان على أعتاب مرحلة استقرار سياسي وأمني بعد الحرب التي استمرت «٢١» شهراً، وتعدُّ أول انتخابات رئاسية وبرلمانية، تتم منذ أكثر من قرنين ونصف القرن بموافقة روسيا، ورغماً عنها وبمشاركة أطراف دولية ممثلة في منظمة الأمن والتعاون الأوروبي وممثلها «جولدمان». وهي أول انتخابات تأتي ثمرة لحرب مُظفرة بينما كان يعقب الثورات والانتفاضات الشيشانية السابقة، وعلى مدى التاريخ، حالة انحسار وتراجع ومزيد من هيمنة السلطات الروسية. وتأتي أهميتها أيضاً من أنها جرت في ظروف لم تعد تملك روسيا فيها أي تأثير سياسي في الشيشان. وقد بدأت الحملة الانتخابية منذ أوائل كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٦ م وقد تنافس فيها ستة عشر مرشحاً للرئاسة، و٨٥٠ مرشحاً للبرلمان، وكان أبرز المرشحين للرئاسة أصلان مسخادوف، وشامل باساييف، وسليم خان ياندربابيف، ومولادي أودجوف، وأحمد زيكايف، وكان القاسم المشترك بين المرشحين الرئاسيين هو شعار الاستقلال والتخلص من الهيمنة الروسية بأشكالها كافة. واستخدم المرشحون مكوِّنات ومصطلحات من العامل الإسلامي بدرجات متباينة كعنصر جذب انتخابي، وتعهدوا جميعاً بتطبيق الشريعة الإسلامية وأسلمة المجتمع الشيشاني. وكان شعار أصلان مسخادوف «الإسلام ـ الاستقلال ـ النظام». وقد أقسم الجميع على القرآن الكريم بألا يهاجموا بعضهم البعض وألا ينازعوا الفائز فيها، وأن يعملوا متحدين تحت قيادة الرئيس الجديد المنتخب أيّاً كان شخصه. وخلال الحملة الانتخابية أكد أصلان مسخادوف أنه في حالة فوزه سيعمل على قيام دولة إسلامية لأسلمة المجتمع الشيشاني، وصرح: «إذا كان دستورنا يتضمن أن الإسلام هو ديننا فإن ذلك لا يعني مثلاً إلغاء الانتخابات وتعيين إمام ليحكم». فالإسلام يسمح بانتخابات ديمقراطية حرة ونزيهة، أما عن برنامجه الاقتصادي فأعلن: «إن العنصر الرئيسي في برنامجي هو التركيز على الاعتماد على الذات خاصة أن لدينا احتياطاً من النفط والغاز وأراض زراعية لا بأس بها».

وفي يوم الإثنين ٢٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧ م توجه ما يزيد عن «٤٠٠» ألف ناخب[١] شيشاني لاختيار الرئيس الجديد و«٦٣» نائباً للبرلمان، وقد وصفت صحيفة لوفيجارو الفرنسية هذه الانتخابات بقولها: «إن الديمقراطية رفلت بين الأنقاض، وإن الشيشانيين يتوجهون للاقتراع وكأنهم يسيرون نحو حفل، وهم يريدون بذلك التأكيد على أنهم ما يزالون أحياء وأحراراً». وقد كان الإقبال كبيراً على مراكز الاقتراع، رغم البرد الشديد وتساقط الثلوج باستمرار على أنحاء الجمهورية الشيشانية كافة، ونظراً لهذا الإقبال المنقطع النظير اضطرت اللجان المُشرفة على الانتخابات لتمديد مدة التصويت ساعتين إضافيتين، وقالت وكالات الأنباء: إن الشيشانيين اصطفوا في طوابير أمام مراكز الاقتراع قبل أن تفتح هذه المراكز أبوابها في الصباح الباكر، وبعد فرز الأصوات فاز أصلان مسخادوف بمنصب رئاسة الجمهورية وبأغلبية ساحقة ٦٨,٦٪ وهو الخيار الذي كانت تفضله موسكو، وترى أن فوز مسخادوف يفتح الطريق أمام تسوية المشكلة الشيشانية، وأعلنت موسكو ارتياحها لهذه النتيجة. وهذا ما دفع بعض منافسيه للقول بأن مسخادوف يميل للتواطؤ مع موسكو، وقد ينتهي به الأمر للتنازل عن مواقفه الأصلية، وكان رد مسخادوف حاسماً على منافسيه الذين اتهموه بالتوفيقية والتساهل مع روسيا فقال في حديثه إلى صحيفة «أرغونتي أي فاكثي»: «إن موسكو مخطئة حينما تعتبرني رجل المساومات».

٣ ـ الثورة الشيشانية في عهد أصلان مسخادوف: يُعد أصلان مسخادوف من أبرز قادة الشيشان، وقد شارك في المعارك التي خاضها المجاهدون لمدة «٢١» شهراً بصفته رئيساً لأركان الجيش الشيشاني المقاتل، وبعد توقيع اتفاقية «خاسيا فورت» في ١٩٩٦/٨/٣١ م تولى رئاسة الحكومة الائتلافية المؤقتة، وقد عُرف عنه أنه محارب عنيد وشجاع، ويتميز بأعصاب قوية، وذكاء حاد ونادر، ومفاوض بارع إذ استطاع قيادة سائر الجولات التفاوضية مع الروس بحنكة بالغة، مما جعله

---

(١) لم يتمكن بعض اللاجئين الشيشانيين الذي اضطروا لمغادرة الشيشان خلال الحرب من المشاركة في عمليات الاقتراع، لأن الظروف لم تكن قد تهيأت لعودتهم، وخاصة في مجال ترميم المنازل المدمرة، أو إعادة بناء منازل جديدة.

محلاً للإجماع القومي. وقبل حرب الشيشان عرفته القيادة الروسية منذ تخرجه عام ١٩٨١ م من أكاديمية سلاح المدفعية بامتياز، مما أهّله لقيادة أفضل كتيبة مدفعية في بلغاريا. وبعد عودته عام ١٩٩٢ م تمت ترقيته إلى رتبة جنرال وهذا ما أكسبه احترام سائر القادة الشيشانيين بعد أن تيقنوا من قيادته البارعة في أعقاب تحرير غروزني وانتزاعها من براثن الدب الروسي الذي أراد ابتلاعها. وغداة انتخابه وفي أول حديث له بعد فوزه في منصب الرئاسة تعهد مسخادوف بتحويل الشيشان إلى دولة ذات سيادة معترف بها دولياً، وأكد في مؤتمر صحفي في غروزني: «أن شعب الشيشان بالكامل وبعد عامين من الحرب ينتظر هذا اليوم، وأكد سعادته لأن الشعب اتخذ الخيار الصحيح، وأضاف: إن الوضع السياسي للشيشان قد تحدد بالفعل، لقد حددنا في عام ١٩٩١ م أن الشيشان دولة مستقلة، وأعلنا سيادتها وكل ما تبقى هو أن تعترف بها الدول الأخرى، ومن بينها روسيا. ويمكن تحقيق ذلك بالوسائل السلمية». وأكد أنه لن يقبل بأقل من ذلك، وأبدى استعداده لاستئناف المفاوضات مع الروس من الغد، أو بعد غدٍ، أو في أي وقت وكلما كان ذلك أسرع كلما كان أفضل «.. كل شيء يتوقف على روسيا».

وفي الثاني عشر من شباط/فبراير ١٩٩٧ م شهدت غروزني في العاشرة من صباح ذلك اليوم يوماً تاريخياً قطعت من أجله طريقاً طويلاً مليئاً بالتضحية بكل غالٍ ونفيس، على حد قول الزعيم الشيشاني السابق ياندربايف، الذي افتتح الاحتفال بتنصيب أصلان مسخادوف رئيساً شرعياً لجمهورية الشيشان عبر انتخابات شعبية. وكانت جموع النساء والشيوخ والأطفال والمقاتلين قد بدأت بالتدفق على العاصمة منذ السابعة صباحاً حتى سدَّت الطرق المؤدية إليها، وبدأ الاحتفال في ظل حراسة مشددة تولاها أربعة آلاف مقاتل لقصر ثقافة «خيميك»، وبدأ الاحتفال بعزف النشيد الوطني الشيشاني بينما تصدرت خلفية المنصة صورة الذئب الوحيد، شعار الشيشان، والأعلام الشيشانية ولافتات معلقة يميناً ويساراً كتب عليها: «الإسلام ـ الحرية ـ الوطن» وفي أعلى المنصة رُفعت لافتة كبيرة كتب عليها باللغة العربية الآية القرآنية الكريمة: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا».

وبعد تسلمه الرئاسة شرع أصلان مسخادوف باتخاذ القرارات الهادفة إلى تنظيم أمور البلاد وإحلال الأمن والنظام وفرض هيبة الدولة، وكان أول مرسوم

يصدره هو حل الوحدات المسلحة تعبيراً عن انتهاء الحرب لتنضوي في عداد جيش نظامي رسمي، وشن حملة لمطاردة العصابات التي كانت تقوم بعمليات اختطاف، وذلك في محاولة منه لتطبيق النظام حتى لا يجري اختطاف أو قتل وغير ذلك، وقام بتشكيل حكومة في البلاد لتسيير أمور المواطنين وفرض هيبة القانون والنظام، وفي الوقت نفسه أخذ يستعد للدخول في مفاوضات جادة مع موسكو للتوصل إلى توقيع معاهدة تحدد وضع الشيشان، ويمكن إيجاز أهم إنجازاته بالأمور التالية:

١ ـ على الصعيد السياسي:

منذ يومه الأول في السلطة أصر مسخادوف على أن الشيشان دولة مستقلة عن روسيا منذ عام ١٩٩١ م، وبذلك خيب أمل القادة الروس الذين اعتقدوا أنه أقل صلابة من ياندربايف ومن شامل باساييف، وأقل تطرفاً، لذا قامت السلطات الروسية وبعد أن خابت الآمال التي عقدتها على فوز مسخادوف بمنصب الرئاسة، بفرض حصار اقتصادي وسياسي شامل على جمهورية الشيشان في محاولة يائسة لإجبار مسخادوف على قبول شروط موسكو التي لا تزال تطمح للاحتفاظ بالشيشان كجزء من الاتحاد الروسي، وبادرت روسيا إلى تحذير دول العالم كافة من الإقدام على الاعتراف باستقلال جمهورية الشيشان، وقد لجأت روسيا إلى إطلاق هذه التحذيرات بعد إعلان مسخادوف عن نيته في تعيين أول سفراء لبلاده في الخارج، واعتبرت روسيا هذه الخطوة محاولة شيشانية لإعلان الجمهورية الشيشانية طرفاً في القانون الدولي. وفعلاً أرسل أصلان مسخادوف عدداً من المبعوثين إلى دول العالم للحصول على الاعتراف الدولي، وكان في مقدمتهم أرملة الرئيس جوهر دودايف «ألفنتينا» التي ذهبت فعلاً إلى ليتوانيا، بعد أن دخلت المفاوضات بين الشيشان والروس طريقاً مسدودة واجتمعت «ألفتينا» مع رئيس البرلمان في ليتوانيا، مما أغضب موسكو، وغضبت موسكو أكثر عندما أصدر الرئيس مسخادوف قراراً بتعيين شامل باساييف نائباً أولاً لرئيس الوزراء في الشيشان، مما اعتبرته موسكو إهانة لها، وخاصة أن قرار العفو الروسي عن المقاتلين الشيشان لم يشمل «شامل باساييف». ولكن مسخادوف لم يعبأ باعتراض الروس على سياساته الداخلية والخارجية، ولا بالحصار الاقتصادي الشامل الذي فرضوه على الشيشان، وتمسك بموقفه، وأصر خاصة على موضوع الاستقلال،

وأكد أنه غير قابل للتفاوض أو الجدل والنقاش، ولم تجد الحكومة الروسية إزاء إصراره وتمسكه باستقلال بلاده إلا الرضوخ وبدء المفاوضات، وفعلاً بدأت مفاوضات بين الطرفين وتُوجت بتوقيع معاهدة في ١٢ أيار/ مايو ١٩٩٧ م، ووقع عليها أصلان مسخادوف والرئيس الروسي بوريس يلتسين وأطلق على المعاهدة اسم: «معاهدة عن السلام ومبادىء العلاقة بين الاتحاد الروسي وجمهورية إيتشكيريا (الشيشان) الإسلامية» وقد تم توقيعها يوم الاثنين ١٢ أيار/ مايو ١٩٩٧ م، وبذلك ولدت أقصر معاهدة وأخطرها في تاريخ الصراع الروسي القوقازي، ليس ذلك الصراع الحديث الممتد من عام ١٩٩١ م ولكن تاريخ الضارب بجذوره لثلاثمائة عام أو أكثر، وتبدأ المعاهدة من عنوانها «معاهدة عن السلام ومبادىء العلاقة بين الاتحاد الروسي وجمهورية ايتشكيريا (الشيشان)» وتنص بعد ذلك على:

«يتفق الجانبان الساميان بتوقيعها بأمل وقف الصراع الممتد لعهود بعيدة ولترسيخ علاقات وثيقة فيما بينهما بندية وذات نفع متبادل على ما يلي:

١ ـ التخلي إلى الأبد عن استخدام القوة المسلحة، أو التهديد بها لدى معالجة أية قضية خلافية بين روسيا الاتحادية والشيشان.

٢ ـ بناء العلاقات فيما بينهما وفقاً لأحكام ومبادىء القانون الدولي المتعارف عليها، ويتعامل الجانبان في مختلف المجالات باتفاقيات يتم تحديدها.

٣ ـ تعتبر المعاهدة أساساً لعقد معاهدات واتفاقيات لاحقة تشمل دائرة التعاملات الأخرى برمتها، ويسري تنفيذ المعاهدة من تاريخ توقيعها».

ثم وقع مسخادوف مع رئيس الوزراء الروسي عدة اتفاقيات اقتصادية تسري لمدة عام واحد، منها اتفاقية تعاون اقتصادي تمهيداً لتوقيع معاهدة شاملة بين روسيا والشيشان، ويتعهد الجانبان فيها بتطوير المعاهدة الموقعة بين مسخادوف ويلتسين بالعمل المشترك لإعادة بناء المشاريع الهامة التي دُمرت وتسديد الرواتب والمعاشات، وإطلاق سراح كافة المختطفين والمحتجزين بالقوة. ووقع الجانبان اتفاقية اقتصادية أخرى للتعاون في مجال النفط أعلن بعدها «أحمد بريخانوف» رئيس الشركة الجنوبية للنفط: «أن أنابيب نقل النفط من بحر قزوين إلى ميناء «نوفوروسيسك» الروسي ستكون مُعدة للعمل في القسم الشيشاني منها خلال عشرين يوماً أو شهر

على الأكثر بعد تمويل عملية إصلاحها التي ستكلف مليوني دولار».

وقد انكب المحللون لدراسة هذه المعاهدات بين الشيشان والروس ولكن أنظارهم تركزت بطبيعة الحال على المعاهدة السياسية بالرغم من أهمية الاتفاقيات الاقتصادية، ولاحظ المحللون على المعاهدة السياسية بين جمهورية الشيشان وروسيا الاتحادية إنها تكتسب أهمية خاصة من صفتها كمعاهدة، لأن كل ما سبق توقيعه من وثائق بين الطرفين الشيشاني والروسي كان يسمى اتفاقيات كما أن توقيع الرئيس بوريس يلتسين لم يظهر في واحدة منها، حتى عندما التقى يلتسين بالرئيس الشيشاني السابق ياندربابيف في موسكو في ٢٧ أيار/مايو ١٩٩٦ م ترك يلتسين لرئيس الوزراء تشيرنوميردين مهمة التوقيع على اتفاق وقف إطلاق النار، واستئناف المفاوضات، فنحن في الواقع أمام معاهدة لأول مرة تحمل توقيع يلتسين للمرة الأولى أيضاً. ومن مزايا هذه المعاهدة أنها تعترف بالاتفاقيات السابقة كلها بدءاً من اتفاق تموز/يوليو ١٩٩٥ م واتفاقية ٢٧ أيار/مايو ١٩٩٦ م، ومروراً باتفاقية نارزان في ٤ حزيران/يونيو ١٩٩٦ م، واتفاقية «خاسيا فورت» ٣١/٨/١٩٩٦ م وانتهاءً باتفاقية مسخادوف وتشيرنوميردين في ٢٣/١١/١٩٩٦ م. وإذا تفحصنا المعاهدة بإمعان نجد أنه على امتداد الاتفاقيات السابقة لم تشر موسكو لا من قريب ولا من بعيد إلى ما تضمنته المعاهدة الأخيرة مثل: «التخلي إلى الأبد عن استخدام القوة المسلحة أو حتى التهديد بها لدى حل الخلافات». إن هذا النص الهام والجديد يفتح أوسع الأبواب أمام الشيشان للاختلاف بكل درجاته مع موسكو حول وضعية الشيشان دون خوف من لجوء روسيا إلى استخدام القوة العسكرية، ويمكن لجمهورية الشيشان أن تطرح من الآن فصاعداً ما تشاء دون خوف من قضية استقلالها في استفتاء عام كما تقضي اتفاقية «خاسيا فورت» أو حتى انفصالها عن روسيا، وتشير المعاهدة لبناء العلاقة بين الطرفين وفقاً لأحكام ومبادىء القانون الدولي، وهو ما سبق أن نصَّت عليه اتفاقية «خاسيا فورت» لكنها اليوم بتوقيع الرئيس يلتسين شخصياً، كما يُلاحظ على المعاهدة أنها لا تذكر حرفاً واحداً عن وحدة الأراضي الروسية، أو حتى الاحتكام إلى الدستور الروسي، أو المحاكم الروسية. وبذلك تضيف المعاهدة للعنصر الدولي السابق في معاهدة «خاسيا فورت» عنصراً جديداً وهو الامتناع عن استخدام القوة، فيما يشبه الاعتراف باستقلال

الشيشان، وفتح كل الأبواب أمامه. وإذا تمعنا في بنود المعاهدة نجد أنها لا تشير إلى الشيشان باعتبارها مستقلة، ولكنها أيضاً لا تشير على أنها جزء من روسيا الاتحادية، ويمكن القول إن المعاهدة ضمان للاستقلال الشيشاني دون الاعتراف به أو النص عليه. وهناك عبارة في المعاهدة تستحق التوقف والاهتمام وهي العبارة التي تبدأ بها المعاهدة وهي «الطرفان الساميان» ويشير المحللون إلى أن روسيا لم يسبق لها أن وقعت معاهدة أو اتفاق مع أي من أطراف الاتحاد الروسي تبدأ بعبارة كتلك العبارة. كما أن تلك العبارة ترد فقط في المعاهدات الدولية، وبين الدول المستقلة. ولا تتضمن المعاهدات الموقعة بين موسكو وبشكيريا، أو موسكو وتتارستان في شباط/ فبراير ١٩٩٤ م إشارة كتلك، ولكن يظل الجانب الأكبر والأهم في معاهدة ١٢ شباط/ مايو ١٩٩٧ م هو الامتناع الرسمي عن استخدام القوة العسكرية الذي يشبه اعترافاً بالهزيمة العسكرية الروسية، ويفتح الأبواب أمام الشيشان للتفكير في صيغة الاستقلال التي تناسب في نفس الوقت مستلزمات الحرية التي تنشدها ومستلزمات العلاقة الحرة مع روسيا. وهكذا انتزع الشيشانيون حقهم في تقرير المصير وفي الاستقلال، وقد عقَّب «مافلادي أودجوف» نائب مسخادوف على المعاهدة بقوله «إنها انتصار تاريخي للشعبين الروسي والشيشاني على حزب الحرب، وبعبارة أدق على حزب السفلة والأوغاد الذين استثمروا الحرب لصناعة المال والترقي في وظائفهم»[1].

بعد توقيع المعاهدة التي تُعد انتصاراً تاريخياً حقيقياً لشعب الشيشان أخذ مسخادوف يتصرف كرئيس دولة مستقلة تماماً وبدأ يسعى لتضمين استقلال بلاده المزيد من العناصر والمظاهر الاستقلالية، وذهب في ذلك إلى مدى بعيد، حيث تقدم القادة الشيشانيون في مدينة «كيسلوفوسك» في ٣١ أيار/ مايو ١٩٩٧ م، أي بعد توقيع المعاهدة مع موسكو بأقل من ثلاثة أسابيع، وخلال اجتماع لقادة جمهوريات القوقاز بمشروع لإقامة منظمة إقليمية أمنية سياسية تضم شعوب القوقاز، وتتولى حل مشكلات النزاع بينها بدلاً من روسيا وقوات حفظ السلام

---

(١) انظر جريدة الاتحاد الظبيانية في عددها الصادر في ٢٠ أيار/ مايو ١٩٩٧ م، وصحيفة الأهرام المصرية في عددها الصادر في ١٨/ ٥/ ١٩٩٧ م، وصحيفة الشرق الأوسط في عددها الصادر في ١٦/ ٥/ ١٩٩٧ م.

الروسية، لأن المنظمة وفقاً لتعريفات «أودجوف» نائب مسخادوف ستقوم على مؤسسات وهياكل سياسية خاصة بها وقوات حفظ سلام قوقازية أيضاً وسيكون لها مقر دائم في «تبليسي» عاصمة جورجيا وقد أكد «أودجوف» نائب مسخادوف على ذلك المشروع في مباحثات له مع «إيفان ريبكين» سكرتير مجلس الأمن القومي الروسي أوائل حزيران/ يونيو ١٩٩٧ م باعتبار أن تلك المنظمة الإقليمية ستكون قادرة على وقف النزاع الجورجي الأبخازي بعد انسحاب القوات الروسية من هناك. والمعروف أن مشروع هذه المنظمة قد ظهر عدة مرات في التاريخ بدءاً من عام ١٩١٨ م ثم أخمد بالقوة، ولكن الطرح الشيشاني له مجدداً[١] يؤكد أن غروزني تعتزم المضي في استقلالها وتأمين المؤسسات والظروف التي تكفل للاستقلال حياة طويلة. واستمرت قيادة مسخادوف في محاولاتها للحصول على التأييد الدولي لقضية استقلال الشيشان وقد نجح الشيشان في حضور مؤتمر لاهاي في ٢٣ أيار/ مايو ١٩٩٧ م حيث عرض القادة الشيشان في هذا[٢] المؤتمر قضيتهم أمام الرأي العام الأوروبي. وفي نفس اليوم ٢٣ آيار/ مايو ١٩٩٧ م عقدت جمهورية الشيشان معاهدة صداقة وتعاون مع تتارستان. وفي أواخر آب/ أغسطس ١٩٩٧ م زار مسخادوف جمهورية جورجيا وكان هدفه من الزيارة التدليل على استقلال بلاده عن روسيا وقد استقبله «شيفر نادزة» الرئيس الجورجي كرئيس دولة واتفقا على آلية للاستقرار في القوقاز «وأكد مسخادوف خلال الزيارة أن الشيشان دولة ذات سيادة وأنه حضر إلى جورجيا بوصفه رئيساً لجمهورية ايتشكيريا الشيشانية المستقلة لإجراء مباحثات يشارك فيها رئيسان[٣]». وفي الأسبوع الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٧ م زار مسخادوف تركيا وطالب العالم بالاعتراف باستقلال بلاده وقال: «لقد أعلنا أن الشيشان بلد مستقل وندعو جميع دول العالم إلى الاعتراف باستقلاله».

---

(١) راجع جريدة الاتحاد مقال د. أحمد الخميسي «السلام الشيشاني القائم بين النفط والصراعات والحرية، عدد ٢٢/ ٦/ ١٩٩٧ م.

(٢) مثل الشيشان في هذا المؤتمر «فاخاغرسانوف» نائب مسخادوف ووزير الخارجية روسلان تشيمايف ورئيس المحكمة الدستورية إيفان غيريخانوف.

(٣) راجع: جريدة السفير اللبنانية، عدد الاثنين ١/ ٩/ ١٩٩٧ م، مقال تحت عنوان، جورجيا تستقبل مسخادوف كرئيس دولة: اتفاق على آلية للاستقرار في القوقاز.

وقد شكر مسخادوف قادة الأحزاب الإسلامية في تركيا وفي المقدمة حزب الرفاه الإسلامي على إرسال الأموال إلى الشيشان خلال الحرب مع روسيا، ومن ثم توجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية في زيارة خاصة بدعوة من مؤسسة «كارينجي» الأمريكية، وقد التقى عدداً من الشخصيات الأمريكية غير الرسمية، وتناقلت الأنباء أنه التقى ببعض المسؤولين الأمريكيين، وفي عام ١٩٩٧ م زار المملكة العربية السعودية، وأدى فريضة الحج، ولم يعلن عن اجتماعه بالمسؤولين السعوديين، وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٧ م شارك الشيشانيون في دورة «سالزبورج» للبرلمانات الأوروبية بدعوة من البرلمانات الأوروبية. وفي عام ١٩٩٨ م استمر القادة الشيشان في متابعة نشاطاتهم الدبلوماسية لعرض قضيتهم أمام الرأي العام العالمي وكسب المزيد من التأييد لهذه القضية، ومن ذلك قيام مسخادوف بزيارة بريطانيا وخلال زيارته أكد «أن الاستقلال من طبيعة الشعب الشيشاني، فعندما يدخل شخص على آخر يودعه نجد دائماً في تقاليدنا أن الكلمة المستخدمة بيننا «نشوفيل نشورشو» أي يحق لك الحرية في التصرف، كما تشاء فليست روسيا التي تعطينا الاستقلال أو غيرها ،وسواء أعطتنا روسيا استقلالنا أم رفضت فنحن أحرار». وقد حظي مسخادوف خلال زيارته لبريطانيا، والتي استغرقت أسبوعاً ترحيباً واسعاً وعلى مستويات رفيعة، وإن لم تكن رسمية، فقد التقى «مارغريت تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا السابقة، واللورد «تيبيت» الزعيم السابق لحزب المحافظين، الذي أعلن أن الهدف من الاجتماع مع مسخادوف هو «التعرف على مجريات الأمور في الدول التي انبثقت عن الاتحاد السوفييتي»، في إشارة تفسر على أن جمهورية الشيشان دولة كباقي الدول المستقلة، وأن التعاطي معها يجب أن يكون جديًا، أما السيدة تاتشر فقد أقامت لمسخادوف ومرافقيه حفل استقبال شاركت فيه شخصيات سياسية ومالية بارزة، واستأجرت الجهة المنظمة للزيارة حرس شرف خاص، وفرقة موسيقية، أجرت مراسيم استقبال ذات طابع رسمي للرئيس الشيشاني، وقد كان هدف مسخادوف من زيارته للندن شرح كفاح الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال، وإقناع الغرب بحقه في السيادة والانفصال عن روسيا، وحيازة الاعتراف الدولي. وأكد مسخادوف أن السيدة تاتشر وعدت بزيارة غروزني وأنها ستبذل ما في وسعها لتحقيق أماني الأمة الشيشانية. وكان من أبرز

نتائج الزيارة تأسيس شركة قوقازية متعددة الجنسية للطاقة تنسق نشاطاتها مع «السوق القوقازية المشتركة» المسجلة في بريطانيا، والتي يرأسها الحاج «أحمد نوخاييف»، أحد أبرز رجال الأعمال في الشتات الشيشاني في العالم. وأعلن مسخادوف في لندن تأسيس ما يسمى «بالمجلس العمومي لمسلمي أوروبا» مشيراً إلى أن بداية المشروع انطلقت قبل عامين أثناء مؤتمر دولي في شأن المشكلة الشيشانية، وأن الحاج أحمد نوخاييف الذي يقيم صلات واسعة مع رجال أعمال عرب وأوروبيين يتطلعون إلى استثمارات في النفط الشيشاني[1]. وفي أواخر شباط/ فبراير ١٩٩٨ م أرسل مسخادوف نائب وزير خارجية الشيشان «سيد أحمد» إلى بعض الأقطار العربية في محاولة إلى فتح بعض الممثليات الشيشانية في بعض الأقطار العربية، وقد زار سيد أحمد كلاً من سورية والأردن والسعودية واليمن وقطر والكويت والإمارات، ليتعرف على مجالات العمل الممكنة، ولكن الزيارة لم تسفر عن أية نتائج تذكر[2]. وفي أواخر نيسان/ إبريل ١٩٩٨ م بادر شامل باساييف رئيس وزراء الشيشان إلى الاجتماع مع قادة داغستان وتم تشكيل اتحاد شعبي الشيشان وداغستان، وتم الإعلان عن جمعية تأسيسية. ويرمي هذا الاتحاد إلى ترسيخ وحدة الشعبين الداغستاني والشيشاني وبقية شعوب القوقاز، وقد شارك في الجمعية التأسيسية التي عقدت اجتماعاتها في غروزني مسؤولون شيشانيون وداغستانيون. ومعروف أن جمهورية داغستان لا تزال منضوية في الاتحاد الروسي ولكن تشهد انتفاضات ضد الحكام المحليين وضد السياسة الروسية. وفي ٢٠/ ٥/ ١٩٩٨ م قاد نادر حاج اللايف، النائب في مجلس الدوما الروسي حركة احتجاج وقامت الحركة باقتحام مبنى مجلس الدولة، ومبنى رئاسة الوزراء في داغستان، وطالبت الحركة باستقالة قادة الجمهورية وأعلنوا عن تشكيل لجنة لإشاعة الاستقرار في داغستان، وقامت الحركة أيضاً بمهاجمة دوريات الشرطة في عاصمة داغستان، وعندما حاولت الشرطة إلقاء القبض على أعضاء الحركة شكل المتظاهرون حاجزاً بشرياً أمام قوات الشرطة للحيلولة دون وصولها إلى قرب الدار

---

(١) راجع: جريدة الرأي العام الكويتية، العدد ١١٢٢٩ ـ الجمعة ٢٠ أذار/ مارس ١٩٩٨ م.

(٢) راجع جريدة الرأي العام الكويتية، مقابلة مع سيد أحمد، نائب وزير خارجية الشيشان في عددها: ١١٢١٠، الصادر في ١/ ٣/ ١٩٩٨ م.

التي يقطنها الشيخ اللايف، والتي يعتقد أن المشاركين في الهجوم يتحصنون فيها[1]. ويرى المراقبون أن انتفاضة الشيخ اللايف قد تتسع وتجر منطقة القوقاز إلى مواجهة جديدة مع موسكو، بينما يعتبر آخرون أن تلك الانتفاضة ما هي إلا تعبير عفوي شعبي عن الاستياء بسبب الظروف المعيشية الصعبة التي يعاني منها سكان جمهورية داغستان. والحقيقة أن الأحداث التي جرت في داغستان إنما هي مقدمة لانتفاضة شعبية كتلك التي حدثت في الشيشان والتي أدت إلى تخلص الشيشان من الاستعمار الروسي، وأن الداغستانيين يرون في الثورة الشيشانية قدوة لهم ويجب السير على نفس طريقها، وفي محاولة من جمهورية الشيشان للتأكيد على استقلالها وتواجدها في الساحة الدولية أعلن وزير خارجية الشيشان «مافلادي أودوجوف» في ١٩٩٨/٦/٢ م أن بلاده قد طرحت مبادرة لحل النزاع بين إقليم كوسوفو المسلم ويوغسلافيا. وأكد أنها تنطوي على تحديد وضع إقليم كوسوفو مستقبلاً عبر مفاوضات صربية ألبانية، واقترح «أودوجوف» أن تتولى تركيا وباكستان وبلدان غربية الإشراف على التسوية على حين تكتفي أمريكا وروسيا بدور الراعيين. وقد بعث قادة الشيشان بالفعل بنقاط المبادرة المقترحة إلى قادة كوسوفو وألبانيا وبلجراد؛ وقد أطلق قادة الشيشان هذه المبادرة في الوقت الذي كان فيه يلتسين يحاول البحث عن حل للنزاع، وهكذا لا يترك الشيشان فرصة إلا ويستغلونها لإثبات وجودهم المستقل كدولة مستقلة لها رأيها ولها مبادراتها الخاصة وتواجدها في الساحة الدولية، وفي نفس الإطار أعلنت غروزني في أيار/مايو ١٩٩٨ م عن استعدادها للوساطة لحل النزاع الجيورجي الأبخازي، ثم قامت بعد ذلك بإدانة التجارب النووية الهندية الباكستانية وبيَّنت مخاطر هذه التجارب على السلم والأمن الدوليين إلا أنه وبكل أسف نقول: إن أحداً لم يلق بالاً أو اهتماماً لمبادرات غروزني، وذلك لأن الانتباه يعني بشكل أو بآخر اعترافاً ضمنياً باستقلال الشيشان[2].

---

(١) راجع جريدة البعث السورية، الجمعة ١٩٩٨/٥/٢٢ م، وجريدة الاتحاد عدد ١٩٩٨/٥/٢٤ م.

(٢) راجع: جريدة الاتحاد الظبيانية عدد ١٩٩٨/٦/١٤ م.

٢ ـ على الصعيد الاقتصادي:

شجع مسخادوف على زيادة الإنتاج الزراعي، وعلى زيادة كميات النفط المستثمرة، ووضع خطة ناجحة لترميم الطرق والجسور التي دمرها القصف الروسي، وخطة أخرى لإصلاح المصانع وترميم المؤسسات والدوائر الحكومية والمرافق العامة، وإعادة فتح مطار غروزني للملاحة الجوية. وتمكن الشيشانيون من إصلاح ٤٠٪ مما دمرته الحرب رغم أن روسيا لم تقدم أي دعم مادي لإصلاح ما دمرته قواتها في الشيشان. وتبذل الحكومة الشيشانية جهوداً كبيرة لجذب الاستثمارات العربية والإسلامية والأجنبية، ويقوم رجال الأعمال الشيشان في الشتات بدور مهم في جذب الاستثمارات إلى الشيشان، ومن أبرز الشخصيات الشيشانية في هذا المجال رجل الأعمال الشيشاني «أحمد نوخاييف» ويعدُّ نوخاييف من الشخصيات الشيشانية الموثوقة وقد ذاع صيته وازدادت شعبيته بعد مشاركته في العديد من المعارك مع الروس، والتي كان آخرها المعركة مع الجنود الروس خارج مبنى البرلمان الشيشاني في عام ١٩٩٥ م. وقد نجا مراراً من الموت ولكنه أصيب بإعاقة في قدمه التي أُصيبت بقنبلة روسية. بعد إصابته أخذ «نوخاييف» ورفاقه يتاجرون في السوق السوداء الروسية لتوفير المال الكافي لاستمرار جهاد الشعب الشيشاني من أجل استقلاله، وقد تمثلت تجارتهم في بيع وشراء أجهزة الستريو، وبناطيل الجينز، والكاميرات، وغيرها. وبعد انتهاء الحرب قرر «نوخاييف» خوض معركة البناء الاقتصادي في الشيشان واستقطاب الاستثمارات الخارجية. وعلى الرغم من إحجام الكثير من المستثمرين عن خوض غمار المجازفة في الشيشان فإن بعضهاً منهم قد تعاطف مع هذا الرجل المُخضرم، وقد تقدم «نوخاييف» بخططه إلى شخصيات مشهورة أمثال رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارغريت تاتشر والمصرفي الفرنسي «جاك تالي»، ومن بين شركائه التجاريين رجل الأعمال السعودي «عدنان خاشقجي»، ورجل الأعمال البريطاني «إليستير ماك آلبين» وكذلك شركة «بارسونز» للهندسة والإنشاءات التي تتخذ من كاليفورنيا مقراً لها، وشركة «رايسامان البريطانية للتأمين». وتتركز خطط «نوخاييف» على ضخ النفط، خاصة وأن جمهورية الشيشان تأمل بدور حيوي في أن تصبح مهداً لأنابيب النفط مستقبلاً من أذربيجان إلى جورجيا. ويجري نوخاييف محادثات مع الحكومة

الشيشانية حول تخويل فرع شركته في لندن «شركة عبر القوقاز للطاقة» الإشراف على حقول الشيشان النفطية وخط الأنابيب الذي يمتد على طول ١١٠ كيلومترات، الذي تستخدمه أذربيجان حالياً لتصدير نفطها إلى البحر الأسود، ويأمل الشيشانيون في أن يصبحوا شركاء وموظفين في الشركات الأمنية التي تعمل على حماية الطرق وأنابيب النفط وسكك الحديد. ويقول «روبرت الفورد» المدير التنفيذي لشركة «رايسامان» لتأمين الاستثمارات: «إن الشيشانيين شعب صعب المراس، ولكنهم يحترمون كلمتهم». وهكذا فإن الشركة تشهد أياماً ذهبية بسبب تنامي أعمالها بين أذربيجان وجورجيا، حيث نجحت في تجنيد الكثير من الشيشانيين للقيام بأعمالها في المنطقة، وقد أنشأ «نوخاييف» شبكة تشمل العديد من رجال الأعمال الذين سيعملون من خلال شركة السوق المشتركة القوقازية التي تأسست في لندن خلال شهر آذار/ مارس ١٩٩٨ م لاستقطاب الاستثمار الأجنبي، وقد قام نوخاييف بتدعيم حلفه من خلال التوصل إلى عقود شراكة مع الكثير من أقرباء رئيسي أذربيجان وجيورجيا، وبدأ بالعديد من المشاريع في أذربيجان وجيورجيا في قطاعات العمران والبنوك والتأمين، ويأمل بشراء خط شحن نفطي في بحر قزوين وشراء محطة منتجات نفطية[1]. ولتدعيم الاقتصاد الشيشاني وقعت جمهورية الشيشان مع روسيا في التاسع من أيلول/ سبتمبر ١٩٩٧ م اتفاقاً مهد الطريق لدخول كميات كبيرة من نفط أذربيجان إلى الأسواق العالمية عبر الشيشان. وفي نيسان/ أبريل ١٩٩٧ م قامت جمهورية الشيشان بخطوة هامة لتأكيد استقلالها الاقتصادي والمالي وأصدرت عملتها الخاصة «ناخار»، وقد تم إصدارها من قبل البنك المركزي الشيشاني، وتم تغيير لوحات السيارات في الشيشان والتي كانت تحمل أرقاماً ورموزاً روسية بلوحات خاصة تحمل الرموز والأرقام الشيشانية. وفي السابع من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٧ م أصدرت جمهورية الشيشان جوازات سفر شيشانية مستقلة عن روسيا وأعلن «رسلان علي حاجييف» رئيس البرلمان الشيشاني أن الرئيس أصلان مسخادوف لا يرغب في أن يحمل المواطنون الشيشانيون جوازات سفر تحمل رموزاً روسية، وأكد «حاجييف» أنه قد تنجم مشاكل نتيجة عدم حصول جمهوريتنا على اعتراف

---

(١) انظر: جريدة الاتحاد، عدد ٢٧ نيسان/ أبريل ١٩٩٨ م مقال: المقاتلون الشيشان يخوضون معركة استقطاب الاستثمار الأجنبي.

المجتمع الدولي عند استخدام مواطنيها للجوازات الجديدة في سفرهم إلى الخارج، لكن إذا رفض المجتمع الدولي الاعتراف بجوازاتنا فإننا لن نطلب منه ذلك.

٣ ـ في مجال أسلمة المجتمع الشيشاني:

ذكرت في بداية هذا الفصل أن القائد التاريخي جوهر دودايف قد أقسم على القرآن الكريم عند تأديته اليمين الدستورية بعد انتخابه رئيساً للشيشان عام ١٩٩١ م، وفي عهده صدر أول دستور شيشاني ينص على أن الإسلام دين الدولة، ثم أسس معهداً دولياً للدراسات الإسلامية في غروزني، ودعم المركز الثقافي الإسلامي في العاصمة، وكان يضع القرآن الكريم أمامه خلال قيادته لحرب الاستقلال، وكان يحمله في حله وترحاله، وبمبادرة منه تم فتح وترميم كل الجوامع التي أغلقها السوفييت. وبعد استشهاده في ٢١/ ٤/ ١٩٩٦ تابع الرئيس المؤقت «ياندربابيف» عملية أسلمة الدولة والمجتمع، وأمر بإنشاء المحاكم الإسلامية ومعاهد لتدريس القرآن الكريم والشريعة الإسلامية واللغة العربية، وأقبل هو شخصياً على تعلم اللغة العربية لغة القرآن الكريم وجعلها مادة إجبارية في مدارس الشيشان. وبعد انتخاب مسخادوف رئيساً لجمهورية الشيشان في ٢٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧ م سار على نهج وخطوات دودايف وياندربابيف في أسلمة المجتمع الشيشاني، واتخذ سلسلة من الإجراءات لتحقيق هذه الغاية، وقام بمحاولات جادة لتوحيد صفوف المسلمين في منطقة القوقاز كلها. وهذه لمحة عن بعض الإجراءات التي اتخذها:

١ ـ أعلن مسخادوف في «٥» تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٧ م أن بلاده أصبحت منذ الآن وبشكل رسمي، دولة إسلامية «اشكيريا» أو «جمهورية الشيشان الإسلامية»[١].

---

(١) راجع: جريدة الاتحاد، عدد ٢٢/ ١١/ ١٩٩٨ م.

ينبغي التنويه أن الحكومة الشيشانية طلبت من الصحافيين تسمية الجمهورية الشيشانية باسم «اشكيريا» وإلا مُنعوا من العمل على أراضي الجمهورية، كما سيتعين على المراسلين الروس والأجانب وقف استخدام اسم غروزني للإشارة إلى العاصمة، وإنما تسميتها «جوهر» تيمناً باسم جوهر دودايف، الرئيس الشيشاني الراحل، وقال نائب رئيس الوزراء أحمد زكاييف إن كل الذين يستمرون في استخدام كلمتي الشيشان وغروزني سيحرمون من حقهم في العمل في الجمهورية وستسحب منهم بطاقاتهم. راجع جريدة الاتحاد عدد ٢٢/ ١١/ ١٩٩٨ م.

٢ ـ قام بتدعيم المحاكم الإسلامية التي أسسها ياندربابيف في أواخر عام ١٩٩٦ م. وأكد أن بلاده أصبحت دولة إسلامية وفق أصول وشريعة دين الإسلام الحنيف، ودعا مسخادوف قضاة المحاكم الإسلامية لتطبيق عقوبات صارمة بحق المجرمين الذين يقومون بعمليات اختطاف، وأصدر مرسوماً ينص على عقوبة الإعدام بحق كل من يرتكب عملية خطف، واعتبر أن تنفيذ حكم الإعدام في حق بعض الجُناة وفق الشريعة الإسلامية يعد أول امتحان لوفاء الحكومة الشيشانية بوعدها بهذا الشأن وتحدٍ للمجتمع الغربي الذي لم يوافق على هذه العقوبات. وأعلن «مولادي أودوجوف» نائب الرئيس الشيشاني أن فرض الشريعة الإسلامية في الشيشان هو وحده القادر على حمايتها وتحصينها من الإرهاب، وأضاف «إذا كنا نريد الاستقلال التام وعلاقات طبيعية مع الروس، وإذا كان الروس جيراننا يريدون إحلال الاستقرار في الشيشان الآن فإن الشريعة الإسلامية وحدها يمكن أن تضمن الاستقرار والأمن للناس». وقال: «لدينا آلاف الناس يحملون السلاح وبالإسلام وحده نستطيع إبقاء هذه المشكلة تحت السيطرة». وكذلك شدّد مسخادوف على ضرورة التدرج في تطبيق أصول الشريعة الإسلامية في الشيشان وأعلن أن المحاكم العلمانية المتعايشة حالياً مع المحاكم الإسلامية ستُلغى تدريجياً.

٣ ـ تعليم الدين الإسلامي في المدارس الشيشانية: من المعروف أن تدريس تعاليم الإسلام كان محظوراً في العهد السوفييتي، أما الآن وبعد استقلال الشيشان فقد أصبح تعليم الدين الإسلامي مادة إجبارية في جميع المدارس للتلاميذ الصغار، ومن ثم سيُعمم تدريسه في كافة المراحل. وساهم مسخادوف في انتشار المدارس الدينية التي تتولى تدريس العلوم الإسلامية، وقد وصل عددها إلى «١٣٠٠» مدرسة في المدن والأرياف كافة، وأخذت الكتب الإسلامية تنتشر بسرعة هائلة، وسرعان ما أدى ذلك إلى المزيد من الإحساس بالهوية الإسلامية.

٤ ـ في أواخر عام ١٩٩٧م أصدر نائب الرئيس الشيشاني «فاخا أرمانوف» مرسوماً يأمر بموجبه بارتداء الزي الإسلامي، ومنع الاختلاط في الدوائر الحكومية والمؤسسات التعليمية، وبعد ٢٤ ساعة من إصدار هذا المرسوم أصدر مرسوماً آخر بمنع إنتاج المشروبات الكحولية، أو بيعها في الجمهورية الشيشانية الإسلامية. وطالب المرسوم باستبدالها بمشروبات غير كحولية، أو مواد غذائية صحية ومفيدة.

ويقول المحللون إن الحرب في الشيشان أحدثت يقظة دينية لدى سكان جمهورية الشيشان الإسلامية، وقد أكد الشيشانيون أنهم استمدوا قوتهم وصمودهم من تعاليم الإسلام، وأن الإسلام خلق فيهم روحاً شجاعة تأبى الخضوع للمحتل أياً كان. وحتى إن المقاتلين الشيشان يحلمون بتحرير فلسطين المحتلة من رجس الصهاينة. وأصبح أمراً طبيعياً في غروزني أن يتوجه الرجال والشباب إلى الجوامع المفتوحة ليلاً ونهاراً، وقد أكد بعض الشبان الشيشان أن الحرب التي استمرت «٢١» شهراً قد حببتهم بالإسلام وبتعاليمه التي حاول الروس استئصالها من أذهانهم وتفكيرهم. وأكد أحد المقاتلين في الوحدات الخاصة الشيشانية «عندما تؤمن، وعندما تعرف أنك تقاتل في سبيل الله وأنك إذا مُت ستفتح لك أبواب الجنة مباشرة، فإنك لا تخشى الموت بل على العكس تسعى إليه وتصبح مُخيفاً للطرف الآخر»[١]. وقد لوحظ في غروزني وغيرها من مدن الشيشان ظهور بعض النساء يرتدين الحجاب الإسلامي، وهناك صبية صغار وفتيات صغيرات يؤدين الصلاة ويتمسكن بشعائر الإسلام، وهناك لافتات صغيرة على جدران المباني المُدمرة في غروزني تقترح تعليم اللغة العربية كتبت خلال الحرب، وفعلاً بعد نهاية الحرب استجابت القيادة الشيشانية لرغبات الشعب، وأعلن مسخادوف عزمه على تطوير تعليم اللغة العربية في المؤسسات التعليمية. وفي أوائل آب/ أغسطس ١٩٩٧ م تبنى البرلمان الشيشاني قانوناً بجعل اللغة الشيشانية لغة رسمية في الشيشان، ووصف اللغة الروسية بأنها لغة أجنبية، ومن المعروف أن أكثرية الشيشان يتكلمون اللغة الروسية إلا أن الحرب غيَّرت موقفهم من اللغة الروسية، وقال رئيس البرلمان الشيشاني: «إن الشعب يجهل لغته الشيشانية لأنه لم تكن تدرس في العهد السوفييتي إلا ساعتين فحسب في الأسبوع في مدارس القُرى، أما في المدن فلم تكن تُدرس إطلاقاً[٢].

وفي المجال الاقتصادي أصدر مسخادوف أوامره لإنشاء بنك إسلامي[٣]

---

(١) انظر جريدة الاتحاد، عدد ٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧، حيث نشرت تقريراً عنوانه: «الشيشان يحلمون بتحرير فلسطين» وتقرير آخر عنوانه «الحرب أيقظت الحس الديني لدى سلمي الشيشان».

(٢) انظر: جريدة السفير اللبنانية، عدد ١٥/٨/١٩٩٧ م، وجريدة البعث السورية، عدد ١٤/٨/١٩٩٧ م.

(٣) انظر: جريدة الاتحاد، عدد ١٠/٦/١٩٩٧ م.

ليكون في المستقبل المؤسسة المصرفية المركزية في الجمهورية الشيشانية الإسلامية، وعلل ذلك بأن: «المصارف العلمانية تنتهك الحقوق الأخلاقية والاقتصادية للمواطنين عبر نسب فوائدها المرتفعة». وهكذا تتم عملية أسلمة المجتمع الشيشاني بطريقة عقلانية متدرجة ولن تمضي سنوات قليلة حتى يكون المجتمع الشيشاني قد أصبح مجتمعاً إسلامياً كاملاً بإذن الله.

بقي أن نذكر أنه وعلى أثر تنامي الإسلام وبعثه من جديد في الشيشان، وخاصة تأسيس المحاكم الإسلامية الشرعية والتي قامت بتنفيذ حكم الإعدام بحق مجرمَين بعد إدانتهما بالقتل، شنت روسيا حملة واسعة على هذه المحاكم وأصدرت بياناً طالبت فيه بوضع حد لتطبيق الشريعة الإسلامية. وندّد الرئيس الروسي يلتسين شخصياً بتنفيذ حكم الإعدام في أول أيلول/ سبتمبر ١٩٩٧ م ووصفه «بأنه عقاب همجي يتنافى والقانون الفيدرالي لروسيا الاتحادية ويتعارض مع تعداتها الدولية المتعلقة بحماية حقوق الإنسان». أما كبير المُدعين الروس فقال: «إن حكم الإعدام يمكن اعتباره قتلاً حسب القانون الجنائي الروسي». فرد عليه مسخادوف: «إن تنفيذ هذه الأحكام ضروري لمكافحة موجة الجريمة، التي تجتاح الشيشان». وأكد أن المزيد من أحكام الإعدام ستنفذ في غضون الأسابيع المقبلة. أما «فاخا أرصانوف» نائب مسخادوف فسخر من بيان المدعي الروسي قائلاً: «إنني أبصق على روسيا... روسيا لا تعني لنا شيئاً نحن دولة مستقلة»[1].

وقد تناغم الإعلام الغربي مع الحملة الروسية ضد الإسلام في الشيشان. ودق ناقوس الخطر إزاء تنامي المد الإسلامي في جنوب روسيا، ويقصدون القوقاز عامة والشيشان خاصة؛ وقامت وسائل الإعلام والصحافة الأمريكية بتحريض الروس وبشكل واضح لدفعهم للتحرك لتحصين بلادهم من اليقظة الإسلامية التي تشهدها بلاد القوقاز، وكذلك قام الاتحاد الأوروبي بدوره بتحريض الروس على المسلمين في القوقاز، وحذّر الحكومة الروسية من مغبة السكوت على الصحوة الإسلامية في القوقاز. وكمثال على مساهمة الغرب في شن حملة قوية على الإسلام نورد ما ذكرته جريدة «لوس أنجلس تايمز» الأمريكية في أحد أعدادها لشهر كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨ م حيث كتبت مقالاً حذرت فيه روسيا من الخطر الأصولي القادم من جنوبها

---

(١) انظر: جريدة الاتحاد، عدد ١٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٧ م.

وقال كاتب المقال: «في الجنوب الروسي توجد اليوم نهضة إسلامية إذ ترى حملة المسابح يسبحون ربهم في العشي والأبكار»، وقد أخذت المساجد الجديدة تعلو بمآذنها في سماء المنطقة، قبل سنوات قليلة فقط، كان لا يُسمح إلا بتعليق الأعلام الحمراء وصورة لينين مؤسس الدولة السوفييتية، أما اليوم فترتفع الأعلام الإسلامية الخضراء، وصور المحارب والبطل في عيون سكان المنطقة الإمام شامل، الذي عاش في القرن التاسع عشر[1].

ولكن قادة الشيشان لم يعيروا أدنى التفاتة أو اهتمام لهذه التحريضات الغربية، وتابعوا جهودهم لجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم والعمل على توحيد شعوب القوقاز المسلمة، وقد أثمرت الجهود الطيبة التي قام بها الشيشان وأدت إلى عقد مؤتمر في آب/ أغسطس ١٩٩٧ م في العاصمة غروزني بدأ يوم الجمعة في ٢٢ آب/ أغسطس ١٩٩٧ م، وانتهى يوم الثلاثاء بانتخاب مجلس لعلماء الدين الإسلامي من الشيشان والداغستان وحضره ممثلون عن خمسة وثلاثين منظمة وحركة إسلامية. كما تم في نفس المؤتمر انتخاب «مافلادي أودجوف» النائب الأول للرئيس الشيشاني رئيساً للمؤتمر، وقد صرح «أودجوف» فور انتخابه: «إنها المرة الأولى التي تتوحد فيها جهود الشيشان والداغستان منذ عهد الإمام شامل». وتم تأسيس حركة أطلق عليها «حركة الأمة الإسلامية» وقبل انعقاد المؤتمر بيوم واحد أحيا «١٥» ألف من الشيشان في «فيدينو» جنوب الشيشان الذكرى المائتين لمولد الإمام شامل، بطل مقاومة الاستعمار الروسي في شمال القوقاز، وهذه المرة الأولى التي يحتفل فيها بذكرى الإمام بشكل علني، وبحضور أصلان مسخادوف رئيس الدولة، وجموع غفيرة من سكان القوقاز، وخاصة من داغستان. بقي أن نذكر أن كل ما قام به الشيشان والداغستان هو تأسيس حركة لتوحيد جهود المسلمين في البلدين، فلماذا كل هذه المخاوف الغربية والروسية؟ ولماذا يقوم الإعلام الغربي بتحريض روسيا على هذه المؤتمرات الإسلامية؟ وقد استمع يلتسين وأعار آذاناً صاغية لتحذيرات الغرب وقال عن مؤتمر غروزني «إن ما يثير قلقنا الآن هو العلاقة مع الشيشان، فقد انعقد مؤتمر قوقازي أصولي لتوحيد شعوب القوقاز

---

(١) انظر: جريدة الاعتدال الأسبوعية التي تصدر باللغة العربية في نيوجرسي، عدد ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨ م، حيث نشرت فيه ترجمة لمقال جريدة لوس أنجلس تايمز الأمريكية.

من جهتنا لم نعترض ولم نحاول عرقلة المؤتمر بالرغم من أن ما قيل عنا في ذلك المؤتمر لا يُسر، وقد أصبح من الواجب علينا أن نعتني بتلك القضية». وهذه هي المرة الأولى التي يستخدم فيها يلتسين مصطلح الأصولية[1] أما صحيفة لوس أنجلس تايمز فقد قال: «إن ظهور الاتجاهات المتطرفة في الشيشان تسبب مخاوف جديدة للمعتدلين بسبب دعوتهم للمسلمين في داغستان للانضمام إلى حركة وحيدة موحدة». في إشارة واضحة إلى حركة الأمة الإسلامية التي تأسست في آب/ أغسطس ١٩٩٧ م، وأكدت الصحيفة أن أكثر ما تخشاه روسيا هو ظهور قائد من طراز الإمام شامل الذي ظهر في القرن الماضي والذي اعتبر إماماً للشيشانيين والداغستانيين، والذي قاد أتباعه تحت راية الجهاد مدة «٣٠» عاماً، والأمر الذي يقلق موسكو هو توحد الشيشان وداغستان من جديد، والقتال معاً للتخلص من الهيمنة الروسية». بقي أن نذكر أن الإسلام بُعث من جديد في القوقاز، وفي الدول الإسلامية المستقلة عن الاتحاد السوفييتي، وبخاصة طاجكستان التي أصبحت الحركة الإسلامية فيها رقماً صعباً لا يمكن تجاوزه أو اختزاله إلى باقي الجمهوريات الإسلامية المجاورة. وإن النهضة الإسلامية ستمتد كذلك إلى شمالي روسيا «سيبيريا» التي تقطنها قوميات إسلامية، هذا فضلاً عن تتارستان التي انتزعت من روسيا اعترافاً بأنها دولة ضمن الاتحاد الروسي، وبشكيريا تمضي على نفس الطريق. لقد رفع الشيشان راية الإسلام خفاقة فوق جبال القوقاز. ولا بد أن ينتشر ضياء الإسلام من جديد في منطقة القوقاز بعد أن حجبه القياصرة البيض والحُمر «٣٠٠» عاماً. ولكنه عاش في النفوس والعقول وعندما انهارت قوى البغي والظلام عاد الإسلام ليضيء منطقة القوقاز بنوره الوضاء.

وكلمة أخيرة: إن على المسلمين أينما وجدوا أن لا ينسوا إخوانهم في القوقاز، الذين رفعوا راية الإسلام عالية، وسطروا أكبر ملحمة بطولية في القرن

---

(١) ينبغي التنويه بأن يلتسين قام بمحاولة فاشلة للتصدي لإجراءات أصلان مسخادوف الهادفة إلى أسلمة المجتمع الشيشاني، ولم شمل شعوب القوقاز. وقد حاول الروس ودوائر أجنبية أخرى اغتيال أصلان مسخادوف في ١٩٩٨/٧/٢٣ م، ولكن المحاولة الآثمة فشلت، وأكد مسؤول شيشاني في ١٩٩٨/١٠/٢٥ م أن الاستخبارات الروسية لا تزال تعد الخطط لاغتيال مسخادوف.

العشرين عندما ألحقوا العار والهزيمة بأكبر جيش في العالم. إن من حق القوقازيين على المسلمين أن يدعموهم بالمال وبإرسال الدعاة، وأن يساعدوهم في ترميم مساجدهم المدمرة وفي بناء مساجد جديدة ليرتفع فيها صوت الله أكبر خمس مرات في جبال القوقاز. إن الإسلام الذي ولد من جديد في القوقاز مستهدف من الغرب ومن الشرق، وستبذل قوى الظلام في الغرب كل الجهود الممكنة لدفنه في مهده، وإن لم تتدخل مباشرة إذ يكفيها أن تدعم يلتسين كما دعمته في شن حرب الإبادة في الشيشان. كما أن تغلغل اليهود في جميع مستويات الأجهزة القيادية الروسية يحمل في طياته خطراً كبيراً، فالصهاينة ومنذ ظهور الإسلام كانوا أول من حاول الإجهاز عليه، وهم اليوم على استعداد تام لمحاربة الإسلام والمسلمين، ونهب مقدراتهم بألف أسلوب وأسلوب. إن المخططات الصهيونية تهدف إلى هدم وتقويض كل مقدسات الشعوب الأخرى، وتاريخها، والطعن في وجودها القومي والفكري والديني، وبعد تهديد الحكم في روسيا أصبح الصهاينة في حالة تماس مباشر مع المسلمين في القوقاز، وسيعمل الصهاينة على قتل الإسلام ونهب ثروات المسلمين كما فعلوا بأرضنا العربية من قتل وتشريد واحتلال واستيطان. لذا فالمطلوب أن يتكاتف المسلمون وأن يتحدوا وأن يتماسكوا وأن يشكلوا وحدة اقتصادية أو سوقاً مشتركة وأن يتضامنوا سياسياً ليحتلوا الموقع الذي يليق بعقيدتهم وبمقدراتهم البشرية والاقتصادية، فأعداء الإسلام يتعاونون على الإثم والعدوان فلما لا يتعاون المسلمون على البر والتقوى، إن ازدواج الخطر يفزع الجبناء وحدهم. أما المسلمون المتوكلون على الله فإن الخطر المزدوج يزيد في تماسكهم واعتصامهم بحبل الله ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

(١) سورة آل عمران «١٧٣».

الفصل العاشر

«موقف الرأي العام الروسي والعالمي من حرب الإبادة في الشيشان

١ ـ موقف الرأي العام الروسي:

أول ما يمكن ملاحظته أن الرئيس الروسي بوريس يلتسين قد شن حرب الإبادة في الشيشان دون تفويض من الشعب الروسي، وحتى دون استشارة مجلس الدوما، وقد أفادت الاستطلاعات الأولى التي جرت لمعرفة موقف الشعب الروسي عند بداية حرب الإبادة أن ٦٥٪ من الشعب الروسي ضد الحرب في الشيشان. ومع ازدياد حجم التورط الروسي في الحرب أعرب ٨٥٪ من الروس معارضتهم لاستمرار الحرب، وبالتالي لم تحظ هذه الحرب إلا بتأييد تيارات أقصى اليمين مثل حزب الفاشيين الجدد، والحزب القومي المتطرف بزعامة فلاديمير جيرنوفسكي. ويمكن القول إن الرأي العام الروسي يبدو أكثر شجباً لسياسة يلتسين حيال الشيشان من الرأي العام العالمي، وهذه لمحة سريعة عن مواقف مختلف قطاعات وفئات المجتمع الروسي:

موقف الجيش الروسي من حرب الشيشان:

على الرغم من أن عدداً كبيراً من الضباط الروس قد اتسموا بالقسوة والوحشية، ونفذوا أوامر «بافل غراتشوف» وزير الدفاع الروسي، وارتكبوا المجازر البشعة، إلا أن الجندي الروسي البسيط كان يسأل نفسه ما الذي نحارب من أجله في الشيشان؟ وقد ازدادت تساؤلات الجنود بعد أن ازدادت معاناتهم من إهمال قيادتهم لهم وقد صرح عدد كبير من الجنود الروس «إنه كان يتعين علينا الدخول إلى المدن والقرى الشيشانية لتطهيرها بعد قصفها بالطائرات والدبابات والمدفعية، وبعد دخولنا لم نكن نجد فيها سوى النساء والأطفال والشيوخ والخراب والدمار.

والحرائق تأكل كل شيء». يضاف إلى ذلك أن جنرالات موسكو تركوا الجنود والضباط دون طعام أو ملابس، وأحياناً دون ذخيرة. وذكر روسلان حسب اللاتوف أنه مر بالقرب من «شالي» وكان هناك مركزاً عسكرياً روسياً دُفنت قربه مجموعة من الدبابات الروسية[1]، وفي الناحية الأخرى كان يقع المقر العسكري لأصلان مسخادوف رئيس الأركان الشيشاني. وقال: توقفت عند نقطة الحراسة الروسية لأتعرف على أحوال الجنود الروس فقالوا لي: «نحن لم نأكل شيئاً لليوم الثالث فسألتهم: وكيف تعيشون؟ فقالوا: «أصلان مسخادوف المسلم يرسل الطعام إلينا، هل تتخيل هذا؟». ومع استمرار الحرب وتصاعد المقاومة الشيشانية وإهمال جنرالات موسكو لجنودهم اضطر عدد كبير من الجنود الروس الذين يشكلون قوام ثاني أكبر قوة عسكرية في العالم إلى بيع أسلحتهم الفردية، وحتى الثقيلة، والألبسة العسكرية وحتى[2] الأوسمة باعوها، وشاعت الرشوة بين العسكريين واضطر الجنود الروس الفقراء إلى الوقوف عند منعطفات الطرق في جبال الشيشان لمبادلة مدافعهم بجرعة ماء وكسرة خبز مع أي عابر على الطريق. وحتى عند نهاية الحرب أعلن بعض الجنود الروس الأسرى في الشيشان رفضهم العودة إلى مواطنهم وقرروا البقاء في جمهورية الشيشان بعد اعتناقهم الإسلام. وقالت صحيفة «المسلمون» في عددها الصادر في ١٩٩٦/٩/٢٧ م: «إن أمهات بعض الجنود الروس فشلن في محاولتهن لإقناع أبنائهن بالعودة إلى روسيا، وقد قال أحد الجنود الذين رفضوا العودة إلى روسيا: «لقد أصبح الشيشان أخوة لي ولا أريد العودة إلى وحدتي العسكرية، وإلى القادة الذين أحدثوا الدمار في الشيشان». أما الضباط الروس، وعلى الرغم من القسوة والهمجية التي اتصفوا بها، إلا أن بعض الضباط القادة وفي مقدمتهم الجنرال «إيفان رايتشيف» والجنرال الكسندر بولياكوف[3]، قد اتخذا

---

(١) انظر: جريدة الاتحاد الظبيانية، عدد ٢١/ ١٠/ ١٩٩٦ م، مقابلة مع حسب اللاتوف أجراها أحمد الخميسي.

(٢) انظر: جريدة الاتحاد، عدد ٢٠/ ٢/ ١٩٩٧ م، مقال أضواء على الحرب الشيشانية الروسية د. عفيف رزق.

(٣) انظر: جريدة الشرق الأوسط مقال العار ليلتسين، للكاتب المصري أحمد حمروش ٨ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥ م.

مواقف إنسانية تستحق الإشادة، فعلى سبيل المثال رفض الجنرال إيفان رايتشيف الأوامر التي صدرت له بالهجوم على غروزني في بداية الحرب، وأعلن رفضه شن الهجوم، ولم يعلن هذا الموقف في رسالة إلى قيادته العسكرية بل أعلن ذلك أمام «١٠٠٠» قروي شيشاني على مسافة ٣٥ كيلومتراً شرقي غروزني العاصمة وقال: «إن الحملة الروسية على الشيشان عملٌ ضد الدستور» وكذلك فعل الجنرال الكسندر بولياكوف، مما أدى إلى عزلهما ومحاكمتهما. وخلال حرب الشيشان ظهرت بادرة الفرار من قبل الجنود الروس من الخدمة العسكرية في الشيشان وكذلك قيام الأمهات بخطف أبنائهن من أبواب المعسكرات، أثناء قيامهن بزيارات لمشاهدتهن. كما تشكلت جمعية في موسكو ضمت عدداً كبيراً من الأمهات هدفها توجيه الأمهات[١] نحو الطرق الواجب اتباعها لتخليص أبنائهن من الخدمة في الشيشان. وقد شهدت موسكو خلال الحرب مظاهرات نسائية عديدة تطالب بإيقاف الحرب، وإنهاء معاناة أبنائهن. ونتيجة لأهوال الحرب في الشيشان فقد أصيب عدد من الضباط والجنود والروس بأزمات نفسية وانهيارات عصبية، وذكرت وكالات الأنباء العالمية عدة حوادث تؤكد هذه الحقيقة، ومن ذلك: «أنه عندما عاد النقيب «فولنتاين بوليانسكي» نائب قائد وحدة للإنزال الجوي إلى مدينة «ستافروبول» من جبهة القتال[٢] صادف أمام مدخل بيته وهو يدخل المبنى شاباً أسمر اللون فشهر مسدسه نحوه وراح يصيح: «أنت شيشاني»، ولدى سماع الجيران الصراخ خرجوا وحاولوا تهدئته، ولكن النقيب المذعور أطلق النار وأصاب الشاب الأسمر الذي اتضح أنه طالبٌ سوري يدرس في مدينة «ستافروبول»، وكان موجوداً بالصدفة لزيارة صديق له في ذلك المبنى. وفي التقرير الذي كتبه النقيب «بوليانسكي» إلى رؤسائه بصدد ما جرى قال: «إنني انفعلت لدى رؤية الشاب الشبيه بأبناء القوقاز، وبدا لي أنه من رجال دودايف الذين لا يرحمون أحداً». وحادثة أخرى أوردتها وكالة أنباء «إيتار تاس» في موسكو أن ضابطاً روسياً قتل أحد رفاقه قبل أن يقدم على الانتحار في «تيومين» في سيبيريا إثر

---

(١) انظر جريدة الاعتدال ١٢ شباط/ فبراير ١٩٩٥ م.

(٢) انظر جريدة الاتحاد عدد ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٦ م مقال تحت عنوان «قتل وانتحار بسبب الخلاف حول الشيشان».

شجار حول الحرب في الشيشان، وكان الضابطان قد عادا من الشيشان بعد نهاية الحرب في ١٩٩٦/٨/٣١ م، ولكل منهما أفكاره بشأن جدوى الحرب في الشيشان. وبعد مناقشات حامية وطويلة انفجرا في ثورة غضب وكانت النتيجة مقتل الاثنين، واعتبر الأخصائيون النفسيون أن سبب المأساة يعود إلى عوارض حرب الشيشان، أي الصدمات النفسية التي يعاني منها عدد من المقاتلين السابقين في الحرب الشيشانية ويُقدر هذا العدد بالمئات[١].

٢ ـ موقف الإعلام والصحافة الروسية:

كشفت الأزمة في الشيشان عن عمق أزمة الصحافة والصحافيين في روسيا ومدى أبعاد الخلاف بين ممثلي السلطة الرابعة والنظام الحاكم في الكرملين. فمنذ اندلاع حرب الشيشان سلطت الصحافة الروسية الأضواء على أخطاء السلطة في شن حرب الإبادة واتباع سياسة الأرض المحروقة في الشيشان، ولعبت الصحافة الروسية دوراً من أفضل أدوارها في تاريخ البلاد وأكدت أن الحرية التي تتمتع بها بعد انهيار امبراطورية الشر ليست منحة من يلتسين ونظامه أو تفضلاً منه، بل هي نتيجة طبيعية لتطور المجتمع. صحيح أن يلتسين يستطيع وبمرسوم قيصري سلب الصحافة والإعلام الروسي ما يتمتعان به من حرية، وصحيح أيضاً أن الرئيس يلتسين قام بأعمال أخطر من ذلك عندما قصف البرلمان بالدبابات والمدفعية عام ١٩٩٣ م، ولكن ذلك لا بد أن يكون بداية النهاية. والسؤال الآن ما هو موقف يلتسين من الانتقادات والحملات الصحفية التي انتقدت الحرب الشيشانية وأدانتها؟ في الواقع لقد ضاق يلتسين ذرعاً من تلك الانتقادات والاتهامات التي وجهتها الصحافة الروسية لأقطاب حكمه مُبينةً جرائمهم وأخطائهم وتهورهم في الشيشان، وهذا ما دفعه لشن حملة واسعة وخطيرة ضد الصحافة والصحافيين وصلت إلى حد إعلان رئيس الدولة بنفسه، ومن خلال خطاب تلفزيوني وعلى مرأى ومسمع من الملايين «إن هناك من الصحف والصحفيين عملاء للجنرال دودايف، وإن بعض وسائل الإعلام الروسية يمولها دودايف. وفي نفس الخطاب أعلن يلتسين عن عزمه

---

(١) هذان الضابطان هما الكابتن «سيرغي ميلنيكوف» أطلق النار على الكولونيل «سيرغي نديين» ثم انتحر، بعد ساعات، في مركز الشرطة في تيومين» راجع: جريدة الاتحاد الظبيانية، عدد ١٩٩٦/١١/١٤ م.

على إقالة صديقه ورفيقه «أوليج بوبتسوف» مدير القناة الثانية في التلفزيون الروسي، لا لشيء إلا لأنه أذاع الحقيقة في الشيشان[1]. أما رئيس الحكومة الروسية «تشيرنو ميردين» فقد هدد بالويل والثبور وعظائم الأمور للقناة الخاصة «أن تي. في»، وهدد بسحب الرخصة منها إذا تمادت في غيها بشأن الشيشان، وهكذا فإن ما فعلته وسائل الإعلام الروسية وخاصة الصحافة، بكشفها الحقائق في الشيشان ومغامرة بعض الصحفيين بالذهاب إلى الشيشان لتقصي الحقائق وإعلانها على الشعب الروسي، وقتل بعض الصحفيين الروس خلال معارك الشيشان، يُعد مُعجزةً للصحافة الروسية ويجعل منها واحدة من أهم ركائز المجتمع الديمقراطي الذي ينشده جميع الروس.

٣ ـ موقف مفوضية حقوق الإنسان الروسية:

بعد مجيء غورباتشوف في ١٢ آذار/مارس ١٩٨٥ م وتسلمه أمانة الحزب الشيوعي بادر إلى إطلاق الحريات العامة، وعلى الفور ظهرت حركة نشطة في الاتحاد السوفييتي تطالب بوقف انتهاك حقوق الإنسان والسماح للمواطن الروسي بممارسة حقوقه الإنسانية التي نصت عليها مواثيق حقوق الإنسان التي أصدرتها الأمم المتحدة، مثل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨ م، والعهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية الصادر عام ١٩٦٦ م. وكذلك العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ١٩٦٦ م، وفعلاً تصدرت حركة حقوق الإنسان وتزعمت حركة الإصلاح الديمقراطي في عهد غورباتشوف ولعبت دوراً مهماً في حماية حقوق الإنسان، مثل حق حرية التعبير وحق الإضراب وغيرها من الحقوق وعندما انهار الاتحاد السوفييتي وجاء يلتسين تابعت حركة حقوق الإنسان في روسيا نشاطاتها وحاولت توسيع نطاق ميادين عملها للدفاع عن حقوق الإنسان الروسي، وقد لقيت تشجيعاً من يلتسين في البداية وحتى أنه عين «سيرجي كوفيالوف» قومسيراً لحركة حقوق الإنسان ومعروف أن «سيرجي كوفيالوف» قضى سنوات طويلة في السجن في عهد بريجينيف وذلك لفضحه الانتهاكات التي ارتكبها

---

(١) انظر: جريدة الشرق الأوسط، مقال د. سامي عمارة، ١٠/١/١٩٩٥ م. ومقالاً آخر لسامي عمارة، كتبه من موسكو عنوانه: «الشيشان في الصحافة الروسية».

الشيوعيون في مجال حقوق الإنسان، ولكن عندما بدأ يلتسين حرب الإبادة في الشيشان كانت حركة حقوق الإنسان الروسية بزعامة «سيرجي كوفاليوف» كبير مفتشي حقوق الإنسان في إدارة يلتسين أول من انتقد هذه الحملة وكشف أن الحملة على الشيشان هي انتهاك للديمقراطية ولحقوق الإنسان، ولحق الإنسان في تقرير مصيره والتعبير السلمي عن آرائه، ولم يقل سيرجي كوفيالوف انتقاداته للحرب الشيشانية في موسكو فقط، بل زار الشيشان في ١ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥ م، بعد ثلاثة أسابيع من بدء الحرب، لمراقبة القتال وصرَّح: «أنه يمكن للشعب الشيشاني كأي شعب آخر أن يرتكب أخطاءً في اختياره لزعمائه، ولكن هذا لا يعطي أحداً الحق في القضاء عليه بلغة القصف والتدمير»[١]. وفي مجلس الدوما ألقى سيرجي كوفيالوف خطاباً في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥ م قال فيه: «إن العمليات العسكرية في الشيشان أحبطت محاولات التسوية السلمية هناك بعد احتلال «شالي وجود ميرس». وفي زيارة ثانية قام بها سيرجي كوفيالوف للشيشان في ١٠/ ١/ ١٩٩٥ م قال: «إن الاقتراح الذي قدمته الحكومة الروسية في البارحة ليس سوى إنذار» وأضاف: «لقد فشلتُ في إقناع السلطات الروسية لتأمين وقف إطلاق النار لمدة «٤٨» ساعة ليتمكن الروس والشيشان من إخراج الجرحى من منطقة النزاع ودفن الموتى»[٢]. وبعد أيام من استمرار حرب الإبادة في الشيشان قام مفوض حقوق الإنسان الروسي «سيرجي كوفيالوف» بمناشدة يلتسين بوقف المذبحة ضد المدنيين في الشيشان، وقال في برقية بعث بها إلى الكرملين من غروزني وتناقلتها وكالات الأنباء العالمية: «إن يلتسين وقع تحت سيطرة مؤيدي الحملة العسكرية واتهم الحكومة الروسية بترديد الأكاذيب حول حقيقة الموقف في الشيشان، وخاطب

---

(١) يذكر أنه بعد الانتقادات الشديدة التي وجهها سيرجي كوفيالوف للسلطات الروسية، مع ممارساتها الوحشية في الشيشان، وضعت قيادة وزارة الدفاع الروسية عراقيل أمام سفر سيرجي كوفيالوف إلى غروزني، وخاصة ليرافق بعثة مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي، وعزا بعض المراقبين منع سفر كوفيالوف إلى محاولة القيادة الروسية منع توفير مصدر معلومات للبعثة الأوروبية وخاصة أن كوفاليوف على ثقة من ضرورة تعامل موسكو مع دودايف، بوصفه الطرف الحقيقي من الجانب الآخر في الأزمة.

(٢) انظر: جريدة الشرق الأوسط، العدد ٥٨٨٨، الأربعاء ١١/ ١/ ١٩٩٥ م.

يلتسين في برقيته قائلاً: «بوريس نيكولاي ييفيتش» يجب أن تعلم أنك تخسر الوقت وأن أولئك الذين بدأوا هذه الحرب سيتخلون عنك قريباً، وأنت وحدك القادر على إخراج البلاد من[1] دائرة اليأس والأكاذيب الملوثة بالدماء هذه». ولكن يلتسين لم يُعر آذاناً صاغية لانتقادات ونصائح «سيرجي كوفيالوف» وعندما شعر سيرجي كوفيالوف أن الرئيس مصر على حرب الإبادة في الشيشان استقال من رئاسة حركة حقوق الإنسان احتجاجاً على حرب الإبادة في الشيشان، وحتى اللحظة لم يحل أحد محله منذ استقال. وحول رأي سيرجي كوفيالوف بالديمقراطية، قال في إحدى المناسبات: «إن نوعية الديمقراطية تعتمد أساساً على نوعية الديمقراطيين أنفسهم، إن علينا أن ننتظر نشأة جمهور من المواطنين القادرين على نقد ما لا يعجبهم، وقد تراكمت لديهم مبادىء الديمقراطية حتى يكون الأمر أشبه بانفجار نووي، وبدون ذلك سيبقى كل شيء كما هو مجرد هبات وقتية لا تلبث أن تنطفىء، ويبدو أن عهدنا بالديمقراطية الرومانسية قد مضى وأننا قد نزلنا أخيراً إلى الأرض»[2].

٤ ـ موقف مجلس الدوما الروسي:

كان لهذا المجلس مواقف كثيرة من الحملة الروسية على الشيشان، وأعلن عن رغبته عدة مرات في وقف العمليات العسكرية فوراً وبدء المفاوضات، وبعد بدء الحرب اتخذ مجلس الدوما قراراً بأغلبية «٢٣٨» صوتاً ضد ٣٨ صوتاً، يقضي بوقف الأعمال العسكرية واللجوء إلى المفاوضات السلمية، وطالب في قرارات لاحقة بإقالة وزير الدفاع والداخلية. ولكن يلتسين ظل على عناده وتحديه للرأي العام الروسي. وخلال الحرب قام عدد كبير من النواب بزيارة الشيشان ورأوا المآسي والفظائع وبعد عودتهم طالبوا يلتسين بوقف الحرب، وأكدوا أن القوات الروسية في الشيشان تنتهك أبسط حقوق الإنسان، وبشكل سافر وفظيع ومُخيف لا مثيل له، ولكن يلتسين استمر في الحرب حتى مُني بهزيمة عسكرية ساحقة على أيدي المجاهدين الشيشان.

---

(١) انظر: جريدة الاتحاد عدد ١٤/ ١/ ١٩٩٥ م.

(٢) انظر: مقال ديفيد «ريمنيك» مراسل الواشنطن بوست في موسكو من ١٩٨٨ ـ ١٩٩١ م، «روسيا هل يمكن أن تتغير؟» ترجمة مصطفى كمال، كاتب في جريدة البيان الإماراتية، أحد أعداد شباط/ فبراير ١٩٩٧ م.

٥ ـ موقف بعض الشخصيات الروسية من الحرب:

أكد «ليونيد بتروفسكي» وهو عضو في لجنة حقوق الإنسان الروسية: «إن إجراءات روسيا بالشيشان تنذر بدمار الدولة الروسية».

أما ميخائيل غورباتشوف فقال: «إن مثل هذه الحرب لا يمكن الانتصار فيها، وأن حرب العصابات لن تجري في العاصمة غروزني فحسب بل ستجري في الجبال ليس في جبال الشيشان فقط، بل في شمال القوقاز كله». أما الكاتب الروسي «أناتولي بريستافكن» فقال: «إن الهجوم على غروزني بالمدفعية مأساة قومية ـ النيران تلتهم البيت ولم يهب أحد لنجدته». أما الجنرال ليبيد فقال: «إن قرار روسيا إرسال قوات إلى الشيشان كان خطأً، وإنه من الناحية العسكرية كان يجب عدم إرسال قوات إلى الشيشان على الإطلاق، وأن القوة ليست هي الطريقة الوحيدة لحل الأزمة الشيشانية». أما ألكسندر سولجينتسين، المفكر والأديب والمؤرخ الروسي الحاصل على جائزة نوبل والذي عاد بعد «٢٠» عاماً من منفاه الاضطراري قال: «إنه عائد وفي يده مشاريع عديدة كي تسترد روسيا روحها» ودعا بلاده إلى التخلي عن نزعتها الامبراطورية وعن الوهم بلعب دور تاريخي مميز في العالم، وأكد أن على روسيا أن تشعر بالندم إزاء الشعوب التي استعبدتها وتكفر عن ذنوبها. ولكنه في موضوع الشيشان يُظهر عنصرية واضحة فخلال اندلاع الحرب في الشيشان أيّد استقلال الشيشان ولكنه قال: «إن ما يجري في الشيشان أمر فظيع، ولكن فكرة روسيا الكبيرة التي ناضل من أجلها ودافع عن حقوق شعبها ليست بحاجة إلى جمهوريات ذات أغلبية من البدو» «ويقصد جمهوريات القوقاز» بشكل عام.

٦ ـ موقف الأحزاب السياسية الرئيسية في روسيا من الحرب الشيشانية:

مع بداية حرب الشيشان اختلطت الأوراق في موسكو، واجتمع الشيوعيون والديمقراطيون حول مناهضة سياسة يلتسين تجاه الشيشان. ومع بداية الحرب أعلن جينادي زيوجانوف رئيس الحزب الشيوعي الروسي رفضه أسلوب يلتسين في معالجة القضية الشيشانية، وأدان التدخل العسكري في الشيشان، ووقف في خندق واحد مع خصمه الفكري «إيجور جايدار» أول رئيس وزراء في عهد يلتسين وزعيم حزب «خيار روسيا» الذي أدان بدوره الحرب في الشيشان، ولم يؤيد حرب يلتسين

في الشيشان سوى الحزب القومي المتطرف بزعامة فلاديمير جيرنوفسكي الذي كان يصرخ في كل جلسة من جلسات البرلمان: «لماذا لا تحسمون الأمر مع الشيشان» وحدد طريقة الحسم بالحرق والإبادة. وكذلك أعلن «ألكسندر باركاشوف» زعيم الفاشيين الجدد في روسيا «إن من الضروري اللجوء إلى الحديد والنار لاستعادة الامبراطورية الروسية القديمة داخل حدودها السابقة». والواقع إن الشعب الروسي بكامله تقريباً قد عارض الحرب في الشيشان، وقامت المظاهرات الصاخبة في شوارع موسكو وغيرها من المدن الروسية تطالب يلتسين بالانسحاب الفوري من الشيشان، وقد اشترك في هذه المظاهرات النساء والشيوخ والأطفال والأدباء والشخصيات الاجتماعية البارزة. وهكذا استمرت المعارضة الشعبية في زخمها لحرب الشيشان، وكذلك الأحزاب السياسية حتى نهاية الحرب وتوقيع اتفاقية تشرين الثاني/ نوفمبر في ٢٣/ ١١/ ١٩٩٦ م، وفور إعلان بنود الاتفاق أعلن «زيوجانوف» زعيم الحزب الشيوعي في ٢٤/ ١١/ ١٩٩٦ م تنديده بالاتفاق الذي وقعته الحكومة الروسية مع الثوار الشيشان واعتبره غير دستوري، وأنه يؤدي إلى تفكك الاتحاد الروسي وطالب الزعيم الشيوعي، وزعيم التيار القومي المتطرف فلاديمير جيرنوفكسي، وزعيم الحزب الفاشي ألكسندر باركاشوف بعقد جلسة برلمانية لطرح الثقة بالحكومة الروسية وطالبوا أيضاً أن تنظر المحكمة الدستورية في هذا الاتفاق. كما أعرب زيوغانوف عن رغبته في أن تدرس الحكومة ووزارة الداخلية الروسية وعن كثب، المرسوم الخاص بسحب القوات الروسية من الشيشان وتُطلعان البرلمان على النتائج التي تتوصلان إليها. وشبَّه زيوغانوف الاتفاق بين موسكو والشيشان باتفاق «بيلوفيسكايا يوشتشا» الذي أنهى في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١ م الاتحاد السوفييتي، وأكد أن الاتفاق مع الشيشان يقوض الدعائم الأخيرة التي يستند إليها الاتحاد الروسي. وفور إعلان هذه المواقف المتطرفة من قبل الحزب الشيوعي والقومي والفاشي اتخذ أصلان مسخادوف رئيس الحكومة الشيشانية الانتقالية التي تشكلت بعد اتفاقية «خاسيا فورت» في ٣١/ ٨/ ١٩٩٦ م الموقف المناسب وقال: «لا بد أن يحصل شعب الشيشان على الضمانات الدولية لحماية أمنه، والتأكد من أن أحداً لن يقوم بإبادته، لقد قاتلنا ودافعنا عن حقنا لنكون تابعين للقانون الدولي، وحتى لا يفكر أحد في أن قتلنا هو مسألة داخلية، وبخلاف ذلك فإن كل أنواع

العلاقات مع روسيا الاقتصادية وغيرها أمر ممكن». وأصر قادة الشيشان على حقهم في الاستقلال وأكدوا بأنه غير قابل أو خاضع للنقاش. وقد أدى هذا الموقف الحازم من قبل شعب الشيشان وقادته إلى تراجع زعيم الحزب الشيوعي الروسي عن موقفه فأعلن في يوم ٢٨/ ١١/ ١٩٩٦ م أن كتلته في البرلمان لن تطرح موضوع سحب الثقة من رئيس الدولة، أو الحكومة، بسبب اتفاقهما مع الشيشان. وقد تراجع الشيوعيون عن مواقفهم بعد صدور ثلاث مطالعات قانونية تم إعداد اثنتين منها تحت إشراف الحزب الشيوعي أجمعت أن الاتفاقية مع الشيشان وقرار يلتسين بسحب القوات الروسية من الشيشان لا يشكلان انتهاكاً للدستور. واتخذ وزير الداخلية الروسية موقفاً حازماً عندما أعلن عن سحب قوات وزارة الداخلية من الشيشان نظراً لأن وجود أعداد كبيرة هناك قد حرم وزارة الداخلية من إمكانيات تنفيذ واجباتها الأساسية في مكافحة الجريمة التي باتت تهدد المجتمع الروسي، ولا سيما أن عصابات المافيا تسيطر على ٥٠٪ من اقتصاد البلاد[١]. وهكذا تخبط الشيوعيون الروس في مواقفهم فأدانوا الحرب في البداية ثم عارضوا اتفاقية إنهاء الحرب ثم أيدوها، ولكن من المؤسف أن نذكر أن أحد الشيوعيين غير الروس وهو الشاعر الكبير رسول حمزاتوف عاد ليتخبط في مواقفه، ففي فصل سابق رأينا كيف هجا الإمام شامل، ثم أعاد له الاعتبار، واعتبره بطلاً قومياً ومجاهداً عظيماً وزار قبره في المدينة المنورة، وعندما اندلعت حرب التحرير في الشيشان كتب مقالاً في أيار/ مايو عام ١٩٩٦ م ترجمه د. أحمد الخميسي[٢] قال فيه: «دائماً تسألونني ما هذا الذي يجري عندكم؟ فأقول لكم أنا لا أؤيد الشيشان ولا روسيا، فلا روسيا الحقيقية التي تحارب ولا الشيشان الحقيقية». وأضاف إنه عندما قامت مجموعة «سلمان رادوييف» باحتجاز الرهائن الروس في مستشفى «كزليار» في داغستان قال: الداغستانيون للشيشان لقد نقضتم وخنتم كل قوانين الجبال، وعادات الجبال والأجداد، وكل ما نصت عليه ديانتنا» وأضاف في مقطع آخر من مقاله «ألا تلقوا بالذنب على الشعب الروسي، ولا على الشعب الشيشاني، إنني

---

(١) وزير الداخلية الروسي هو «أناتولي كوليكوف».

(٢) انظر: جريدة الاتحاد في عدد ١١ أيار/ مايو ١٩٩٦ م، حيث نشرت ترجمة لمقال رسول حمزاتوف عنوانه: «دماء الحروب تنز في التاريخ فأوقفوا الحرب الشيشانية».

أقف مع وحدة أراضي روسيا. إن بلادي داغستان لم تنضم طواعية للاتحاد الروسي، هذه هي الحقيقة، لكننا طواعية لا نريد الخروج من قوامها هذه إرادة الشعب، بوسعنا أن نتمتع بأصالتنا وحريتنا، ولكن ما الذي سنحققه ـ ونحن بلد صغير لا يتجاوز سكانه مليوني نسمة بالاستقلال الذي سيعقبه الجوع والبرد والأطفال العرايا». وفي ختام مقاله يؤكد: «إن شعبنا الداغستاني لم يلهث وراء السيادة ولا أقر بياناً واحداً يتعلق باستقلاله عن روسيا، ولا سعى لابتزاز مختلف الامتيازات من روسيا»، وأضاف أخيراً: «إذا كانت الشيشان تريد استقلالها فامنحوها ذلك الاستقلال لكي لا تنهار أعمدة بيتنا الروسي». إن الأفكار الخطيرة التي جاءت في مقال الشاعر الكبير رسول حمزاتوف تدل على أن شاعرنا لم يسترد وعيه كما زعم عند ردِّ الاعتبار للإمام شامل، ولا يكفي أن يرد الاعتبار لشامل كشخص ولا يرد الاعتبار للقيم والأهداف التي ناضل وجاهد شامل من أجلها، لقد ناضل من أجل الاستقلال وها هو حمزاتوف يرفض استقلال داغستان عن روسيا، ويتهم الشيشان بانتهاك كل الأعراف، ونسي أن الشيشان لم يلجأوا لاختطاف الرهائن إلا بعد أن دمَّر الروس كل شيء في الشيشان، وقتلوا «١٠٤» آلاف شهيد من النساء والأطفال والشيوخ. أما قوله بأنه ليست روسيا الحقيقية التي تحارب في الشيشان فنوافقه عليه، ولكننا نرفض قوله بأن الذي يحارب في الشيشان ليس الشيشان الحقيقية، ففي هذا القول افتراء وعدم وضوح في الرؤية، لأن العالم كله اعترف بأن شعب الشيشان بكامله انتخب جوهر دودايف ليقود حرب الاستقلال عن روسيا، أما قوله: «لا تلقوا بالذنب على الشعب الروسي» فهذه حقيقة لأن الشعب الروسي رفض الحرب منذ البداية، أما أن يقول لا تلقوا بالذنب على الشعب الشيشاني فهذا كلام خطير جداً، فهل شعب الشيشان الذي قرر الاستقلال والخلاص من براثن الدب الروسي، الذي شرَّد وهجر وقتل الملايين من شعوب القوقاز مذنب، إن كلام حمزاتوف يدل على أن الأفكار الشيوعية قد غسلت دماغه تماماً، ولن يسترد وعيه، ولن يستطيع أن ينظف عقله من أباطيلها ومن إلحادها، أما تأكيده بأن الشعب الداغستاني لم يلهث وراء السيادة وأنه لا يقر بياناً واحداً يتعلق باستقلال داغستان عن روسيا، ولا حتى أن يسعى لابتزاز مختلف الامتيازات من روسيا. إن هذا التأكيد لا قيمة له، لأن رسول حمزاتوف لا يمثل إلا نفسه،

ولم يفوضه شعب الداغستان ليتكلم باسمه، ومما يدل على صحة ما ذهبنا إليه هو تكاتف الشعب الداغستاني مع الشعب الشيشاني، وقيام محاولات داغستانية متعددة لتحقيق المزيد من الخطوات الاتحادية مع الشيشان، وحتى قيام انتفاضات داغستانية مؤخراً تطالب بتغييرات في السلطة المحلية مثل جماعة «الشيخ نادر حاج اللايف» التي اقتحمت مبنى مجلس الدولة ومبنى رئاسة الوزراء في «مج قلعة» عاصمة الداغستان. إن شعب داغستان يتحفز للمطالبة بالاستقلال عن روسيا شاء رسول حمزاتوف أم أبى! ويتطلع للثأر من الروس[1] الذين هجروا وقتلوا أعداداً هائلة من شعب داغستان. إن الحركة القومية تتنامى في داغستان، وفي منطقة القوقاز كلها، وهناك خطوات ظهرت لتوحيد جهود شعوب القوقاز، مثل «حركة الأمة الإسلامية». وهناك جهود تبذل لتوحيد داغستان مع الشيشان. وهذا يدل بوضوح أن رسول حمزاتوف لا يعرف شعبه وأنه غريب عنه ولا يعيش همومه. ولعل الأكثر طرافة في مقال حمزاتوف هو قوله: «ما الذي سنحققه ونحن بلد صغير لا يتجاوز سكانه مليوني نسمة بالاستقلال الذي سيعقبه الجوع والبرد والأطفال العرايا»، وأحب أن أسأل شاعرنا الكبير هل روسيا التي تزحف على بطنها وتقتات بثدييها هي التي تُطعم الشعب الداغستاني؟، أم هي التي تنهب ثرواته، وبماذا تفسر الاستياء الشعبي العفوي والمظاهرات العفوية التي شهدتها داغستان في ٢٠/٥/١٩٩٨ م أليس سببها معاناة الشعب من سوء الظروف المعيشية؟ إن داغستان رغم صغرها يمكن أن تطعم وتكسو نفسها بنفسها في حالة توقف الروس عن نهب مقدراتها وثرواتها، أما إذا كنت لا تريد الخروج من قوام روسيا الاتحادية فهذه إرادتك وحدك. أما شعب داغستان فله رأي آخر مغاير تماماً، وقد عبر قادة

---

(١) أكد الدكتور «أمري شيخ سعيدون» رائد علم المخطوطات والأدب الإسلامي في الاتحاد السوفييتي السابق أن الإسلام في داغستان قد تعرض للملاحقة والاضطهاد، فأغلق الشيوعيون رفاق رسول حمزاتوف أبواب المساجد ودمروا الآثار الإسلامية والعربية، بما في ذلك المخطوطات النادرة، أما اليوم فقد استعادت داغستان هويتها الإسلامية، وعادت اللغة العربية تستخدم كسابق عهدها في تدريب العلوم الإسلامية في سائر المدارس الإسلامية في داغستان. «راجع ملحق حديث الجمعة الذي تصدره جريدة الاتحاد الظبيانية» عدد يوم الجمعة ٢٤ آذار/ مارس ١٩٩٥ م.

الشعب الداغستاني مراراً عن إرادتهم بأنهم يرغبون بالاستقلال لأنهم لا يستطيعون التمتع بأصالتهم وحريتهم ضمن الاتحاد الروسي. وأخيراً لا يجوز لشاعر كبير أن يسمي سعي شعب الداغستان للحصول على استقلاله كالسعي للحصول على امتيازات، أو ابتزاز مختلف الامتيازات كما قال. إن روسيا لم تمنح الشيشان امتيازات، ولم يطالب الشيشان أصلاً بما تسميه امتيازات، بل طالبوا بالاستقلال التام وهو الامتياز الوحيد الذي سيسعى شعب داغستان أيضاً للحصول عليه.

٧ ـ موقف الغرب من حرب الإبادة في الشيشان:

عندما انفجرت ثورة القوميات في الاتحاد السوفييتي، وطالبت جمهوريات البلطيق الثلاث «ليتوانيا واستونيا ولاتفيا» بالاستقلال عن الاتحاد السوفييتي وقف الغرب بكل طاقاته إلى جانب هذه الجمهوريات، واعتبر أن مطالبها شرعية ومحقة وعادلة. وقد رأينا كيف استجاب يلتسين للضغوط الغربية، وأصدر مرسومه الشهير في ٢٤ آب/ أغسطس ١٩٩١ م، واعترف باستقلال جمهوريات البلطيق الثلاث. أما عندما أعلن جوهر دودايف استقلال الشيشان عام ١٩٩١ م عن الاتحاد السوفييتي أولاً، وروسيا ثانياً، صمت الغرب، ولم يمارس أيَّ ضغط على يلتسين، بل سارع الغرب كله إلى الإعلان أن الشيشان جزء من الاتحاد الروسي. وعندما بدأت روسيا حرب الإبادة في الشيشان في ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ م، أعلنت دول الاتحاد الأوروبي أن تلك الحرب قضية داخلية تخص روسيا وحدها، وكذلك أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية أن الشيشان جزء لا يتجزأ من الاتحاد الروسي، وأن على الطرفين المعنيين بهذا الصراع العمل على تسويته من دون أي تدخل خارجي. وهكذا فإن كل ما تطالب به دول الغرب هو العمل فقط على حلّ النزاع، إن أمكن، وفقاً لمبادىء القانون الدولي. ومن هنا يتضح أن الغرب قد راهن منذ البداية على النظام الروسي الجديد، وقام بتشجيع البرامج الإصلاحية التي بدأها بوريس يلتسين تخوفاً من أن يحلَّ في الاتحاد الروسي نظام سلطوي شمولي مُضاد للغرب، خاصة بعد أن اكتسح فلاديمير جيرنوفسكي، زعيم الحزب القومي الروسي المتطرف، الساحة السياحية عقب الانتخابات التشريعية عام ١٩٩٣ م. وتذرعت الدول الغربية في الدفاع عن سياستها تجاه الحرب في الشيشان بأنه لا يمكن عمل أي شيء لإضعاف مركز يلتسين، ولكن مع تصاعد عمليات الإبادة في

الشيشان تحرك ضمير الرئيس الأمريكي «كلينتون»، ودعا يلتسين لأن يدير الحرب في الشيشان بعين مفتوحة على المسائل الإنسانية، وهكذا التزم الغرب كله سياسة عدم التدخل المباشر في حرب الشيشان، واكتفت دول الغرب، التي كانت قد قطعت أشواطاً لا بأس بها في غزو الأسواق الروسية، وفي شراء مؤسسات القطاع العام الروسي، بإبداء الأسف على الطريقة التي تناولت موسكو فيها الأزمة الشيشانية، ولكنها رفضت إغلاق الباب في وجه روسيا. وبعد أن دخلت القوات الروسية غروزني ودمرتها، ودمرت كذلك المدن والقرى الشيشانية الأخرى، وقتلت عشرات الآلاف من المدنيين العزل تحركت المشاعر الغربية، وتمَّ اتخاذ بعض الإجراءات ليس عطفاً على المسلمين الشيشان بل خوفاً على يلتسين ونظامه، الذي أصبح مكروهاً ومعزولاً ومنبوذاً من الروس أنفسهم. لذلك أرسلت منظمة الأمن والتعاون الأوروبي في أوائل عام ١٩٩٥ م بعثة تابعة للمنظمة إلى أرض المعارك في الشيشان، وأعلنت أنها ستعمل على التوسط لحل النزاع والبدء بمفاوضات بين الطرفين، وكذلك أصدرت المجموعة الديمقراطية المسيحية في البرلمان الأوروبي بياناً أدانت فيه العمليات اللاإنسانية، التي تنفذها موسكو في الشيشان.

أما المجموعة الليبرالية في البرلمان الأوروبي فقد وصفت ما تقوم به روسيا في الشيشان بأنه «عدوان على شعب صغير ومسالم». وناشدت القوى الديمقراطية في روسيا التضامن مع الشعب الشيشاني. وفي بروكسل قررت المفوضية الأوروبية تعليق المباحثات الجارية مع موسكو لإبرام اتفاق شراكة أوروبية روسية، وجمَّد الاتحاد الأوروبي اتفاقاً تجارياً مع موسكو. وفي ٢/ ٤/ ١٩٩٥ م، وبكل التهذيب اللائق، وبأرقى مستويات الدبلوماسية الدولية، أدلى الاتحاد الأوروبي بدلوه إزاء القمع الروسي في الشيشان، ووجه تحذيراً إلى موسكو، بعدما أنجزت القوات الروسية القسط الأكبر من عملية احتلال جمهورية الشيشان، وبعد مقتل عشرات الآلاف من الأطفال والنساء. وجاء في التحذير أنه يجب إيقاف القتال وبدء المفاوضات. وفي صيف ١٩٩٦ م، وبعد انتخاب يلتسين للمرة الثانية لرئاسة روسيا، أدان مجلس أوروبا وللمرة الثانية القتل المتعمد في الشيشان، وقالت: «لين فيشر» رئيسة الجمعية البرلمانية للمجلس في بيان لها: «إن الاستهزاء واللامبالاة التي أبدتها السلطات الروسية نحو المدنيين في الشيشان تخالف مبادئنا

وقيمنا». وفي ٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥ م وعندما كانت القوات الروسية تدمر الأرض والسكان في الشيشان قرر صندوق النقد الدولي وقف محادثاته مع الحكومة الروسية بشأن حصول موسكو على قرض قيمته ٦ مليار دولار، ولكن في ١٠ آذار/ مارس ١٩٩٥ م وافق صندوق النقد الدولي على منح روسيا ٦,٢٥ مليار دولار. وفي صيف عام ١٩٩٦ م وحرب الشيشان لا تزال مستمرة تلقت روسيا من صندوق النقد الدولي ٥ مليارات دولار. وكل هذه الأموال أو معظمها صُب في تمويل الجيش الروسي، الذي كان يدمر الشيشان. ومن هنا فإن الغرب لم يكن محايداً في النزاع الشيشاني الروسي بل كان طرفاً إلى جانب روسيا وموَّلها بمليارات الدولارات، ولولا هذه المليارات لانتهت الحرب منذ نيسان/ إبريل ١٩٩٥ م، لأنه لم يكن بإمكان روسيا متابعة الحرب، لأن خزانتها خاوية على عروشها. كما أن الغرب استفاد من الحرب، فقد رأى حلف الأطلسي قدرات الجيش الروسي القتالية على الطبيعة وأتاحت حرب الشيشان لحلف الأطلسي الحصول على المعلومات عن الجيش الروسي ما لم تتحه أية أجهزة مخابرات. لقد راقبوا كافة أنواع الأسلحة الروسية المستخدمة في الحرب، واستخلصوا منها الدرس اللازم. وعندما اجتاح الثوار غروزني في ٦ آب/ أغسطس ١٩٩٦ م وانتزعوها من براثن الدب الروسي، شعر حلفاء يلتسين في الغرب بأن هذه الحرب ستُضعف يلتسين، لذلك أشاروا عليه بوقفها خوفاً عليه من السقوط. وقصارى القول: إن الغرب كان موالياً ليلتسين، وحليفاً له، إلا أنه من الموضوعية أن نذكر أن منظمة العفو الدولية، المهتمة بحقوق الإنسان، قد أولت قضية الحرب عناية فائقة، واتهمت روسيا عدة مرات بانتهاك حقوق الإنسان من قتل وتعذيب، ودعت يلتسين مراراً لإيقاف الحرب. وكذلك فعلت بعض المنظمات الأخرى في دول أوروبا الغربية، أما هيئة الأمم المتحدة فقد كانت مشلولة ومعطلة، بسبب الفيتو الروسي والأمريكي والفرنسي والإنكليزي.

٨ ـ موقف الدول العربية والإسلامية:

عندما شن القياصرة حربهم الظالمة ضد شعوب القوقاز، وعلى مدى ثلاثة قرون متوالية. حاول الكونت «يرمولوف» الجنرال الأرعن الذي قاد جيوش القيصر ألكسندر الأول في معركة خاسرة أخرى ضد الشيشان، عام ١٨١٨ م أن يبرر حملته

الوحشية والإرهابية في القوقاز بطريقة أصولية. فقد ادعى بأن «مصير روسيا الواضح ومهمتها التاريخية هما حماية المملكة المسيحية ضد كل الأعدا. وبعد أن هُزم نابوليون بونابرت كان على جيوش القيصر أن تسحق «الحشرات الشيشانية» وعندما شن القيصر الديمقراطي يلتسين حملته الظالمة أيضاً على الشيشان في ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ م لجأ إلى نفس أسلوب «يرمولوف» لتبرير حملته على الشيشان، وادعت الحكومة الروسية أن حملتها ضد الشيشان تهدف إلى حماية أوروبا من الإسلام الذي من الممكن أن يكتسحها بكاملها. والغريب في هذا التبرير أنه يأتي من أشخاص نفوا قبل سنوات قليلة عدم وجود أي مسلم ضمن الامبراطورية الروسية. إن العطش الشيوعي لقلب وتزوير الحقائق لا يزال حياً ضمن إدارة يلتسين، ولكن ذلك لا يدعو للدهشة، إذ لم يكن يلتسين نفسه مسؤولاً شيوعياً حتى تحوله الفجائي إلى الديمقراطية فحسب، بل إن معظم مستشاريه هم أيضاً من الشيوعيين المتحولين، ومن أجل تبرير سياسته غير القابلة للتبرير يحاول الآن تقديم نفس الحجة التي تذرع بها مسؤولو القيصر ألكسندر الأول، وطبعاً الهدف من هذه الحجة هي كسب الدعم الغربي، وفعلاً أصدرت القيادة الروسية بيانات من فترة لأخرى خلال الحرب زعمت فيها أن الشيشانيين يتلقون الدعم من العالم الإسلامي، ونشرت المجلة الروسية «أنترفاكس إيف» يوم ١٩٩٦/١٢/٧ م مقالاً تحت عنوان العالم الإسلامي كله يتصدى للروس في الشيشان، ومما جاء فيه: «لقد أعدت الاستخبارات الروسية تقريراً ذكرت فيه أن القوات الروسية واجهت العالم الإسلامي كله في الشيشان، وأن هناك عدداً كبيراً من رعايا سوريا والأردن والسعودية حاربوا ضمن كتيبة «فتح»، وكتيبة «الجماعة». كما أشرف مدربون أفغان على تدريب المقاتلين الشيشان في معسكرات خاصة أقيمت داخل الشيشان وخارجها، وفي مدينة «خيارجا» في مقاطعة «هراة» قرب أفغانستان، ثم نقل إلى منطقة «غورغان» الإيرانية. وقد تولت الإنفاق على هذا المعسكر جهات سودانية وسعودية وباكستانية. كما تم تدريب طيارين من الشيشان في جمهورية «أذربيجان» وقد قامت جهات عديدة بفضح هذه المزاعم وتفنيدها وطالبت جهات عديدة بإرسال فريق من الأمن الروسي للتأكد من زيف تلك الاتهامات، مثل أذربيجان، وإيران، وأكدت الدول الإسلامية أنها كانت تسعى لإيقاف النزف في الشيشان

لمصلحة الطرفين، ووفق قاعدة مراعاة المصالح لطرفي النزاع الشيشاني والروسي. وبدوره أوضح الزعيم الشيشاني سليم خان ياندربايف في ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٦ م حيث صرح بما يلي: «لقد تضامنت شعوب البلدان العربية والإسلامية معنا بالشكل المتاح لها، أما الحكومات فموقفها مختلف، ولم تكن على المستوى المطلوب، ونرى أنه من المهم جداً في الظروف الحالية الحصول على دعم اقتصادي عربي إسلامي، سواء على شكل استثمارات، أو مساعدات أخرى لإعمار الدولة. وبالطبع ثمة أهمية خاصة للدعم السياسي متجسداً في الاعتراف باستقلالنا، وإقامة علاقات دبلوماسية معنا». وهكذا نجحت روسيا في تحجيم دور العرب والمسلمين، وبخاصة دور الحكومات، أما دور الشعوب، في البلدان العربية والإسلامية، فقد اقتصر على متابعة ما كان يحدث من تدمير، وما ترتكبه القوات الروسية من جرائم وفظائع، وكانت تلك الشعوب متعاطفة ومتضامنة مع الشيشان قلباً وقالباً، وحتى هذا التعاطف كان مصدر إزعاج للقيادة الروسية، التي حاولت عبر مبعوثيها وعبر اتصالاتها الديبلوماسية عزل شعب الشيشان عن كل إمكانات الدعم الخارجي، حتى في حدود الدعم الدبلوماسي والإنساني. وعلى سبيل المثال فقد كان تعاطف الأحزاب الإسلامية في تركيا واضحاً، ولم يقتصر على التأييد المعنوي، بل قدمت هذه الأحزاب مساعدات مالية للشيشان خلال الحرب، أما الحكومة فلم تقم بأي دور فعال، وأما إيران[1] فنراها تتخذ موقفاً مواتياً لروسيا في التحليل الأخير، ويكفي أن نشير إلى الاتفاق الذي عقد في أوائل عام ١٩٩٥ م، أي خلال حرب الشيشان بين إيران وروسيا لاستكمال بناء المفاعل النووي الذي تخلت ألمانيا عن بنائه. وأما الحكومات العربية، ورغم تعاطفها مع الشعب الشيشاني في محنته، فلا يمكن تسجيل موقف داعم لنضال الشيشان اتخذته أياً من هذه الحكومات، وحتى محاولات الحسن الثاني ملك المغرب لم يأبه لها أحد، ومن كان يتابع أخبار الحرب في الشيشان لاحظ أن بعض، أو معظم، محطات التلفزة العربية كانت تنقل أنباء المعارك والقتل والتدمير في الشيشان بصورة محايدة، وحتى أن بعض المحطات العربية كانت تطلق على المجاهدين الشيشان

---

(١) انظر: مجلة السياسة الدولية العدد ١٢٠، نيسان/ إبريل ١٩٩٥ م. السنة الواحدة والثلاثون، دراسة «حنان تمام سرور» عن بحث «المشكلة الشيشانية أصولها وآفاقها».

أسماء مثل «الانفصاليين، أو المتمردين والمغامرين»، وحتى أن بعض الصحفيين العرب الكبار، وجهوا اللوم صراحة للشيشان، لأنهم غامروا وقاوموا الجيش الروسي، ودخلوا في حرب معروفة النتائج مسبقاً. وهذا يدل على أن هؤلاء الكتَّاب لم يقرأوا تاريخ القوقاز ولا يعرفون شيئاً عن خصوصية شعوب القوقاز، ولو كلفوا أنفسهم قراءة تاريخ القوقاز لما توقعوا هزيمة الشيشان، ولأدركوا أن الشيشانيين لا بد أن ينتصروا. ومن الموضوعية أن نعترف أن جهات عربية قد أدانت الغزو الروسي للشيشان، وكانت أقوى تلك الإدانات والتنديدات قد جاءت من حركة حماس في فلسطين المحتلة، ومن حزب العمل المصري، ومن حزب الله في لبنان، وكذلك دعا الإمام الأكبر «جاد الحق علي جاد الحق» شيخ الأزهر السابق، رحمه الله، الدول العربية والإسلامية إلى مساندة المسلمين المعتدى عليهم في الشيشان. وحتى بعد انتهاء الحرب وتوقيع معاهدة السلام بين الشيشان وروسيا في ١٢ أيار/مايو ١٩٩٧ م والتي اعترفت بها روسيا عملياً باستقلال الشيشان، وتعهدت فيها بالتخلي عن استخدام القوة إلى الأبد في معالجة القضية الشيشانية، فإنه وحتى يوم الناس هذا لم تستجب أي دولة عربية أو إسلامية لنداءات القادة الشيشان لفتح ممثليات شيشانية في البلدان العربية والإسلامية، رغم أن عدو الشيشان أصبح حليفاً لإسرائيل، ألم توقع روسيا مذكرة تفاهم وتعاون عسكري مشترك مع إسرائيل، في أواخر عام ١٩٩٥ م، عندما زار بافل غراتشوف وزير الدفاع الروسي إسرائيل، ووقع الاتفاق مع قادتها. ألم يسمح الاتحاد السوفييتي، ومن بعده روسيا الاتحادية بهجرة «٨٠٠» ألف يهودي روسي إلى إسرائيل، ومعظمهم من العلماء والمهندسين والفنيين. إني أضع هذه الحقائق المعروفة أمام العرب والمسلمين، وأطالبهم بدعم شعب الشيشان معنوياً واقتصادياً وسياسياً، وأرجو من العرب والمسلمين أن يعترفوا باستقلال دولة الشيشان، ولا أستطيع أن أفهم لماذا لم تقم حتى الآن أية دولة عربية أو إسلامية، بالاعتراف باستقلال الشيشان وتبادل العلاقات معها، أو حتى تهنئتها بنصرها على الروس وبانتزاع استقلالها منهم. وأغلب الظن أن الدول العربية والإسلامية تخشى إغضاب روسيا، إن هي بادرت إلى الاعتراف بهذه الدولة الإسلامية الناشئة. إن واجب التضامن الإسلامي يحتم على المسلمين أن لا يخذلوا هذه الدولة الإسلامية الوليدة، ومن

الواجب ضمها إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، ودعمها سياسياً واقتصادياً. وأخيراً لا بد من التساؤل لماذا لم تشر قرارات قمة طهران للدول الإسلامية، التي انعقدت في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٧ م، إلى نضال شعب الشيشان ولو بكلمة واحدة، أليس ذلك مستغرباً حقاً، لقد كان من الواجب الإشادة بهذا الشعب الصغير المسلم، الذي استل خنجره الكبير وصرع الدب الروسي وانتزع استقلاله بنضاله العنيد ومن دون مساعدة أحد. بقي أن أؤكد أن عدم اعتراف أية دولة باستقلال الشيشان لا ينتقص من ذلك الاستقلال، لأن الإرادة الشعبية الشيشانية التي تصدت للغزو الهمجي الروسي، وكذلك حركة الدَّمار الشامل التي سببها الغزو، ومحاولة الإبادة الكاملة لشعب الشيشان، أعطته الحق المطلق في الاستقلال، ولا يقلل من هذا الحق تجاهل موسكو، أو العالم كله له، وإن عدم اعتراف الدول باستقلال جمهورية الشيشان الإسلامية لا يعني أن جمهورية الشيشان ليست مستقلة فعلاً، لأن هذا الاعتراف في القانون الدولي العام لم يعد كما كان في الماضي مُنشئاً للدولة، وإنما أصبح مقرراً لأمر واقع قائم لا يلغيه النكران، حتى وإن جاء بشكل جماعي من معظم أو كافة الدول، وهذا التفسير القانوني للاعتراف صادقت عليه محكمة العدل الدولية في لاهاي بعد اطلاعها على العديد من الأبحاث القانونية واقتناعها بما جاء فيها من أحكام توصل إليها فقهاء القانون الدولي العام، وحصلوا بها على درجات علمية رفيعة، وكان أبرزهم الدكتور المرحوم «حامد عبد الله ربيع». ويترتب على هذا المنطق القانوني الدولي أن روسيا ليس لها الحق في فرض إرادتها على دولة مستقلة سواء كانت معترفة بها، أو ناكرة لوجودها، لأن الاعتراف والنكران لا يثبتان أو ينفيان وجود الدولة، بعد أن أصبح وجودها قائماً أصلاً على مبدأ الأمر الواقع. نعم لقد أراد شعب الشيشان الاستقلال وكان له ما أراد، بعد أن ضحى بكل شيء، وأصبح استقلاله أمراً واقعاً. وليكن في جهاد الشيشان الذين قابلوا الموت وهم يهتفون «الله أكبر» عبرة للعرب وللمسلمين لعل الله يرضى عنهم ويرحمهم.

مسخادوف خلال تأديته
اليمين الدستورية . (رويتر)

تحت شعار «الإسلام، الحرية، الوطن»

مسخادوف يؤدي اليمين الدستورية رئيساً للشيشان

يلتسين ومسخادوف خلال
التوقيع على اتفاق السلام
(نقلاً عن جريدة الاتحاد
الظبيانية)

جورجيا تستقبل مسخادوف كرئيس دولة

اتفاق على آلية للاستقرار في القوقاز

شيشانيون يصلون ويدعون لرئيسهم الجديد مسخادوف

شيفاردنادزه ومسخادوف أثناء لقائهما في تبليسي

ملحق
أحداث الشيشان منذ أيلول (سبتمبر) ١٩٩١ م
إلى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٧ م

فيما يلي تسلسل وقائع الصدام بين روسيا وجمهورية الشيشان:

- **عام ١٩٩١ م:**
- في ٦ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٩١ م قاد الجنرال الطيار جوهر دودايف عملية الإطاحة برموز الحكم الشيوعي المحلي في جمهورية الشيشان بدعم وتأييد الكرملين له.
- في منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) تم انتخاب دودايف رئيساً للجمهورية.
- في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) أعلن دودايف استقلال جمهورية الشيشان
- في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) اعتبر البرلمان الروسي أن الانتخابات التي قادت دودايف إلى الحكم غير شرعية.
- في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) أصدر الرئيس الروسي يلتسين أمره بفرض حالة الطوارىء في جمهورية الشيشان.
- في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) طارت قوة عسكرية روسية من ألف عسكري إلى غروزني لفرض حالة الطوارىء، لكن عشرات الآلاف من المواطنين الشيشانيين احتشدت في المطار فمنعت هبوط القوة العسكرية.
- في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) عادت القوة إلى موسكو.
- **عام ١٩٩٢ م:**
- في ١١ تشرين الأول (أوكتوبر) قامت موسكو بحشد قوات ضخمة لها على حدود الشيشان، وأعلن الرئيس دودايف عن حالة الطوارىء في بلاده تحسباً للهجوم الروسي ثم تراجعت القوات الروسية دون حرب.
- **عام ١٩٩٣ م:**
- في ٢ نيسان (أبريل) قام الرئيس دودايف بحل البرلمان الشيشاني وتسريح الحكومة وإدخال نظام الحكم الرئاسي في الجمهورية الشيشانية الفتية.
- في ٥ حزيران (يونيو) قام دودايف باللجوء إلى القوة لمنع استفتاء شعبي عام أرادت المعارضة الداخلية تنظيمه بشأن قبول، أو رفض، الحكم الرئاسي الفردي.

- في ١٣ حزيران (يونيو) بدأت المعارضة الداخلية في الإعلان عن نفسها بافتتاح صفحة القتال المسلح بينها وبين الرئيس دودايف.

- **عام ١٩٩٤ م:**

- في ٢ آب (أغسطس) أعلنت موسكو صراحة عن دعمها للمعارضة وتأييدها للمجلس المؤقت للمعارضة الذي يتزعمه عمر أفتور خانوف.
- في ١١ آب (أغسطس) رفض الرئيس يلتسين استخدام القوة لصالح المعارضة الشيشانية.
- في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) قامت الطائرات الروسية المروحية المقاتلة بقصف المقرات الحكومية التابعة للرئيس دودايف بالقرب من غروزني دعماً لهجوم شنته قوى المعارضة المسلحة، وأعلنت غروزني أن الطائرات روسية بينما نفت موسكو ذلك.
- في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) فشلت المعارضة في هجماتها وارتدت إلى مواقعها.
- في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) أعلنت السلطات الشيشانية عزمها على توقيع العقاب اللازم على أكثر من سبعين عسكرياً روسياً شاركوا في القتال ضدها مع قوات المعارضة، إلا أن الرئيس دودايف عاد فأعلن أنه سيقدم العسكريين الروس للمحاكمة.
- في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) أصدر الرئيس يلتسين إنذاراً للتشكيلات العسكرية في الشيشان بتسليم أسلحتها حتى الأول من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٤ م وخلال ذلك قامت الطائرات الروسية بقصف غروزني عاصمة الشيشان.
- في ١ كانون الأول (ديسمبر) سلم الرئيس دودايف عدداً من الأسرى لأعضاء البرلمان الروسي. بينما اعترف وزير الدفاع الروسي غراتشوف بأن طائرات السلاح الجوي الروسي هي التي قصفت غروزني.
- في ٦ كانون الأول (ديسمبر) اتفق وزير الدفاع الروسي غراتشوف مع الرئيس دودايف، في لقاء خاص بجمهورية أنجوشيا، على إطلاق سراح باقي الأسرى الروس وإجراء مفاوضات لحل الأزمة.
- في ٨ كانون الأول (ديسمبر) نفَّذ الرئيس دودايف وعده وسلَّم ١٤ أسيراً كانوا لديه.
- في ٩ كانون الأول (ديسمبر) استعدت القيادة الروسية للعملية التي كان أولى مظاهرها سفر وزراء الدفاع والداخلية والأمن الروسي إلى أوسيتيا الشمالية الملاصقة لحدود الشيشان وزحف القوات الروسية «٤٠ ألف عسكري» إلى هناك.
- في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) تحركت القوات الروسية صوب الشيشان تحت حماية الطيران.
- في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) بدأت المفاوضات بين وفد شيشاني رسمي واللجنة الروسية المكلفة بحل الأزمة في «فلاديقفقاز» بأوسيتيا.
- اعترفت روسيا بقصف الشيشان وهددت بإسقاط الطائرات المجهولة فوق المنطقة.
- اتفق رئيس الشيشان ووزير الدفاع الروسي على استبعاد الحل العسكري للنزاع.

- أمر يلتسين بنزع أسلحة الانفصاليين في جمهورية الشيشان.
- غزت روسيا الشيشان عند الفجر ودودايف يؤكد: لن نستسلم.
- انضمت أنجوشيا للشيشان في تصديها للغزو الروسي.
- ارتكب الروس مذبحة بشعة في الشيشان ويلتسين يمهلها ٤٨ ساعة لنزع أسلحتها.
- أعنف غارات جوية روسية على الشيشان.
- استقالة نائب قائد القوات البرية الروسية في الشيشان
- أعلنت روسيا مصرع ألف شيشاني خلال يومين من القتال.
- وجه يلتسين انتقادات حادة لوزيري الدفاع والداخلية وأصدر تعليمات بوقف قصف المدنيين في الشيشان.
- إصابة جوهر دودايف (ابن رئيس الشيشان في القتال).
- اقتحمت القوات الروسية عاصمة الشيشان بعد تدميرها بالصواريخ والمدفعية الثقيلة ولكنها لم تتمكن من احتلالها بسبب المقاومة الشيشانية العنيفة.
- **كانون الثاني (يناير) ١٩٩٥ م:**
- في اليوم السادس، أعلن مجلس الأمن العسكري الروسي عن استمرار العمل العسكري ضد الشيشان.
- في اليوم الحادي عشر، وفي جلسة برلمانية ساخنة، تعثرت محاولات الليبراليين الروس لوقف الحملة العسكرية. دودايف يدعو لتسوية سلمية ويلتسين يتولى قيادة قوات الغزو.
- في اليوم التاسع عشر: أعلنت القوات الروسية عن استيلائها على القصر الرئاسي بغروزني ولكن المجاهدين كذبوا هذا الإعلان الروسي.
- في اليوم الثالث والعشرين: أعلنت المقاومة الشيشانية عن استعادتها بعض المواقع الهامة في غروزني وألمانيا توقف مساعدتها المالية لروسيا إذا واصلت حرب الشيشان.
- في اليوم الثلاثين: دفعت روسيا بتعزيزات عسكرية جديدة إلى الشيشان وقصفت المناطق السكنية وبذلك وصل عدد القوات الروسية إلى أكثر من ٣٠٠ ألف جندي.
- **شباط (فبراير) ١٩٩٥ م:**
- في اليوم الأول: فرض مرسوم روسي حالة الطوارىء في أنجوشيا وأوسيتيا الشمالية بسبب حرب الشيشان.
- في اليوم السادس: صُرع وجُرح الآلاف من الجنود الروس رغم استخدام طلقات الأبر السامة والقنابل العنقودية المحرمة دولياً والأسلحة الكيماوية.
- في اليوم السابع: قرر صندوق النقد الدولي وقف محادثاته مع الحكومة الروسية بشأن حصول موسكو على قرض قيمته ٦ آلاف مليون دولار.
- في اليوم الثالث عشر: التوصل لاتفاق مبدئي لوقف إطلاق النار في الشيشان، حكومة جديدة في غروزني موالية لموسكو.

- في اليوم الخامس عشر: توقع جولة مفاوضات أخرى والمخابرات الروسية تطارد دودايف.
- فشل مفاوضات تبادل الأسرى وجثث القتلى بين الروس والشيشان.
- في اليوم الحادي والعشرين: هجوم روسي جديد في الشيشان للقضاء على فريق المقاومة السرية واضطرار المجاهدين للخروج من غروزني العاصمة والانسحاب إلى الجبال الشيشانية.
- في اليوم السادس والعشرين: انفجار ضخم يقتل ٢٥ جندياً روسياً بالشيشان واكتشاف مقبرتين جماعيتين للضحايا المدنيين.
- في اليوم السابع والعشرين: واصلت روسيا تعاونها مع إيران رغم الرفض الأمريكي.
- في اليوم الثامن والعشرين: إسقاط طائرتين روسيتين في الشيشان، وغروزني تتعرض لقصف مدفعي مكثف وبشكل عشوائي.
- **آذار (مارس) ١٩٩٥ م:**
- في اليوم الثالث: أول حملة تفتيش أمريكية للمواقع النووية الروسية.
- في اليوم الرابع: اتفاق رجال الدين المسلمين والمسؤولين الروس على وقف إطلاق النار في الشيشان.
- في اليوم السابع: ١٨ ألف قتيل ومصاب خسائر الروس في الشيشان حسب الإحصاءات الروسية.
- في اليوم العاشر: وافق صندوق النقد على منح روسيا ٦,٢٥ مليار دولار.
- أعلن رئيس الشيشان التعبئة العامة لاستمرار الحرب ضد روسيا، والبرلمان الروسي يعزل مفوض حقوق الإنسان لتحيزه للشيشان.
- في اليوم التاسع عشر: جمَّد الاتحاد الأوروبي الاتفاقية التجارية مع روسيا بسبب حرب الشيشان.
- في اليوم الثاني والعشرين: إسقاط تسع طائرات روسية أثناء هجومها على مدن شيشانية.
- في اليوم التاسع والعشرين: استعدت القوات الروسية لاقتحام آخر معاقل المقاومة الشيشانية.
- انسحاب القوات الشيشانية من مدينة «شالي» ولجوء ٣٠ ألف مواطن إلى داغستان.
- في اليوم الثلاثين: أعلنت روسيا عن سقوط مدينة غوديرميس الشيشانية.
- في اليوم الحادي والثلاثين: انفجار «١١٠٠» طن من الصواريخ والذخائر في روسيا.
- **نيسان (أبريل) ١٩٩٥ م:**
- في اليوم الثامن: سقوط آخر معاقل المقاومة الشيشانية في أيدي القوات الروسية حسب ادعاءات موسكو.
- في اليوم التاسع: سمحت روسيا بالجنسية المزدوجة لليهود والمهاجرين لإسرائيل.
- في اليوم الخامس عشر: فشلت روسيا في اقتحام قرية شيشانية (باموت).
- في اليوم التاسع عشر: انسحبت القوات الروسية من بلدة (باموت) الشيشانية.

- في اليوم الثاني والعشرين: استأنفت القوات الروسية قصف قرية (باموت) الشيشانية.
- في اليوم السادس والعشرين: أعلن بافيل غرانشيف وزير الدفاع الروسي عن وقف العمليات العسكرية في الشيشان أول أيار (مايو). وروسيا تنتهك معاهدة خفض القوات وتعزز وجودها في القوقاز.
- في اليوم الثلاثين: خاض الحزب الديمقراطي الإسلامي ولأول مرة انتخابات روسيا.

- **أيار (مايو) ١٩٩٥ م:**

- في اليوم الخامس: قيام مظاهرات صاخبة في غروزني والمدن الشيشانية الأخرى حيث اشتبكت الجماهير مع الجنود الروس الذين أطلقوا النار على المتظاهرين.
- في اليوم الخامس عشر: أعلن الروس أن جمهورية الشيشان أصبحت بكاملها تحت سيطرتهم، ولكن وكالات الأنباء كذبت ذلك الإعلان فوراً.
- في اليوم الثامن عشر: استمرار المعارك بين الشيشان والروس في مختلف مناطق الشيشان وإسقاط بعض الطائرات الروسية.
- في اليوم الخامس والعشرين: هدد دودايف بتوسيع نطاق الحرب ونقلها إلى داخل روسيا والتلويح باستخدام أسلحة الدمار الشامل ضد أهداف روسيا وفي مقدمتها موسكو.
- في اليوم الثلاثين: هدد دودايف بنقل الحرب إلى أوروبا التي تدعم الروس في حربهم.

- **حزيران (يونيو) ١٩٩٥ م:**

- في اليوم الثالث عشر: قام شامل باساييف بتنفيذ عملية بوديونوفسك واختطف مجموعة من الرهائن الروس بهدف إجبار الروس على سحب قواتهم والاعتراف باستقلال الشيشان.
- في اليوم الخامس عشر: قام الجيش الروسي بقصف المستشفى الذي يحتجز فيه شامل باساييف الرهائن الروس ولكنه فشل في إنهاء العملية وأدى الهجوم الروسي إلى مقتل ٥٠ رهينة روسية.
- في اليوم السادس عشر: اتصل تشيرنوميردين هاتفياً مع شامل باساييف وتعهد بإجراء مفاوضات مع الشيشان مقابل انتهاء أزمة الرهائن.

- **تموز (يوليو) ١٩٩٥ م:**

- في اليوم الثاني: حدوث أزمة سياسية في روسيا بعد عملية بوديونوفسك وقيام يلتسين بعزل رئيس الأمن القومي وبعض المسؤولين (القادة).
- في اليوم الخامس عشر: بدء المفاوضات بين الشيشان والروس لإنهاء الحرب الشيشانية وسحب القوات الروسية.
- في اليوم الحادي والثلاثين: التوصل إلى اتفاق بين الشيشان والروس نص على وقف الأعمال العسكرية وتبادل الأسرى ووقف كل العمليات الانتحارية ونزع سلاح المقاتلين الشيشان بعد انسحاب القوات الروسية من جمهورية الشيشان.

- آب (أغسطس) ١٩٩٥ م:
- في اليوم السابع: رفعت روسيا حالة الاستعداد بين قواتها في الشيشان.
- سيطر الفزع على الجنود الروس بسبب قدرات المقاومة الشيشانية.
- في اليوم الثاني عشر: دخلت المفاوضات الروسية الشيشانية في طريق مسدود.
- في اليوم الرابع عشر: أوقفت روسيا أنشطة الجماعات المسلحة في الشيشان وهددت بالانسحاب من المفاوضات السلمية.
- في اليوم الخامس عشر: ادعى الروس بأن الشيشان سلموا أسلحتهم بعد تهديد يلتسين باستخدام القوة وقد تم ذلك في قرية واحدة من قرى الشيشان.
- في اليوم السابع عشر: بدأت روسيا بسحب قواتها من الشيشان، ولكن في الواقع لم تنسحب إلا قوات رمزية.
- في اليوم التاسع عشر: تسوية الخلاف حول الاتفاق العسكري بين الروس والشيشان تمهيداً لاستئناف مباحثات السلام.
- في اليوم الحادي والعشرين: استعادت القوات الروسية السيطرة على مركز للبوليس قرب غروزني كان قد احتله الشيشان.
- في اليوم الثاني والعشرين: استشهاد حوالي ٨٠ شيشانياً في عملية اقتحام البوليس الروسي.
- في اليوم السادس والعشرين: مصرع وإصابة ٤٠ روسياً في عمليات فدائية للقوات الشيشانية.
- أيلول (سبتمبر) ١٩٩٥ م:
- في اليوم الخامس عشر: استمرار المعارك في الشيشان رغم ادعاءات روسيا بانتهاء الحرب في الشيشان.

في اليوم العشرين: فشل المباحثات بين الشيشان والروس.

- تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٩٥ م:
- في اليوم السادس: في ثاني محاولة لاغتيال مسؤول روسي خلال أسبوعين، إصابة قائد القوات الروسية بالشيشان ومصرع بعض معاونيه.
- في اليوم العاشر: رفض يلتسين إعلان الطوارىء في غروزني.
- في اليوم الحادي عشر: أوقف الشيشان تنفيذ الاتفاق العسكري في موسكو.
- في اليوم الرابع عشر: بعد ١٠ ساعات: إنهاء عملية اختطاف أوتوبيس في قلب موسكو، واحتجز مسلح مجهول ٢٥ سائحاً كورياً جنوبياً قرب الكرملين.
- في اليوم الخامس والعشرين: مظاهرات شيشانية في غروزني احتجاجاً على تعيين رئيس الوزراء الجديد الموالي لموسكو.
- في اليوم السادس والعشرين: إصابة يلتسين بثاني أزمة قلبية خلال ٤ أشهر.

- **تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٥ م:**
- في اليوم الخامس والعشرين: محاولة فاشلة لاغتيال دوكوزا مخاييف رئيس حكومة الشيشان الموالي لموسكو.
- في اليوم السابع والعشرين: انتقال يلتسين إلى مصحة خارج موسكو. وإضراب للمدرسين في ٤٠ مدرسة روسية.
- في اليوم السابع والعشرين: قصف مدفعي روسي للمقاتلين الشيشان ومخاوف من تصاعد العنف مع بدء الانتخابات.
- **كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٥ م:**
- في اليوم التاسع: انسحب حسب اللاتوف من انتخابات الشيشان والمقاومة تنسف قطاراً في تحد لموسكو.
- في اليوم الخامس عشر: استولى المجاهدون الشيشان على مدينة بالشيشان وخاضوا أشرس المعارك مع الروس في اليوم الثاني للانتخابات.
- في اليوم السابع عشر: تقدم الحزب الشيوعي يليه القومي المتشدد وحزب رئيس الوزراء في ذيل القائمة في الانتخابات البرلمانية الروسية.
- فوز مرشح موسكو (دوكوزا) فنجاييف برئاسة الشيشان وقد أعلن عن فوزه رغم مقاطعة الشيشانيين للانتخابات وعدم مشاركتهم فيها.
- في اليوم التاسع عشر: بدأ الجيش الروسي هجومه على مدينة غوديرميس الشيشانية.
- في اليوم الخامس والعشرين: أكدت النتائج النهائية للانتخابات الروسية:
  - فوز الشيوعيين ٢٢,٣١٪ من الأصوات.
  - استعادة روسيا ثاني أكبر مدن الشيشان بعد تدميرها.
- **كانون الثاني (يناير) ١٩٩٦ م:**
- في اليوم الخامس: قبل يلتسين استقالة كوزيريف وسياسة روسيا الخارجية لن تتغير.
- في اليوم التاسع: تعيين يفجيني بريماكوف رئيس جهاز المخابرات وزيراً للخارجية الروسية خلفاً لأندرية كوزيريف.
- احتجز شيشانيون رهائن في مستشفى بداغستان لإجبار القوات الروسية على الانسحاب من الشيشان بقيادة سلمان رادويف «٢٨» عاماً.
- في اليوم الحادي عشر: حاصرت قوات روسية، تعززها المدرعات قافلة الرهائن الشيشانية. دودايف أمر بالعملية... ويلتسين مستعد لسحب القوات من الشيشان بشروط.
- في اليوم الثالث عشر: وجّه رئيس جهاز أمن الدولة الروسي إنذاراً للمسلمين الشيشان لإطلاق سراح الرهائن اليوم.
- عرض مقاتلو الشيشان مبادلة الرهائن بأعضاء حكومة بلادهم الذين تعتقلهم موسكو.

- وفي اليوم السابع عشر: تهديدات بنسف السفينة التركية المختطفة وأسطول البحر الأسود يستعد للتدخل.
- موسكو شنت هجوماً نهائياً على الشيشان في بيرنومايسكا لإنهاء أزمة الرهائن. ولكن رادوييف قائد العملية تمكن من الانسحاب مما أدهش العالم كله.
- في اليوم الثامن عشر: أنهت القوات الروسية عملياتها العسكرية ضد الشيشان وإطلاق سراح ٨٢ رهينة.
- رفضت تركيا دخول السفينة المختطفة إلى مضيق البوسفور.
- وفي اليوم الخامس والعشرين: عيَّن يلتسين نائبين لرئيس وزراء روسيا هما (الكسندركازاكوف وفلاديمير كادينكوف).
- **شباط (فبراير) ١٩٩٦ م:**
- في اليوم الأول: أقال يلتسين قائد أسطول البحر الأسود.
- في اليوم التاسع: انفجارات بعاصمة الشيشان وسط المتظاهرين.
- أغلقت روسيا المدينة لوقف المظاهرات.
- في اليوم الثالث عشر: حاصرت القوات الروسية معقل المجاهدين في شمال البلاد.
- في اليوم الخامس عشر: رشح يلتسين نفسه رسمياً لرئاسة روسيا.
- في اليوم السابع عشر: بدء التحقيق مع النائب العام الروسي بعد اعتقاله بتهمة الاختلاس وتلقي الرشاوي.
- في اليوم الرابع والعشرين: أنباء عن مذابح في نوفو غروزني.
- دخلت وحدات عسكرية روسية جمهورية أنجوشيا وسط مخاوف من امتداد الحرب لباقي القوقاز.
- في اليوم السادس والعشرين: انسحاب القوات الروسية من قرب جمهورية أنجوش.
- **آذار (مارس) ١٩٩٦ م:**
- في اليوم السادس: وسط أنباء عن استشهاد دودايف، هاجم الشيشان القوات الروسية وسيطروا على أجزاء من غروزني.
- قطع دودايف إرسال التلفزيون الروسي وأعلن مسؤوليته عن الهجوم.
- في اليوم الثامن: اختطف مسلحون من الشيشان طائرة ركاب قبرصية.
- في اليوم التاسع: استسلام خاطف الطائرة القبرصية من مطار ميونخ بألمانيا ونجاة جميع الركاب.
- في اليوم الخامس عشر: ألغى مجلس النواب الروسي قرار تفكيك الاتحاد السوفييتي السابق.
- في اليوم السابع عشر: قصف روسي مكثف لقريتي (ساماشكي) و(فيدينو) بالشيشان.
- في اليوم الثامن عشر: اعترف قائد القوات الروسية بالفشل في السيطرة على بلدة (ساماشكي).

- في اليوم الثاني والعشرين: ١١٤ قتيلاً وجريحاً روسياً في ٢٤ هجوماً للمقاومة الشيشانية خلال ٢٤ ساعة.
- في اليوم الحادي والثلاثين: أعلن يلتسين وقف العمليات العسكرية بالشيشان وقائد القوات الروسية يؤكد استحالة التنفيذ.
- استمرار القصف الروسي للقرى الشيشانية عقب إعلان خطة السلام.

- نيسان (أبريل) ١٩٩٦ م:
- في اليوم الثاني: توقيع أكبر معاهدة للتحالف بين روسيا وبيلاروسيا، وتدعم المعاهدة يلتسين في انتخابات الرئاسة.
- في اليوم الرابع عشر: بدأت روسيا سحب ١٤ وحدة عسكرية من الشيشان.
- في اليوم الخامس عشر: بالرغم من إعلانه خطة للانسحاب.
- إسقاط هليكوبتر روسية بالشيشان وسط تصعيد لعمليات المقاومة.
- في ٢١ نيسان (أبريل) اغتيال الرئيس الشيشاني جوهر دودايف.
- في اليوم الرابع والعشرين: تأكيد مصرع دودايف وتولي ياندربييف قيادة الشيشان.
- تعهَّد الزعيم الجديد باستمرار القتال وسط غموض حول مستقبل النزاع.
- في اليوم السابع والعشرين: فجر الشيشان خطاً للسكة الحديدية وبئراً بترولية.
- في اليوم الثامن والعشرين: اغتيال (فيكتور نتشاييف)، طبيب رئيس وزراء روسيا.
- في اليوم التاسع والعشرين: بعد ٨ أيام من اختياره خليفة لدودايف.
- أنباء متضاربة عن مصرع ياندربييف زعيم الشيشان الجديد، وبعد ساعتين ظهر ياندربييف على شاشة التلفزيون مكذباً تلك الأنباء.

- أيار (مايو) ١٩٩٦ م:
- في اليوم الرابع: هجوم على مقر وزارة الداخلية الروسية في غروزني.
- في اليوم الثالث عشر: فشل يلتسين في تشكيل تحالف للديمقراطيين.
- عملية عسكرية روسية في عاصمة الشيشان.
- في اليوم التاسع عشر: كشف يلتسين عن مؤامرة لاغتياله في الشيشان.
- في اليوم السابع والعشرين: بعد جلسة مباحثات أحيطت بالسرية وبالإجراءات الأمنية المشددة:
- اتفاق يلتسين وياندربييف على وقف الأنشطة العسكرية بالشيشان تمهيداً للمفاوضات السياسية.
- في اليوم الحادي والثلاثين: اعترف يلتسين بخطأ إعلان الحرب في الشيشان وتعهد بتصحيحه.

- **حزيران (يونيو) ١٩٩٦ م:**
- في اليوم التاسع: استئناف محادثات السلام: مقتل جنديين روسيين ومسؤول بارز في حكومة الشيشان.
- جدول زمني لانسحاب الروس من الشيشان مقابل نزع سلاح المقاومة.
- في اليوم الحادي عشر: بعد يوم من توقيع اتفاق السلام: هجومان يستهدفان قافلة المفاوضين الشيشان العائدين من (نازران).
- في اليوم التاسع عشر: كشف ليبيد عن محاولة انقلاب عسكري في روسيا وبحث تغيير قيادة الجيش.
- في اليوم العشرين: حذر الجنرال ليبيد من زعزعة الاستقرار في روسيا: أقال يلتسين ثلاثة من كبار المسؤولين بالكرملين بعد تفجر صراع على السلطة.
- في اليوم الثاني والعشرين: فشل محادثات الشيشان في الاتفاق على تنفيذ الهدنة.
- في اليوم الخامس والعشرين: في إجراءات جديدة لتعزيز قبضته على السلطة، أقال يلتسين ٧ جنرالات و٣ مسؤولين بمجلس الأمن قبل بدء الجولة الحاسمة من الانتخابات.
- **تموز (يوليو) ١٩٩٦ م:**
- في اليوم الأول: تعزيزاً للشائعات حول حالته الصحية: ألغى يلتسين اجتماعين مع رئيس أوكرانيا ومولدافيا.
- في اليوم الثالث: خاض يلتسين الجولة الحاسمة في انتخابات الرئاسة أمام زيوجانوف.
- في اليوم الرابع: فوز يلتسين برئاسة روسيا لفترة ثانية بنسبة ٥٣,٧٪ مقابل ٤٠,٤٪ لخصمه زيوجانوف زعيم الحزب الشيوعي الروسي.
- في اليوم السادس: شكل الشيوعيون والليبراليون الروس تحالفات جديدة استعداداً للمواجهة في البرلمان.
- بدأ الجنرال ليبيد حملة ضد الجريمة والفساد في موسكو وتصاعد صراعه مع رئيس الحكومة.
- في اليوم العاشر: تجددت الحرب في أنحاء الشيشان وسط أنباء عن صدور أمر لاعتقال زعيم المقاومة.
- في اليوم الثاني عشر: ثاني انفجار يهز موسكو خلال يومين وقد قتل وأصاب ٢٨ شخصاً.
- وقّع يلتسين مرسوماً لمكافحة الإرهاب بعد ثاني انفجار في موسكو.
- في اليوم الرابع عشر: مصرع وإصابة ٣٥ من العسكريين الروس في الشيشان.
- في اليوم الخامس عشر: نُقل يلتسين إلى مصحة للمرة الثالثة خلال عام.
- في اليوم السابع عشر: عيَّن يلتسين وزيراً للدفاع من أنصار ليبيد.
- في اليوم العشرين: طالب مجلس (الدوما) يلتسين بوقف القتال في الشيشان واستئناف محادثات السلام.

- إغلاق مطار غروزني ومصرع وإصابة ٤٥٨ جندياً روسياً في هجمات للمقاومة منذ اتفاق الهدنة.
- في اليوم الرابع والعشرين: الموت جوعاً يهدد الجنود الروس في أقصى شرق الشيشان بسبب نقص الإمدادات، والقوات الروسية تعلن السيطرة على أحد معاقل المقاومة الشيشانية.
- في اليوم الخامس والعشرين: أعلن الجنرال ليبيد عن وقف العمليات العسكرية بالشيشان.
- وفي اليوم السادس والعشرين: شكّل يلتسين مجلساً للدفاع لتحجيم نفوذ الجنرال ليبيد.
- في اليوم التاسع والعشرين: رفض الجنرال إيجور روديونوف وزير الدفاع الروسي وقف الحرب في الشيشان.
- **آب (أغسطس) ١٩٩٦ م:**
- في اليوم الرابع: قبلت روسيا التفاوض مع أي وفد للمقاومة الشيشانية.
- في اليوم السادس: اقتحم المقاتلون الشيشان العاصمة غروزني في أكبر هجوم مسلح من نوعه.
- في اليوم الثامن: دخلت القوات النظامية لفك الحصار حول مبنى الحكومة.
- في اليوم التاسع: تنصيب يلتسين رئيساً لروسيا لفترة ثانية.
- تبادَل الروس والشيشان السيطرة على مبنى الحكومة.
- في اليوم الحادي عشر: اجتمع ليبيد مع ممثلي الشيشان وداغستان لتسوية الأزمة الحالية.
- مصرع ١٥٠ جندي روسي في عملية للمقاومة الشيشانية تعزيزات روسية لاستعادة غروزني.
- في اليوم الثالث عشر: اتفاق لوقف إطلاق النار بعد ٨ أيام من المعارك.
- في اليوم الخامس عشر: كلف يلتسين تشيرنوميردين لرئاسة الحكومة.
- في اليوم السادس عشر: طالب ليبيد بإقالة وزير الداخلية الروسي لحل أزمة الشيشان.
- في اليوم العشرين: إقالة قائد القوات الروسية بالشيشان لتهدئة الأوضاع.
- في اليوم الحادي والعشرين: قصفت القوات الروسية غروزني بالمدفعية بعد ساعات قليلة من اتفاق وقف إطلاق النار.
- في اليوم الرابع والعشرين: بدأت القوات الروسية انسحابها من غروزني.
- في اليوم السابع والعشرين: استأنف الجيش الروسي انسحابه من غروزني عقب اتفاق مع المقاومة الشيشانية على استكمال الهدنة.
- في اليوم الحادي والثلاثين: وقع ليبيد وأصلان مسخادوف إعلاناً يرجىء تحديد وضع الشيشان لمدة خمس سنوات وينهي ٢١ شهراً من الحرب بشكل نهائي.
- **أيلول (سبتمبر) ١٩٩٦ م:**
- في اليوم العاشر: نقل يلتسين صلاحيات الأمن القومي لتشيرنوميردين استعداداً لإجراء عملية في القلب.

- مارس تشيرنوميردين صلاحيات رئيس الدولة في روسيا.
- في اليوم الثاني عشر: تعليق انسحاب القوات الروسية من الشيشان للخلاف حول تبادل الأسرى.
- في اليوم السابع عشر: اتفاق لتشكيل حكومة ائتلافية مؤقتة في الشيشان لحين إجراء الانتخابات. وأسندت رئاستها للجنرال أصلان مسخادوف رئيس الأركان الشيشاني.
- حذر يلتسين حلف الأطلنطي من التوسع شرقاً دون الاتفاق مع روسيا.
- **تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٩٦ م:**
- في اليوم الرابع: أقال يلتسين ستة من كبار جنرالات الجيش الروسي.
- في اليوم السابع: هددت روسيا بمقاطعة الدول التي تعترف بالشيشان.
- في اليوم الحادي عشر: رفض مجلس النواب الروسي مشروع الموازنة الجديدة بأغلبية ساحقة.
- في اليوم الرابع عشر: عيَّن يلتسين ليبيد رئيساً للوفد الروسي في مفاوضات السلام في الشيشان.
- في اليوم السادس عشر: اتهم كوليكوف وزير الداخلية ليبيد بتدبير انقلاب عسكري.
- طالب يلتسين بإعداد تقرير سريع عن مؤامرة ليبيد.
- في اليوم السابع عشر: أعلن يلتسين إقالة ليبيد.
- قرر ليبيد مواصلة العمل السياسي.
- في اليوم الثامن عشر: وافقت روسيا على استئناف عمل الوكالة اليهودية للهجرة.
- أقال يلتسين كوليسنيكوف رئيس أركان الجيش الروسي.
- في اليوم التاسع عشر: عيَّن يلتسين إيفين ريبكين سكرتيراً لمجلس الأمن القومي ومبعوثاً في الشيشان، بدلاً من الجنرال ليبيد.
- في اليوم العشرين: تعهد ريبكين بمواصلة الجهود السلمية في الشيشان.
- في اليوم الخامس والعشرين: شكل يلتسين هيئة رباعية لإدارة روسيا لحين إجرائه جراحة بالقلب.
- في اليوم الثامن والعشرين: أبلغ ريبكين القادة الشيشان التزام روسيا باتفاق السلام.
- **تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٦ م:**
- في اليوم السادس: استعاد يلتسين سلطاته الرئاسية من تشيرنوميردين بعد نجاح العملية الجراحية التي أجريت له بالقلب.
- في اليوم السابع: في ذكرى الثورة الشيوعية: تظاهر آلاف الشيوعيين منددين بفساد يلتسين وحكومته.
- في اليوم السادس عشر: مصرع ٢٢ شخصاً في انفجار مجمع سكني للجيش الروسي بجمهورية داغستان.

- في اليوم الثالث والعشرين: وقّع رئيس الحكومة الائتلافية بالشيشان وتشيرنوميردين اتفاقاً يحدد مبادىء العلاقات الثنائية حتى إجراء انتخابات رئاسية في الشيشان في ٢٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧ م.
- وقّع يلتسين مرسوماً بالانسحاب الكامل للقوات الروسية من الشيشان.
- في اليوم الرابع والعشرين: طالب زيوغانوف زعيم الحزب الشيوعي بسحب الثقة من الحكومة الروسية احتجاجاً على الاتفاق الجديد مع المقاومة الشيشانية.
- في اليوم الخامس والعشرين: طالب النواب الشيوعيون بعزل يلتسين وسحب الثقة من الحكومة.
- **كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٦ م:**
- في اليوم الثاني: عزل يلتسين قائد القوات البرية واتهمه بانتهاك شرف الجندية.
- في اليوم الحادي عشر: أحال يلتسين وزير الدفاع روديونوف للتقاعد وأبقاه وزيراً للدفاع ليصبح أول وزير دفاع مدني.
- في اليوم السابع عشر: قررت هيئة الصليب الأحمر ترحيل موظفيها من الشيشان بعد مقتل وإصابة ٧ من عامليها.
- في اليوم الثامن عشر: أفرج الثوار الشيشان عن ٢٢ رهينة روسية.
- في اليوم التاسع عشر: اتهم الثوار الشيشان قوات الأمن الروسية بقتل موظفي الصليب الأحمر.
- في اليوم التاسع والعشرين: أدان البرلمان الروسي قرارات يلتسين الخاصة بالشيشان.
- **كانون الثاني (يناير) ١٩٩٧ م:**
- في اليوم التاسع: طالب زيغانوف، رئيس الحزب الشيوعي المعارض، يلتسين بالاستقالة لتدهور حالته الصحية.
- في اليوم الخامس عشر: رفض يلتسين طلب المعارضة بتعديل الدستور.
- تقدمت المعارضة بطلب للبرلمان لعزل الرئيس يلتسين.
- في اليوم الثامن والعشرين: فاز أصلان مسخادوف في أول انتخابات رئاسية حرة بالشيشان بنسبة ٦٨,٦٪.
- **نيسان (أبريل) ١٩٩٧ م:**
- عين أصلان مسخادوف، الرئيس الشيشاني شامل باساييف نائباً أول له.
- في الثامن والعشرين: مقتل وإصابة ١٣ شخصاً في انفجار بمحطة القطارات جنوب البلاد بالقرب من الشيشان.
- اتهم قادة الشيشان روسيا بتدبير الانفجار لوقف عملية تبادل الأسرى بين الجانبين.
- في اليوم التاسع والعشرين: أعلنت جمهورية الشيشان عن تعليق المفاوضات مع روسيا احتجاجاً على حادث الانفجار.

- انتقد يلتسين مجلس النواب الروسي.

- **أيار (مايو) ١٩٩٧ م:**

- في اليوم السابع: عين يلتسين تشوبايس نائباً أول لرئيس الوزراء الروسي.
- أعلن البرلمان الروسي العفو عن المسلحين المشاركين بالحرب الشيشانية مقابل مبادلتهم بالروس المحتجزين في الشيشان، ولكن العفو لم يشمل المجاهد شامل باساييف.
- في اليوم الحادي عشر: أقال يلتسين أعضاء حكومته ما عدا رئيس الوزراء تشيرنوميردين ونائبه تشوبايس.
- في اليوم السابع عشر: عين يلتسين بوريس نيمتسوف نائباً أول لرئيس الوزراء إلى جانب تشوبايس الصهيوني.
- في اليوم الثاني عشر: وقّع يلتسين وأصلان مسخادوف الرئيس الشيشاني اتفاق سلام دائم يحدد إطار العلاقة بين روسيا والشيشان.
- في اليوم السابع عشر: وقّع أصلان مسخادوف مرسوماً لحل الجبهات والوحدات المسلحة تعبيراً عن انتهاء الحرب بين روسيا والشيشان.
- في اليوم الثاني والعشرين: أقال يلتسين وزير الدفاع الروسي (إيجور روديونوف) لفشله في إصلاح الجيش وعين إيجور سيرجييف وزيراً للدفاع.
- في اليوم الثالث والعشرين: وقع يلتسين وألكسندر لوكاشينكو، بالكرملين، اتفاق الوحدة بين روسيا وروسيا البيضاء.

- **حزيران (يونيو) ١٩٩٧ م:**

- في اليوم السادس عشر: شنَّ مسخادوف رئيس الشيشان حملة عسكرية لمطاردة عصابات خطف الأجانب ببلاده.
- في اليوم الحادي والعشرين: تقدم وزير العدل الروسي فالنتيني كوفاليف بطلب رسمي ليلتسين لإعفائه من مهام منصبه بعد نشر صور فاضحة له في إحدى الصحف الروسية.

- **تموز (يوليو) ١٩٩٧ م:**

- في اليوم الخامس: اختطف مسلحون عاملي إغاثة بريطانيين في العاصمة الشيشانية غروزني.
- في اليوم التاسع والعشرين: أعلن الرئيس الشيشاني أصلان مسخادوف عن وقف المحادثات مع روسيا بعد امتناعها عن تقديم الدعم الاقتصادي الذي تعهدت به.

- **آب (أغسطس) ١٩٩٧ م:**

- في اليوم الثامن عشر: بحث يلتسين ومسخادوف الرئيس الشيشاني العلاقات الثنائية واتفقا على تشكيل لجنة لبحث المشكلات القائمة.
- رفضت روسيا الاعتراف الرسمي باستقلال الشيشان.

- دفعت محطة تليفزيون روسية فدية مليون دولار لإحدى الجماعات الشيشانية المسلحة لإطلاق سراح خمسة صحفيين رهائن منذ شهور.
- في اليوم الثاني والعشرين: أكد يلتسين موافقته على منح الشيشان أعلى درجات الاستقلالية في إطار وجودها داخل الاتحاد الروسي.
- **أيلول (سبتمبر) ١٩٩٧ م:**
- في اليوم الأول: قرر يلتسين عدم خوض انتخابات الرئاسة المقبلة عام ٢٠٠٠ م.
- في اليوم التاسع: وقعت روسيا والشيشان على اتفاق مرور بترول أذربيجان عبر الأراضي الشيشانية للأسواق العالمية.
- في اليوم التاسع عشر: أقرَّ مجلس النواب الروسي قانون الأديان بعد تعديله.
- دعا شيراك، في ختام زيارته لروسيا، لتعميق التعاون الاقتصادي مع روسيا ووقع اتفاقاً لتصنيع الطائرات الحربية.
- **تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٧ م:**
- في اليوم الأول: رفضت روسيا التوقيع على معاهدة حظر الألغام. طردت الحكومة الشيشانية جميع المسؤولين الروس من العاصمة الشيشانية غروزني.
- في اليوم السابع: قررت جمهورية الشيشان إصدار جواز سفر مستقل عن روسيا.
- في اليوم التاسع: رفض يلتسين ترشيح نفسه لفترة رئاسية ثالثة.
- في اليوم الحادي والعشرين: وافق النواب الشيوعيون على إسقاط مطلب سحب الثقة من الحكومة الروسية بعد استجابة يلتسين لبعض مطالبهم.
- في اليوم الحادي والثلاثين: أقرَّ مجلس النواب الروسي الاتفاقية الدولية لحظر الأسلحة الكيماوية.
- **تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٧ م:**
- في اليوم الخامس: أعلن أصلان مسخادوف، الرئيس الشيشاني، عن قيام جمهورية إسلامية تحت اسم الجمهورية الشيشانية الإسلامية «اشكيريا».
- في اليوم التاسع عشر: رضخت الحكومة الروسية لمطالب المعارضة وأقالت أناتولي تشوبايس وزير المالية لتورطه في فضيحة رشاوى.
- في اليوم الحادي والعشرين: أقرَّ مجلس النواب إرجاء مناقشة الميزانية احتجاجاً على بقاء أناتولي تشوبايس كنائب لرئيس الوزراء.
- في اليوم الخامس والعشرين: أكد يلتسين تمسكه بتشوبايس لدوره الكبير في التنمية الاقتصادية بروسيا ولكن البرلمان أجبر يلتسين على عزل تشوبايس.

مراجع الملحق

١ ـ أعداد جريدة الاتحاد الظبيانية لأعوام ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧ م.

٢ ـ أعداد جريدة الشرق الأوسط لأعوام ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦ م.

٣ ـ بعض أعداد صحيفة الأهرام والجزيرة السعودية والبيان الأماراتية والسفير اللبنانية والرأي العام الكويتية.

٤ ـ بعض الصحف السورية، البعث خاصة.

٥ ـ مجلة السياسة الدولية وهي دورية علمية محكمة تصدر عن مؤسسة الأهرام أول كانون الثاني (يناير) ـ نيسان (أبريل) ـ تموز (يوليو) ـ تشرين الأول (أكتوبر) من كل عام وقد اعتمدت على أعدادها من عام ١٩٩١ ـ حتى عام ١٩٩٧.

مصادر ومراجع الدراسة

مراجع الفصل الأول

١ ـ جريدة الشرق الأوسط اللندنية العدد ٥٨٩٤ تاريخ ١٧/ ١/ ١٩٩٥ م.

٢ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي.

٣ ـ دائرة معارف القرن العشرين ـ محمد فريد وجدي. المجلد السابع.

٤ ـ محاضرة: د. عادل عبد السلام المحفوظة في مكتبة الجمعية الشركسية بدمشق عن جغرافيا القوقاز، ص ٢.

٥ ـ مقال د. صلاح الدين شروخ «جملة ملاحظات على مقالة سيار الجمل التكوينات التاريخية لجمهوريات القوقاز وما وراءها ـ مجلة المستقبل العربي ٢١٠ آب/ أغسطس ١٩٩٦ م ص ١٢٠.

٦ ـ جريدة البيان الإماراتية العدد ١/٥٧٧٩، ذي القعدة ١٤١٦ هـ دراسة من كتاب «القادة السبعة».

٧ ـ كتاب دروس في الجغرافيا الحديثة: قارة آسيا، تأليف: محمد نجيب الجزاز/ حلب، شباط/ فبراير ١٩٤٠ م ص ٩٧ ـ ٩٨.

٨ ـ كتاب تهجير الشراكسة، تأليف: نهاد برزخ. ترجمة: عصام الحسن حتق، عمان ١٩٨٧ م ص ١٣.

٩ ـ تاريخ التجارة في القوقاز، تأليف ـ أحمد جانيك ـ استنبول ص ٧.

مراجع الفصل الثاني

١٠ ـ مجلة العربي الكويتية مقال المرحوم د. أحمد زكي «سلالات البشر»، العدد ١٢١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٨ م ص ٢٦.

١١ ـ جريدة الشرق الأوسط العدد ٥٨٩٤ تاريخ ١٧/ ١/ ١٩٩٥ م مرجع سابق.

١٢ ـ كتاب تاريخ القوقاز، تأليف مت جوناتوقة يوسف عزت، تعريب: خوستوقة. عبد الحميد غالب/ إصدار ـ دار صوت النارتيين للنشر عمان الأردن ص ٥٩.

١٣ ـ تهجير الشراكسة ـ نهاد برزخ ص ١٤ مرجع سابق.

١٤ ـ تاريخ الأديكة الجركس القديم، تأليف «شورا بكيمرزانو غموقة». ترجمه إلى الألمانية ونقحه الأستاذ «آدولف» تعريب شوكت المفتي. مطبعة الأردن عمان ١٩٥٣ م ص ٨ وما بعدها.

١٥ ـ تاريخ القوقاز، يوسف عزت مرجع سابق.

١٦ ـ مجلة العربي الكويتية العدد ٣٣٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٦ م ص ٧١، مقال فسيفساء اللغات والناس في القوقاز.

١٧ ـ كتاب «داغستان بلدي»، تأليف رسول حمزاتوف، تعريب عبد الغني الملوحي ويوسف حلاق ـ دار الفارابي ١٩٨٢ ص ٣٥٠.

١٨ ـ تاريخ الأديكة، شورا بكيمرزانو غموقة، مرجع سابق ص ٤٠.

١٩ ـ راجع كتاب أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة، ص ١٣ ـ وهو من تأليف باتراي أوزبك ـ ترجمة أحمد راتب زنداقي، عمان الأردن إصدار مكتبة الشباب ١٩٨٨ م.

٢٠ ـ تاريخ القوقاز، يوسف عزت، مرجع سابق ص ٢٢١.

٢١ ـ أساطير النارتيين، مرجع سابق ص ٥٤ وما بعدها.

٢٢ ـ دراسات أثرية تاريخية في القوقاز، تأليف «مورجان» فرنسي.

٢٣ ـ تاريخ الأمم الشرقية، تأليف «ماسبيرو» فرنسي.

مراجع الفصل الثالث

٢٤ ـ تاريخ الأديكة، شورا بكيمرزانو غموقة، صفحات مختلفة.

٢٥ ـ مجلة الآداب الأجنبية السورية العدد ٩١ صيف ١٩٩٧ م مقال «قباردا بلقاريا والعالم العربي» إعداد نوح شورهي ص ١٨.

٢٦ ـ كتاب القبيلة الثالثة عشرة، تأليف «كوستلر» ترجمة أحمد نجيب، منشورات الهيئة المصرية العامة عام ١٩٩١ م.

٢٧ ـ كتاب التاريخ السياسي للدولة العربية، تأليف د. عبد المنعم ماجد، منشورات الجامعة العربية بيروت ص ٢٤٨.

٢٨ ـ مقال د. موسى عادل الشيشاني أستاذ في جامعة الملك سعود بالرياض كلية التربية في جريدة الشرق الأوسط اللندنية عدد ٢٥/ ١/ ١٩٩٥ م حول انتشار الإسلام في القوقاز.

مراجع الفصل الرابع

٢٩ ـ الدولة البيزنطية، تأليف د. السيد الباز العريني، الناشر دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٥ م ص ٢٩٠.

٣٠ ـ رسالة ابن فضلان في وصف رحلته إلى بلاد الترك والخزر والروس سنة ٣٠٩ هـ ٩٢١ م، حققها وعلق عليها الدكتور سامي الدهان ـ الطبعة الثانية. أعدتها مديرية إحياء التراث العربي بوزارة الثقافة السورية دمشق ١٩٧٧ ص ٣١ وما بعدها.

٣١ ـ كتاب أمبراطورية الخزر وميراثها ، تأليف المفكر الصهيوني الهنغاري الأصل «كوستلر».

٣٢ ـ الدولة البيزنطية، تأليف د. السيد الباز العريني، مرجع سابق ص ٤٣٠ ـ ٤٣١، وما بعدها والصفحة ٦٢١ ـ ٦٢٢، ٦٢٣ ـ ٦٢٤.

٣٣ ـ قصة الحضارة، تأليف ول. ديورانت، الجزء/ ١٥ ص ١٥٣، ترجمة محمد بدران.

٣٤ ـ أبطال وأباطرة في تاريخ القوقاز، ص ٢٠ تأليف شوكت المفتي.

٣٥ ـ قصة الحضارة، ول. ديورانت الجزء/ ٢٦ ص ١٣ وما بعدها ترجمة عبد الحميد يونس.

٣٦ ـ قصة الحضارة، الجزء ٢٦ مرجع سابق ص ١٥ مرجع سابق.

٣٧ ـ الإسلام في وجه الزحف الأحمر، تأليف محمد الغزالي، منشورات المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٦ م رجب ١٣٨١ هـ ص ١١١ وما بعدها.

مراجع الفصل الخامس

٣٨ ـ كتاب أبطال وأباطرة في تاريخ القوقاز، تأليف الدكتور شوكت المفتي، الطبعة الأولى ١٩٦٣ القدس، كانون الثاني/ يناير ١٩٦٣ م شعبان ١٣٨٢ هـ ص ٢٤٠ وما بعدها.

٣٩ ـ مقال «ثورة الإمام منصور أجهضت أحلام القياصرة، د. موسى عادل الشيشاني، جريدة الشرق الأوسط عدد/ ٥٩٠٢ تاريخ ٢٥/ ١/ ١٩٩٥ م.

٤٠ ـ مقال المرحوم الدكتور شاكر مصطفى «الشركس كيف أخرجوا من ديارهم» مجلة العربي العدد ٤١٧ آب/ أغسطس ١٩٩٣ م.

٤١ ـ مقال. قباردا ـ بلقاريا والعالم العربي. إعداد غسان نوح شوهي، مجلة الآداب الأجنبية ص ١٤.

٤٢ ـ أبطال وأباطرة شوكت المفتي ص ١٠٥ ثورة الإمام غازي محمد، مرجع سابق.

٤٣ ـ تهجير الشراكسة، نهاد برزخ، ص ٩٦ ـ ٩٧ وما بعدها مرجع سابق.

٤٤ ـ داغستان بلدي، رسول حمزاتوف.

٤٥ ـ كتاب حرب القوقاز الأولى، تأليف د. أحمد موسى الشيشاني، صدر ضمن سلسلة «دعوة الحق» العدد ١٥٢ شعبان ١٤١٥ هـ السنة الثالثة عشرة.

٤٦ ـ مجلة العربي مقال: الشيشان بلاد مسكونة بالحلم والأساطير والمقاومة. بقلم عبد المنعم الأعسم، العدد ٤٣٨ أيار/ مايو ١٩٩٥ م ص ٢٧ وما بعدها.

مراجع الفصل السادس

٤٧ ـ الإسلام في وجه الزحف الأحمر، محمد الغزالي، ص ١٢٤ وما بعدها.

٤٨ ـ لينين ـ المجلدات الكاملة.

٤٩ ـ محاضرة د. عادل عبد السلام في المركز الثقافي في حمص عن قضية الشيشان تموز/ يوليو ١٩٩٥ م.

٥٠ ـ كتاب مأساة إخواننا في الشيشان «إصدار لجنة شباب الجمهوريات الإسلامية في روسيا الاتحادية بالندوة العالمية للشباب الإسلامي، أيار/ مايو ١٩٩٦ م إعداد د. فهد العصيمي السعودية.

٥١ ـ كتاب الرأي العام، تأليف وزير الإعلام المصري السابق عبد القادر حاتم.

مراجع الفصل السابع

٥٢ ـ مقال كاظم نوري في جريدة الشرق الأوسط عدد ١٠/١/١٩٩٥ م كاتب عراقي مقيم في لندن.

٥٣ ـ كتاب بلقنة العالم، تأليف إيف ماري لولان، ترجمة أديب هـ. الفاضل، نشر دار الفاضل الطبعة الأولى ١٩٩٣ م ص ٨٣ وما بعدها، وص ٢٣ وما بعدها.

٥٤ ـ مجلة العربي مقال د. هيثم الكيلاني حين انتهت الحرب العالمية الثانية العدد/ ٤٣٠، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٤ م ص ٢٨ وما بعدها.

٥٥ ـ جريدة الاتحاد الظبيانية: دراسة أحمد الخميسي «الاتحاد في أرض القتال» الخميس ١٤ ربيع الأول ١٠، آب/ أغسطس ١٩٩٥ م.

٥٦ ـ كتاب الصعود والانحدار من القمة، تأليف الجنرال ألكسندر كورجاكوف، موجز عنه في جريدة الاتحاد.

٥٧ ـ الامبراطورية الآثمة، تأليف ستانسلاف جفروخين ـ ترجمة يوسف محمد بشارة والمنشور على حلقات في جريدة البيان الإماراتية.

٥٨ ـ مقال د. أحمد الخميسي في جريدة الاتحاد عنوانه «تعددت المناسبات والإجازة ليوم الدستور الروسي، عدد ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٦ م.

٥٩ ـ التقرير الإخباري الذي كتبه من موسكو الصحفي «ريتشارد بوردو» مراسل لوس أنجلز تايمز والذي نشرته الشرق الأوسط مترجماً في عددها ٥٢٩٦ السبت في ٢٩/ ٥/ ١٩٩٣ م.

٦٠ ـ كتاب روسيا المخدوعة فشل ديمقراطية يلتسين، تأليف السياسي الألماني «ديرك زاغر».

٦١ ـ ملف جريدة البيان الإماراتية عن الأزمة الروسية الأخيرة، عدد ٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٨ م.

٦٢ ـ مقال حازم غراب في جريدة الأهرام المصرية، ٥ أيار/ مايو ١٩٩٨ م عن الأزمة الروسية.

٦٣ ـ مقال الانهيار الاقتصادي في روسيا جريدة الاتحاد، عدد ١٠/ ١٠/ ١٩٩٨ م.

مراجع الفصل الثامن

٦٤ ـ جريدة الاتحاد الظبيانية عدد ٩ نيسان/ إبريل ١٩٩٨ م مقال اليهود يسيطرون على الإعلام الروسي د. أحمد الخميسي.

٦٥ ـ كتاب حقيقة الشيوعية، لمجموعة من الكتاب المصريين.

٦٦ ـ مقال ـ ناديا خوست في الأسبوع الأدبي السورية الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب تحت عنوان مملكة الصهيونية في العدد ٤٥١ تاريخ ١٤/ ١٢/ ١٩٩٦ م.

٦٧ ـ كتاب حركات ومذاهب في ميزان الإسلام، فتحي يكن عام، ١٩٩٧ م الطبعة الأولى ص ٢٩.

٦٨ ـ كتاب الصهيونية في الاتحاد السوفييتي، تأليف هاني مندس، الطبعة الأولى بيروت ١٩٩١ م إصدار كومبيونشر ص ٧ وما بعدها.

٦٩ ـ جريدة الاتحاد مقال د. فايز الرشيد «الصهيونية ومحاولة الإمساك بالمستقبل الروسي، عدد ٢٠/ ٦/ ١٩٩٧ م كاتب فلسطيني مقيم في عمان.

٧٠ ـ جريدة الاتحاد عدد ٩ نيسان/ إبريل ١٩٩٧ م مرجع سابق وجريدة الاتحاد عدد ٢/ ٢/ ١٩٩٧ م.

٧١ ـ جريدة الحياة الصادرة في لندن العدد ١٢٥٣١ تاريخ ٢١/ ٧/ ١٩٩٧ م.

٧٢ ـ جريدة الاتحاد عدد ٢٢/ ٤/ ١٩٩٨ م مقال الدكتور أحمد الخميسي «الروس يتخوفون من التغلغل الصهيوني، وجريدة الاتحاد عدد ١٠/ ١٠/ ١٩٩٨ م.

٧٣ ـ جريدة الاتحاد عدد ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٧ م تقرير د. أحمد الخميسي من موسكو عن التغلغل الصهيوني في أركان القيادة الروسية وعزل بيرزوفسكي من منصبه.

٧٤ ـ جريدة الاتحاد عدد ٦/ ٥/ ١٩٩٨ م مقال أحمد الخميسي المخططات الأمريكية تبتلع رابطة الدول المستقلة، وأيضاً ملف جريدة البيان عدد ٣٩٢ الجمعة ٢٠/ ١١/ ١٩٩٨ م مقال: اليهود يشوهون الإسلام في روسيا د. مغازي البدراوي.

مراجع الفصل التاسع

٧٥ ـ محاضرة د. عادل عبد السلام في حمص مرجع سابق.

٧٦ ـ كتاب مأساة إخواننا في الشيشان، تأليف د. فهد العصيمي، السعودية ١٩٩٧ م مرجع سابق.

٧٧ ـ مجلة العربي العدد ٤٣٨ أيار/ مايو ١٩٩٥ م مقال عبد المنعم الأعسم، ص ٣٣، مرجع سابق.

٧٨ ـ مقال: عادل المكنيزي «الشاشانيون وبداية مرحلة جديدة» المنشور في جريدة الجزيرة السعودية ملحق آفاق إسلامية عدد ١ شعبان ١٤١٧ هـ ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٦ م.

٧٩ ـ جريدة الاتحاد عدد ٣ شعبان ١٤١٥ هـ ٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥ م حيث نشرت نص الحوار بين د. أحمد الخميسي وروسلان شاميف نائب وزير خارجية الشيشان.

٨٠ ـ جريدة الشرق الأوسط عدد ٥٩٠٥ السبت ٢٨/ ١/ ١٩٩٥.

٨١ ـ جريدة الشرق الأوسط الصادرة في لندن العدد ٥٩٠١/ تاريخ ٢٤/ ١/ ١٩٩٥ م حيث نشرت نشيد الشيشان.

٨٢ ـ جريدة الشرق الأوسط عدد ٢٩/ ٧/ ١٩٩٥ م.

٨٣ ـ مجلة البلاد اللبنانية مقال: تتارستان: وقصة الصراع بين موسكو وقازان، عدد السبت ٢ آذار/ مارس ١٩٩٦ م.

٨٤ ـ جريدة الشرق الأوسط عدد ٢٩/ ٧/ ١٩٩٥ م حيث نشرت في عددها المذكور التقرير البرلماني الذي ناقشه مجلس الدوما الروسي في ختام دورته الربيعية عام ١٩٩٥ م والذي يدور بكامله حول الوضع في الشيشان.

٨٥ ـ جريدة الاتحاد عدد ١٦ شوال ١٤١٥ هـ ١٧ آذار/ مارس ١٩٩٥ م، مقال محمود عبد الرحمن عنوانه «قراءة في سجل الاستعمار الروسي للبلدان الإسلامية» لمناسبة الحرب في الشيشان.

٨٦ ـ كتاب نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال، تأليف مجموعة من الكتاب السوريين، إصدار دار مشرق مغرب في دمشق ١٩٩٧ م.

٨٧ ـ جريدة الاتحاد الظبيانية عدد الخميس ١٤ ربيع الأول ١٤١٦ هـ الموافق ١٠ آب/ أغسطس ١٩٩٥ م.
٨٨ ـ أنظر دراسة موجزة عن كتاب الصعود والانحدار من القمة، للجنرال ألكسندر كورجاكوف المنشورة في جريدة الاتحاد عدد ١٥/ ٨/ ١٩٩٧ م.
٨٩ ـ مقال سامي عمارة في جريدة الشرق الأوسط «غروزني بين الشريطين الأخضر والأسود وهدف الفوز بإحدى الحسنيين، الاثنين ٣٠/ ١/ ١٩٩٥ م العدد ٥٩٠٧.
٩٠ ـ صحيفة الاعتدال الصادرة في نيوجرسي بأمريكا وهي صحيفة عربية أسبوعية وقد نشرت تقريراً عن الأوضاع الصحية في غروزني في ٧/ ٢/ ١٩٩٥ م.
٩١ ـ جريدة الشرق الأوسط عدد ٢٥، ١/ ١٩/ ١٩٩٥ م.
٩٢ ـ جريدة الشرق الأوسط عدد ٣١، ٥/ ١٩٩٥ م تقرير أعده سامي عمارة من موسكو.
٩٣ ـ مجلة الكفاح العربي اللبنانية العدد «٨٦١» تاريخ ٢٣/ ٢/ ١٩٩٥ م.
٩٤ ـ جريدة الحياة الصادرة في لندن العدد «١١٨١٩» ٢ تموز/ يوليو ١٩٩٥ م مقال «المهم كيف تموت» للصحفي جلال الماشطة، وكذلك صحيفة الشرق الأوسط في ٢٥/ ٧/ ١٩٩٥ م.
٩٥ ـ جريدة الشرق الأوسط عدد ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٩٥ زاوية من أقوال الأسبوع الصفحة الأخيرة.
٩٦ ـ جريدة الشرق الأوسط عدد ١٩/ ٦/ ١٩٩٥ م.
٩٧ ـ مجلة الكفاح العربي اللبنانية العدد ٩١٣ تاريخ ٢٩/ ١/ ١٩٩٦ م.
٩٨ ـ جريدة المستقلة الصادرة في لندن مقال خالد شوكات مقال: «من أي طينة صُنع هذا الشعب الشيشاني» تاريخ ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٦ م.
٩٩ ـ جريدة الاتحاد الظبيانية الثلاثاء ٢٠ ذي الحجة ١٤١٦ هـ الموافق ٧ أيار/ مايو ١٩٩٦ م مقال روسلان حسب اللاتوف «ماذا بعد اغتيال دودايف».
١٠٠ ـ كتاب نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال تأليف: د. زهدي سطاس وراتب سطاس وملك أرسلان مرزة وأميرة قبرطاي، دار مشرق مغرب الباب الثاني الفصل الرابع ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.
١٠١ ـ جريدة الاتحاد مقال روسلان حسب اللاتوف، عدد الثلاثاء ٧ أيار/ مايو ١٩٩٦ م.
١٠٢ ـ جريدة الاتحاد عدد ١٠/ ١١/ ١٩٩٨ م.

١٠٣ ـ جريدة الاتحاد في تحليلها الإخباري الذي كتبه أحمد الخميسي من موسكو في عدد ٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٦ م وكذلك جريدة الشرق الأوسط عدد ٢/ ٩/ ١٩٩٦ م.

١٠٤ ـ جريدة الرأي العام الكويتية العدد «١١٢١٠» تاريخ ١/ ٣/ ١٩٩٨ م مقابلة مع سيد أحمد نائب وزير خارجية الشيشان.

١٠٥ ـ جريدة البيان الإماراتية العدد «٦٤٩١» ٢٧ آذار/ مارس ١٩٩٨ م. مقابلة مع نائب رئيس الشيشان.

١٠٦ ـ مجلة الفيصل العدد ٢٥٩ المحرم ١٤١٩ هـ أيار/ مايو ١٩٩٨ م مقال بسام العسلي عن الحرب الشيشانية.

١٠٧ ـ جريدة الاتحاد عدد ٢٠ أيار/ مايو ١٩٩٧ م.

١٠٨ ـ صحيفة الأهرام في ١٨/ ٥/ ١٩٩٧ م.

١٠٩ ـ صحيفة الشرق الأوسط عدد ١٦/ ٥/ ١٩٩٧ م.

١١٠ ـ جريدة الاتحاد مقال أحمد الخميسي «السلام الشيشاني القائم بين النفط والصراعات والحرية، عدد ٢٢/ ٦/ ١٩٩٧ م.

١١١ ـ جريدة السفير اللبنانية الاثنين ١/ ٩/ ١٩٩٧ م مقال «جورجيا تستقبل مسخادوف».

١١٢ ـ جريدة الرأي العام الكويتية العدد ١١٢٢٩ الجمعة ٢٠ آذار/ مارس ١٩٩٨ م. وعدد ١١٢١٠، ١/ ٣/ ١٩٩٨ م.

١١٣ ـ جريدة البعث السورية الجمعة ٢٢/ ٥/ ١٩٩٨ م وجريدة الاتحاد في ٢٤/ ٥/ ١٩٩٨ م.

١١٤ ـ جريدة الاتحاد الظبيانية عدد ١٤/ ٦/ ١٩٩٨ م.

١١٥ ـ جريدة الاتحاد عدد ٢٧ نيسان/ أبريل ١٩٩٨ م مقال «المقاتلون الشيشان يخوضون معركة استقطاب الاستثمار الأجنبي».

١١٦ ـ جريدة الاتحاد عدد ٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧ م تقرير «الشيشان يحلمون بتحرير فلسطين»، وتقرير آخر عنوانه «الحرب أيقظت الحس الديني لدى مسلمي الشيشان».

١١٧ ـ جريدة السفير اللبنانية عدد ١٥/ ٨/ ١٩٩٧ م، وجريدة البعث ١٤/ ٨/ ١٩٩٧ م.

١١٨ ـ جريدة الاتحاد عدد ١٠/ ٦/ ١٩٩٧ م وعدد ١٠/ ٩/ ١٩٩٧ م.
١١٩ ـ جريدة الاعتدال عدد ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨ م حيث نشرت ترجمة لمقال جريدة لوس أنجلس تايمز.

مراجع الفصل العاشر

١٢٠ ـ جريدة الحياة عدد ٢٤/ ٧/ ١٩٩٨ م، وكذلك جريدة الاتحاد ٢٤/ ٧/ ١٩٩٨ م.
١٢١ ـ جريدة الاتحاد عدد ٢١/ ١٠/ ١٩٩٦ م مقابلة مع حسب اللاتوف أجراها أحمد الخميسي.
١٢٢ ـ جريدة الاتحاد عدد ٢٠/ ٢/ ١٩٩٧ م مقال أضواء على الحرب الشيشانية الروسية د. عفيف رزق.
١٢٣ ـ جريدة الشرق الأوسط مقال «العار ليلتسين»، الكاتب المصري أحمد حمروش ٨/ ١/ ١٩٩٥ م.
١٢٤ ـ جريدة الاعتدال ١٢/ ٢/ ١٩٩٥ م.
١٢٥ ـ جريدة الاتحاد ١٤/ ١١/ ١٩٩٦ م مقال: قتل وانتحار بسبب الخلاف حول الشيشان.
١٢٦ ـ جريدة الشرق الأوسط مقال د. سامي عمارة ١٠/ ١/ ١٩٩٥ م ومقال آخر لسامي عمارة كتبه من موسكو عنوانه «الشيشان في الصحافة الروسية».
١٢٧ ـ جريدة الشرق الأوسط العدد ٥٨٨٨ الأربعاء ١١/ ١/ ١٩٩٥ م.
١٢٨ ـ جريدة الاتحاد عدد ١٤/ ١/ ١٩٩٥ م.
١٢٩ ـ جريدة البيان مقال «ديفيد ريمنيك» مراسل الواشنطن بوست في موسكو «روسيا هل يمكن أن تتغير» ترجمة مصطفى كمال، شباط/ فبراير ١٩٩٧ م.
١٣٠ ـ جريدة الاتحاد ١١ أيار/ مايو ١٩٩٦ م نشرت مقال رسول حمزاتوف عنوانه «دماء الحروب تنز في التاريخ فأوقفوا الحرب الشيشانية».
١٣١ ـ حديث الجمعة ملحق جريدة الاتحاد الظبيانية، عدد يوم الجمعة في ٢٤/ ٣/ ١٩٩٥ م وهو ملحق ديني.
١٣٢ ـ مجلة السياسة الدولية العدد ١٢٠ نيسان/ إبريل ١٩٩٥ م السنة الواحدة والثلاثون، دراسة حنان تمام سرور عن «المشكلة الشيشانية أصولها وآفاقها».

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
الفصل الأول: خصوصية أرض القوقاز	٧
ـ أصل التسمية	٧
ـ الموقع والتضاريس والمناخ	٨
ـ المناخ والمياه والنبات	٩
ـ أهمية موقع القوقاز	١١
الفصل الثاني: خصوصية شعوب القوقاز	١٢
ـ أصل سكان القوقاز	١٢
ـ لمحة عن الشعب الشركسي	١٤
ـ أصل الشركس	١٥
ـ اللغة الشركسية	١٦
ـ خصائص مجتمع الأديغة (الشركس)	١٩
الفصل الثالث: لمحة عن تاريخ الشركس في القوقاز	٢٩
١ ـ دور الفتح والتضخم	٢٩
٢ ـ دور التقهقر والانحطاط	٣٠
٣ ـ دور التيقظ والانتباه	٣١
ـ الفتوحات الإسلامية في القوقاز	٣١
١ ـ الفتوحات الإسلامية	٣٣
٢ ـ دول المغول والتتار في انتشار الإسلام في القوقاز	٣٥

الموضوع	الصفحة

٣ ـ دور العثمانيين ٣٧
٤ ـ دور الانقراض والزوال ٣٨
الفصل الرابع: قيام الأمبراطورية الروسية ٣٩
ـ أصل الروس ٣٩
ـ انتشار المسيحية في روسيا ٤١
ـ توحيد روسيا وقيام الأمبراطورية الروسية ٤٣
الفصل الخامس: الاستعمار الروسي في القوفاز (أو حرب القوقاز الأولى) ٥٣
ـ ثورة الشيخ منصور الشيشاني ٥٦
ـ ثورة الإمام الغازي مولاي محمد ٦٠
ـ ثورة الإمام شامل ٦٤
ـ التآمر الروسي ـ العثماني على الشركس ٧٥
ـ ملاحظات على حروب القوقاز ٧٨
الفصل السادس: نسور القوقاز في وجه الزحف الأحمر ٨٥
ـ معاناة المسلمين من الحكم الشيوعي ٩٠
ـ مأساة الشيشان والأنغوش خلال الحرب العالمية الثانية ٩٣
ـ الثورة الثقافية وحملتها على الإسلام ٩٥
الفصل السابع: الانهيار الكبير: أسبابه ونتائجه ٩٨
ـ البيريسترويكا والتمهيد لظهور يلتسين ١٠٢
ـ شخصية يلتسين ودوره في انهيار الاتحاد السوفييتي ١٠٣
ـ إصلاحات يلتسين الاقتصادية ونتائجها ١١٣
الفصل الثامن: التغلغل الصهيوني في روسيا ١١٩
ـ التغلغل الصهيوني في روسيا بعد قيام الحكم الشيوعي ١٢٠
ـ التغلغل الصهيوني في عهد غورباتشوف ويلتسين ١٢٣
الفصل التاسع: وقائع الثورة الشيشانية ١٣٣
ـ لمحة عامة عن جمهورية الشيشان الإسلامية ١٣٣
ـ وقائع الثورة الشيشانية ١٣٦
ـ مرحلة جوهر دودايف ١٣٧

الموضوع	الصفحة

- إعلان الاستقلال ١٤٠
- تصفية الوجود السوفييتي في الشيشان ١٤٣
- موقف موسكو من إعلان استقلال الشيشان ١٤٤
- المجابهة بين دودايف والمعارضة ١٤٩
- الأوضاع في الشيشان وروسيا الاتحادية عشية إعلان الحرب ١٥٥
أولاً: في الشيشان ١٥٥
ثانياً: في روسيا ١٥٥
١ ـ المقاومة الشيشانية في عهد الرئيس جوهر دودايف ١٥٨
معاناة غروزني خلال الحرب ١٥٩
المقاومة الشيشانية بعد سقوط غروزني ١٦٦
- عملية بوديونوفسك ١٧١
- عملية الذئب الوحيد ١٧٤
- اغتيال القائد التاريخي جوهر دودايف ١٧٨
٢ ـ وقائع الثورة الشيشانية في عهد ياندر بابيف ١٨٠
- تحرير غروزني ١٨٦
- الانتخابات الرئاسية والبرلمانية في الشيشان ١٩٤
٣ ـ الثورة الشيشانية في عهد أصلان مسخادوف ١٩٦
١ ـ على الصعيد السياسي ١٩٨
٢ ـ على الصعيد الاقتصادي ٢٠٦
٣ ـ في مجال أسلمة المجتمع الشيشاني ٢٠٨
الفصل العاشر: موقف الرأي العام الروسي والعالمي من حرب الإبادة في الشيشان .. ٢١٥
١ ـ موقف الرأي العام الروسي ٢١٥
٢ ـ موقف الإعلام والصحافة الروسية ٢١٨
٣ ـ موقف مفوضية حقوق الإنسان الروسية ٢١٩
٤ ـ موقف مجلس الدوما الروسي ٢٢١
٥ ـ موقف بعض الشخصيات الروسية من الحرب ٢٢٢
٦ ـ موقف الأحزاب السياسية الرئيسية في روسيا من الحرب الشيشانية ٢٢٢

الموضوع	الصفحة
٧ ـ موقف الغرب من حرب الإبادة في الشيشان	٢٢٧
٨ ـ موقف الدول العربية والإسلامية	٢٢٩
ملحق: أحداث الشيشان	٢٣٥
مصادر ومراجع الدراسة	٢٥١
فهرس الموضوعات	٢٦١